أداجيو

رواية

إبراهيم عبد المجيد

الدار المصرية اللبنانية

أداجيو

رواية

عبد المجيد، إبراهيم.

أداجيو: رواية / إبراهيم عبد المجيد .- ط1.

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.

272 ص؛ 20 سم.

تدمك: 2 - 923 - 427 - 977 - 978

1- القصص العربية.

ب- العنوان. 813

رقم الإيداع: 19709 /2014

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

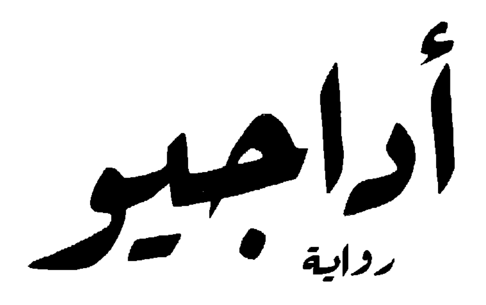
تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

الطبعة الأولى: ذو القعدة 1435 هـ - سبتمبر 2014م



إبراهيم عبد المجيد

الدار المصرية اللبنانية

1

تساءل سائق سيارة الإسعاف

- ألا يوجد هنا سكان؟

للحظات لم يرد عليه المسعف الذي يجلس جواره ثم قال:

- ربما نقابل ساكنا أو اثنين. العادة أنهم يأتون في الصيف.

بدا سائق سيارة الإسعاف في ضيق وهو يمضي بها في طرق مترية ضيقة. هو من القاهرة ولم يحدث أن نقل مريضا إلى الإسكندرية. وبالطبع لم ينقل مريضا إلى هنا.

كانت سيارة الإسعاف تتحرك على مهل فوق المطبات بين فلل تبدو مهجورة. المسعف جوار السائق يبدو مندهشا من المكان وأمامهما سيارة مرسيدس سوداء يتابعانها يقودها رجل الأعمال سامر الدريني. تساءل السائق من جديد:

- المنطقة اسمها العجمي. أليس كذلك؟

- الأستاذ قال الهانوفيل.

أجاب المسعف ولفهما الصمت. سيارة الإسعاف تسير على مهل في شوارع لا تتسع لأربعة أمتار، وتتلوى كثيرا وهما يتابعان العربة المرسيدس السوداء.

السائق ينظر إلى الفلل التي يبدو بعضها جميلا وبعضها مهملا. الجميل محاط بالأشجار وحدائق بينها حمامات سباحة خالية من الماء. لقد ابتعدوا كثيرا عن العمارات التي تشغل الطريق العام وطريقين أو ثلاثة بعده من ناحية البيطاش حتى صاروا بين الفلل فقط. لكن الطريق لم تنقطع منه المياه العفنة تظهر بين الحين والحين وتزداد كلما تقدموا وتعلو على الأرض. قال المسعف:

- المجاري طافحة في كل مكان.

رد السائق:

- يبدو لي أنها مياه جوفية أيضا. الظاهر أنهم يعتمدون على الصرف التقليدي. آبار أمام البيوت تأتي سيارات الصرف الصحي لنزحها عند الطلب. لقد رأيت أغطية كثيرة من الحجارة للآبار في الطريق. انظر.

وأشار إلى غطاء يبدو قطعة من الخرسانة المربعة التي يصل ضلعها إلى متر تقريبا تغطي بئرا يرتفع جداره الدائري قليلا عن الأرض.

- معك حق. لكن هل تفعل المياه الجوفية هذا؟

- هوه هوه هوه. يمكن أن تهدم البيوت. ربنا يكون في عون أصحاب الفلل هنا والعمارات طبعا.

شملهما الصمت من جديد وهما يتابعان السيارة المرسيدس على مهل.

بدا السائق متحيرا للغاية لكنه هز كتفه في لامبالاة واستمر يقود سيارة الإسعاف.

توقفت السيارة المرسيدس فتوقف السائق بسيارة الإسعاف. نزل من المرسيدس رجل في حوالي الخمسين من العمر يرتدي بدلة فوقها بالطو ووتر بروف أزرق أنيق، وجهه مستدير أبيض يميل إلى الاحمرار، شعره أسود مشت فيه على الجانبين خيوط بيضاء قليلة، وأقبل على سائق سيارة الإسعاف قائلا:

- هذه فيلتنا. دقيقة واحدة.

نزل السائق الذي نظر حوله فوجد متسعا من الأرض بين الفلل. كان من بين الفلل مبنيان يرتفعان إلى أربعة أدوار بدوا مهجورين تماما. لقد ارتفعت داخلهما المياه فيما يبدو وحاصرت الحيطان فنشعت من جدران الدور الأول إلى الخارج وعلتها طحالب خضراء. كان المسعف قد نزل بدوره ووقف جواره.

- ياه. واضح أن السكان طفشوا فعلا من زمان.

قال السائق ذلك وهو يشير إلى حائط منشع بالمياه لكنه رأى عصفورا صغيرا يحط واقفا على الجدار وينقر في الطحالب الخضراء ثم يطير يرفرف عاليا ويختفي فقال:

- سبحان الله.

كان المسعف يقف معه على الأرض المبللة بالماء الذي يرتفع أكثر عند جوانب كل المباني.

وقفا يتطلعان إلى الفيلَّا التي يدور حولها سور من الحجر يرتفع لأربعة أمتار أو أكثر يتوسطه باب من الحديد مؤدٍّ إلى مدخل طويل مرصوف بالرخام ينتهي إلى باب الفيلَّا التي تحيط بها حديقة كبيرة. ترتفع الفيلَّا لدورين من الحجر الدبش لا ألوان عليها لكنها بترتيبها صنعت أشكالا هندسية جميلة. المدخل على جانبيه أشجار كافور وكازورين عالية خضراء مثل التي تحيط بالحديقة خلف السور وترتفع عنه كثيرا جدا وبينها أشجار أكاسيا وسنديان. للسور باب حديدي عالٍ ينفتح على المدخل الذي هو باحة تتسع للجلوس أيضا

ترك المسعف السائق لحظات فتح فيها باب سيارة الإسعاف الخلفي وعاد:

- الحمد لله. كل شيء في مكانه. لكن.

- ماذا؟

تساءل السائق فقال المسعف:

- رأيتها تبتسم.

كان سامر قد فتح البوابة الحديدية للسور ثم فتح الباب الخشبي للفيلا. ما إن فتحه حتى اندفعت المياه خارجة منه بقوة إلى حذائيه. وقف حائرا لحظة. الماء ارتفع من الأرض في غيابهما وغطى الأرضية الباركيه

وارتفـع فوقهـا لعشـرة سـنتيمترات علـى الأقـل. وقف سـامر ينظـر إلى الأرضية الباركيه المغطاة بالماء الذي ارتفع إلى أرجل المقاعد والسفرة والنيش والمكتبة وقاعدة البيانو. صعد السـلم الداخلي بسرعة إلى الدور الثاني يعد السرير لاستقبالها. «ريم».

في الخارج كان المسـعف لا يزال يقف مع السـائق الذي ينظر حوله ويقول:

- المكان مهجور لكن الشمس حلوة جدا.

الشـمس الحانية تسـكب نورها ودفأهـا على المكان فالسـاعة الثانية ظهرا. هناك سـحب سـوداء حقا لكن متناثرة بعيدا في السـماء. الشـمس والفراغ يعطيان إحساسـا بالاتسـاع يقلل من وحشـة البيـوت الخالية من السكان. قال المسعف فجأة وهويشير إلى الأرض:

- الله. هدهد.

كان هدهد يتقافز على الأرض ويبتعد ثم يطير بعيدا في الفضاء. لكن السائق قال:

- قلبي حاسس أن وراء الأستاذ لغز هل هي زوجته فعلا؟

- يبـدو لي رجـلا مهما، ثم إننـا أخذناها من معهد السـرطان وهي مقيدة هناك باسمها كزوجته.

- لكن مريضة بالسـرطان كيف يأتي بها إلى مكان خال كهذا. إنها تحتاج رعاية كبيرة جدا.

سكت المسعف لحظات يفكر ثم قال:

- معك حق. لكن ربما سيأتي أحد من أهلها أو أقاربها. لا بد أن لهما أقارب هنا. وإلا

- إلا ماذا؟

- يكون مجنونا؟

- بصراحة رغم أنه يبدو رجلا مهما لكن أن يأتي بمريضة هنا يعني أنه مجنون.

قال السائق ذلك شاردا لكن سامر كان قد ظهرعائدا يقول:

- الصالة في الدور الأرضي نشعت في أرضيتها المياه. وضعت لكما عددا من البلاط تتحركان عليه. انقلوها للدور الثاني من فضلكم. سأكون معكم.

2

ينظر سامر إلى البيانو الكبير أمامه. يشغل مساحة كبيرة لكن الصالة متسعة بها أيضا منضدة سفرة كبيرة حولها اثنا عشر مقعدا، ونيش يمتلئ بالفضيات وقطع الصيني والأركوبال والبايركس والزجاج والكريستال من أدوات الطعام والشراب. وسط السقف نجفة من الكريستال والنحاس كبيرة ومتدرجة الأدوار تراها في القصورالقديمة. لقد اشترى كل النجف من محلات العاديات القديمة وكانت ريم دائما التي تختار. المقاعد الوثيرة متفرقة على الجدران.

كل شيء هنا غير البيانو من إنتاج مصنعه للأثاث الشرقي. الخشب الماهوجني أو الأبنوس أو البلوط أو الجوز أو الزان كله مطعم بالصدف وفي بعض الأحيان العاج أو الزجاج. على الجدران نسخ من لوحات لرينوار وديجا وبيكاسو وصور لخاتشادوريان وشوبان وموزار وسترافينسكي وفرانز ليست ومحمد عبد الوهاب وسيد درويش وعمر خيرت، وكلها في براويز خشبية صنعت وجهزت في مصنعه بأيدي عماله المهرة مطعمة جوانبها كلها بالصدف.

الآن لا يسمعها تطلب منه إضافة صورة أو شيء جديد إلى المكان. بدت له الترابيزات الصغيرة المطعمة أقدامها وحروفها الدائرية بالصدف صامتة بلا حياة. كذلك بدت المقاعد الخشبية الأربعة الصغيرة المتفرقة في الأركان والمطعمة بالصدف في الأجناب والقواعد والظهر والتي يسهل تطبيقها والانتقال بها إلى أي مكان. لايريد أن يتذكر أنها كانت تملأ ليالي الصيف هنا بعزفها. ولا أنها كانت تفعل ذلك في القاهرة أيضا. يريد أن يراها تفعل ذلك.

جليو بلاستوما glio plastoma. نوع مقاوم من السرطان إذ وصل إلى المرحلة الخامسة. كان يمكن أن نلحق به لو تم اكتشافه في بدايته، مرحلته الأولى أو الثانية. لكنه خطأ الأطباء. هنا وفي فرنسا نفسها لم يكتشفوه من البداية. كيف اجتمع الأطباء في أفريقيا وأوربا على القراءة الخطأ للأشعة. لا تفسير إلا القدر.

قالوا صرع. صرع في الثانية والأربعين من العمر بسبب كهرباء زائدة في المخ. صرع في عائلة لم تعرفه من قبل. ليس حزينا الآن على فراقها المحتوم. على يقين أنها ستعيش. كيف؟ مادامت القصة بدأت بالخطأ فستنتهي بالخطأ ولن تكون هي المستهدفة بالموت! ثم من قال إنها في غيبوبة. إنها تملأ حوله كل الفضاءات. يجريان في ساحة بالرباط بين أسراب الحمام فتسبقه ويقف يضحك. لقد ازداد وزنه هو الذي حرص دائما أن يكون رشيقا. هي الحمامة التي يمكن فجأة أن تلتحق بأسراب الحمام في السماء. صورهما معا أحضرها معه. وضعها حولها فوق السرير. قد تفيق من الغيبوبة لدقيقة وتراها. في الرباط وباريس وفينا

وفرانكفورت وروما والنمسا وموسكو. مئات الصور حوله الآن من كل الدنيا. كلها تتحرك. إنها تخرج من الصورة وتمشي أمامه وحولهما الجنود يعزفون مارش السلاف. تمشي معه وسط الجنود الروس متقدمين لإنقاذ الجنود الصرب في حربهم ضد جيوش العثمانيين. هو الذي يحتاج الآن إلى من ينقذه، وهي التي ستؤلف مقطوعة النصر وليس تشايكوفسكي. انتهى لكنها تطلب منه أن يرفعها قليلا عن الأرض التي ترتفع فوقها المياه. إنها تقف خلفه على البلاط الذي وضعه من أجل ذلك. تطلب منه أن يأخذها معه إلى السماء. القدر لبيتهوفن. صوت الموسيقى يملأ الحجرة الواسعة بملائكة تضحك. ماذا تريد يا حبيبي أن أعزف الليلة؟ ما تشاءين لفرانز ليست سوناتا أو كونشيرتو للبيانو. «هيا نرقص على التارانتيلا، أعظم ماخرج به ليست من رحلة إيطاليا. سنوات الحج كما أسماها».

يحيطها من الخلف وهي جالسة إلى البيانو تضحك. يضع يده على صدره يمسك بيدها التي وضعتها على صدره من الخلف الآن وهو يجلس إلى البيانو يضحك!. يعزف بيد واحدة. يبتسم. ينزل بيده حزينا يساعد الأخرى في العزف.

مصري؟ أجل. يهتف الشاب المغربي الفقير الذي يتوسط الفرقة الموسيقية الشعبية حين يراهما أمامه. يعزف لهما ويغني «كتاب حياتي يا عين ما شفت زيه كتاب. الفرح فيه ساعتين والباقي كله عذاب» يرتبك. لكنها تضحك. يضحك. هي التي طلبت منه أن يأتي بها إلى طنجة.

قالـت له أريـد أن أقف علـى المحيـط الأطلنطي وهو يتصـل بالبحر المتوسط. أريد أن أكون بين عالمين قبل أن أموت. لن تموتي يا حبيبتي.

يذهـب بها إلى محل السـمك الذي أحبا حكاية صاحبـه أول مرة أتيا هنـا «أنـا كنت لصًّـا. أهـرّب البضائع إلى أسـبانيا وآتـي بالبضائع منها. فـي ليلة كنت أجلـس هنا وحدي أنتظر سـيارة صديق يقلنـي إلى مركب ستأخذني في البحر تعبـر بي مضيق جبل طارق. كنـت آكل. مرّت امرأة فقيـرة طلبت مني قطعة من الطعام. أعطيتها ما في يدي. مشـت سـعيدة. بعد شـهر كنت أجلس في المكان نفسه آكل. رأيت السيدة نفسها أمامي. كنت نسـيتها لكني توقعت أنها كالسـابقة سـتطلب مني طعاما كما حدث مـن قبل. قالت لي مبتسـمة «لسـت جائعة. ألا تذكرنـي؟!» قلت «نعم». قالت أنا التي أطعمتني منذ شهر هنا. هل تعرف ماحدث لي؟ قلت «لا». قالت «كنت عاقرا فحملت. إنه طعامك سيدي».

قررت بعدها أن أقلع عن السـرقة وأفتح هنا مطعما للسـمك. النسـاء اللاتي تأكلن هنا يعرفن أن في المكان سر الخصوبة.

ضحـكا كثيرا ذلك اليـوم. المطعم كله مبني بالخشـب. المقاعد من الخشـب والمناضـد والأطبـاق والملاعق والشـوك. لاشـيء من حديد أو فضـة أو غيرهـا من المعادن هنا. «لا شـيء صناعـي. اختصر الطبيعة. الطبيعة هي الخصوبة سيدي».

ضحـكا كثيـرا أيضـا وهما يتغديـان كل يوم وصاحـب المطعم يعيد الحكاية. أعجبه المكان، هو صاحب مصنع الأثاث الشـرقي الذي يجمع

بين الأصالة والمعاصرة. وأعجبها هي الفنانة التي أحبته هو لذلك. لثلاثة أيام وارتحلا إلى فرنسا بعد أن وقفت في مغارة هرقل على يمينها البحر المتوسط وعلى يسارها المحيط الأطلنطي. لم تأتها نوبة الصرع في المغرب. أخفيا ذلك عن كل الناس.

لم تعد تعزف في أي مكان منذ عام. تعتذر عن كل السفرات والدعوات للمشاركة في العزف. صار موقفها محل دهشة في دار الأوبرا في مصر. لا أحد يعترض ولا أحد يقتنع. غادة عازفة البيانو التي حلت محلها في السفر وفي كل مناسبة كانت تنظر إليها في حيرة. زارتهما أكثر من مرة في المنزل. حاولت كثيرا أن تعرف سر هذا الإقلاع عن العمل.

- لكن أنت شاحبة وتبدين مهمومة بشيء ما. لماذا لا تحدثينني. قد أساعدك. هل سامر يضايقك؟

- لا. سامر جميل كما هو دائما. إني أنتظره بفارغ الصبر كأني في أول حياتنا معا. سيعود بعد أسبوع من أوربا. لا أستطيع أن أتحمل هذا الأسبوع يا غادة.

لكنها تبدو فجأة مرتبكة. يعلو وجهها هلع.

- مالك يا ريم؟

- آسفة يا غادة. أريد أن أنام.

- إذن تصبحي على خير.

تتركها غادة متحيرة فتسرع هي إلى غرفة نومها. تخرج ابنتها "نور مسرعة من غرفتها بعد أن شعرت بأقدام أمها مسرعة. تراها تدخل غرفة نومها. تسرع إليها. تمسك بذراعها.

- أنا بخير.

لكن نور لا تتركها حتى تتمدد على السرير.

- خلاص، لا تقلقي. سأنهض بعد قليل وأعود إلى الصالة وأعزف شيئا أتسلى وأسليكِ معي.

نور تتهاوى على مقعد جوار السرير الذي تمددت عليه ريم وتبكي.

لا أصدق ما يحدث يا ماما. كيف يا تيك الصرع في هذا العمر؟

- لا تبكي يا نور لقد فعلنا ما علينا وأكثر. ذهبنا إلى الأطباء في فرنسا ومصر. خلاص. سأعيش به – وتبتسم – أظن ديستويفسكي الكاتب الروسي كان يعاني منه. اسمعي. اتركيني الآن واذهبي إلى البيانو واعزفي وغني. دعيني أسمعك وأنا هنا. أصبحت أحب ذلك.

- لا أستطيع يا ماما.

- نور. حبيبتي. لا شيء غير أني أردت التخلص من غادة.

- طيب اخرجي معي أو دعيني معك.

- أرجوكِ حبيبتي. اسمعي الكلام. أسمعيني أي أغنية لعبد الوهاب مع العزف. هيا.

تضحك ريم فتخرج نور على مهل. تعزف وتغني «كل دا كان ليه لما شفت عنيه» يصل صوتها الحلو إلى ريم التي ما تلبث أن ترتعش كثيرا وتكاد تتخبط في الحائط المجاور للسرير. تنتهي النوبة وتنظر حولها. عيناها مفتوحتان مرفوعتان إلى أعلى في دهشة تكفي الناس جميعا، في سؤال لا يعرفه أحد إلا هي. لابد أين كنت ومن أين عدت الآن؟ وماهذا الذي رأيته ولماذا هو ليس حولي الآن؟ وفي أي زمن عرفت ماحولي أو رأيته من قبل؟ وفمها مزموم كأنما لا تستطيع أن تفتحه.

شيئا فشيئا تنفتح شفتاها تشعر بالراحة فتتنفس قائلة: «الحمد لله» على مهل تنهض تمشي مرتكنة على الحائط حتى تخرج ثم تتماسك وتمشي غير مرتكنة على شيء. صوت نور الجميل يردد «حن قلبي إليه وانشغلت عليه. كل دا كان ليه» تنزل دمعتان من عيني ريم التي تشعر بها نور فتترك لها البيانو.

- تبكين يا ماما؟

وتكاد تبكي نور. تأخذها ريم في حضنها وتحمد الله أنها لم ترها في لحظات النوبة.

- خلاص. أيام وتسافري.

- لن أتركك يا ماما.

تجلس ريم مكانها أمام البيانو. تبتسم.

- سأعزف كلاسيك. لا داعي للطرب العربي الذي يسيل دموعنا بسرعة هكذا.

تعزف موسيقى «ضوء القمر» لديبوسي ثم «ضوء القمر» أيضا لبيتهوفن ثم «إلى اليز Fure Elise» أيضا لبيتهوفن فتمتلئ الحجرة بالملائكة يَسْبَحُون.

- الله يا ماما.

تهتف نور وتحتضنها من الخلف تقبلها. وريم سعيدة بقدرتها على المقاومة. ليس للمرض. لكن للحسرة!

كل ذلك كان يعرفه ويشعر به في فيينا في فندق إمبريال التاريخي قبل أن يكتشف الخطأ الطبي الفجيعة، وهو وحده دونها لأول مرة يتناول التورتة الإمبراطورية مع القهوة ويطلب قطعة وفنجانا لها سيتركهما خلفه دون أن يتناولهما ويسألها لماذا لم تأكلي وتشربي معي اليوم؟

طال السفر كثيرا. سبعة أيام ويريد أن يعود إلى ريم التي خافت تلك المرة أن تسافر فتأتيها نوبة الصرع فتفسد عليه رحلته. فيينا جنة الموسيقى كيف يكون فوقها صرع. كادت تقول له ذلك. الصرع الذي لم تفلح الأدوية في إنهاء نوباته وتعرف أنها لن تنجح.

إنه يسمعها حتى وهو جالس مع أصدقائه في الكافتيريا بالليل. لايقول لهم لماذا لم تعد ريم تشارك في أي نشاط موسيقي خارج القاهرة وبالطبع لا يقول إنها لم تعد تشارك في النشاط داخل القاهرة أيضا.

- ياحبيبتي لماذا تستمرين في التوقف عن النشاط. النوبة تأتيكِ مرة كل شهر تقريبا ويمكن أن نحدد موعدها بالتقريب. يمكن أن نترك الأسبوع الأول من الشهر فهو الأكثر احتمالا دائما. لابد أن تتخلصي من الخوف.

تقاوم وترفض وهو يلح يوما بعد يوم حتى وافقت. ستشارك مع الفرقة الألمانية القادمة من برلين بالعزف على البيانو في حفل كبير.

كانت ليلة مع القدر. أحس الحضور بأنهم يسبحون تحت السماء. الأوركستر الألماني على خشبة المسرح الكبير وريم تجلس على البيانو تشاركهم. نادوا الملائكة تطير بين الحضور وهم يعزفون سوناتات وكونشيرتات وحركات مختلفة من سيمفونيات شهيرة.

في البداية مع أول لمسة لها لمفاتيح البيانو ارتفع القلق إلى وجهها، لكنها مالبثت أن سبحت مع الملائكة أيضا واشتعل وجهها بالبهجة حتى إذا اقتربت من النهاية واقترب الحفل راحت تضرب على البيانو بحدة كأنما تقاوم شيئا يتفجر في جسدها. تبعده لتظل تحلق مع الموسيقى. تشعر بجسدها يبدأ في الارتعاش.

تضرب على البيانو بسرعة. هكذا تدعوها الموسيقى هنا. هنا تحلق الموسيقى بصخب جميل وقوة. والحقيقة أن جسمها كان يتزلزل، وكانت يداها ترتعشان فوق البيانو وهي تقاوم ذراعيها اللذين يريدان الابتعاد عنها، وجسدها الذي يريد السقوط، وشفتيها اللتين تنجذبان إلى ناحية واحدة، فتنكفئ على البيانو وتتوقف الأوركسترا لحظات في

وجوم ثم تسقط ريم على الأرض. تغلق الستار بسرعة والجمهور يقف صاخبا ينادي البعض باسمها وتنهمر الدموع من عيون النساء.

في المستشفى يجدون أن ورما استوحش في مخها وصار ستة سنتيميترات في خمسة سنتيمترات. لم يكن هناك صرع.

3

في المساء خرج وذهب إلى محل سيراميك يعرفه في البيطاش. حدثه عن الماء الذي نشع من بين الباركيه وأنه يريد أن يرفع من مستوى الأرض. تواعد معه على الغد يرسل له العمال بعد أن عرف مساحة الصالة وحدد النوع الذي يريد. قال لصاحب المحل إنه لا يريد الخشب الباركيه ويمكن لو ينفعه يبيعه لمصلحته ولا يريد تعويضا. حدد له الرجل مبلغا مبدأيا ثمنا للسيراميك وتركيبه فوافق على الفور وأبدى استعداده أن يدفع أكثر. المهم أن يحضر العمال معهم ما يريدون من أسمنت ورمل وغير ذلك مما يستخدم في تركيب السيراميك. واعده أن يأتي إليه في العاشرة صباحا ليصحب العمال خلفه إلى الفيلا.

كان قد وضع على عينيه نظارة سوداء وأرخى عليهما طرف القبعة السوداء وأدار الكوفية حول عنقه ووجهه كأنه يحتمي من البرد. والحقيقة أنه لا يريد أن يعرفه أو يتعرف عليه أحد. حتى صديقه الصيدلي الذي لا يغلق صيدليته بالليل صيفا ولا شتاء لن يذهب يشتري منه ما يريد. لقد دخل صيدلية أخرى.

لم يكن ما يريده غير كميات كبيرة من الجلوكوز وكيس كبير من «الأولويز». ربما ذلك ما جعل الصيدلي يبتسم. وسط هذا الجو البارد

والمطر الخفيف يظهر رجل ليشتري «أولويز». هو أيضا ابتسم. اشترى طعاما ساخنا وأطعمة باردة كثيرة. الجبن بأنواعه والبيض وطماطم وخيار وجزر وغير ذلك من الأطعمة الخفيفة.

الآن بعد أن أعد العشاء جلس في الصالة السفلية واضعا قدميه على البلاط الذي فرّقه فوق الماء وأمام السفرة ليتناول عشاءه. لكنه لم يأكل. صعد يلقي نظرة على ريم رغم أنه لم يفارقها إلا نحو ساعتين.

أمام السرير وقف يفكر في شراء مرتبة خاصة مثل التي كانت في القاهرة حتى لا يصيب جسمها أي تقرحات. ذلك يحتاج منه مشوارًا غدا في المساء بعد أن ينتهي العمال من تركيب السيراميك إلى محطة الرمل، ليشتري ذلك من المحلات الطبية التي في شارع كلية الطب المؤدي إلى المستشفى الأميري. يعرفها هذه المحلات إذ سمع عنها من قبل.

رآها نائمة على ظهرها بلا حركة مغمضة العينين وفي ذراعها «الكانيولا» المتصلة بكيس محلول الجلوكوز والدواء المسكن الممزوج به. لقد غير كيس البول المتصل بالقسطرة مرة بعد أن انصرفت الإسعاف بساعات. لن تحتاج مرة أخرى الليلة حتى الصباح.

نظر إلى كل ما في الحجرة الكبيرة من أثاث أبدع في تصميمه وأبدع عماله في تنفيذه. يتوزع الصدف على قوائم المقاعد وظهرها وقوائم السرير وظهره من الناحيتين وعلى قوائم التسريحة والدولاب

وكل شـيء فـي الغرفة. يراها وهي تندفـع تحتضنه في كل مـرة ترى فيها ما حولهـا ولا تنقطع عادتها رغـم مرور الزمن. عشـرون عاما مرّت الآن على زواجهما الذي كان يتجدد كل يوم.

لكنه ينظر إليها. الشعر الأسود الغزير في رأسها لم يعد موجودا، لكن شعيرات متناثرة بدأت تظهر. ابتسم. هل كان ممكنا أن ترى نفسها كذلك وترضى؟

بعد الاسـتئصال للورم في مستشـفى جوسـتاف روسـي Institute Gustave Roussy ظلـت أسـبوعا تبتسـم وتتحـرك علـى مهـل في بهو الفنـدق الصغير في باريـس. ثم أخذهما صديق لهما إلـى بيته الريفي في سانت مامي St mames بالقرب من غابات فونتان بلو fountain Bleau. بـدأت بعد ذلك العـلاج الكيماوي والذري معا. لـم يكن يرى في وجوه الأطبـاء راحـة. لقد تم تحليل الورم وعرفوا أنه نـوع يقاوم العلاج خاصة وقد توحش وسوف يعود.

- لا داعي لأي علاج. أيام معدودات وتفارق الدنيا.

لكنه صمم أن يعالجها فقال الطبيب:

- سنجرب عليها طريقة جديدة لكن لن يكون النجاح مضمونا.

- ليكن.

قال ذلك في عزم.

عشرون يوما تردد معها على المستشفى كل يومين مرة. العلاج الكيماوي والذري معا. رآها تقف يوما أمام المرآة تمسك بشعرها بأصابعها وتنزعه بهدوء فيسقط معها، ورأى دمعها يسقط معه.

- ماذا تفعلين يا ريم؟ ستكونين بخير والله.

أخذها في حضنه يمشي بها إلى حديقة البيت وأجلسها على المقعد الهزّاز وراح يهزها وهي لا تضحك. توقف لحظة فقالت:

- أريد أن أعود. لا أريد العلاج.

- إنه ورم حميد يا حبيبتي لكن كبر حجمه فقط بسبب خطأ التشخيص. العلاج الكيماوي والذري بسبب ذلك فقط.

- لن أصدقك. حتى لو كان كذلك أريد أن أعود. لا تحملني جثة من هنا.

استطاع إقناعها باستمرار العلاج في مصر. أحضر لها عددا من أطباء الأورام الكبار في المنزل. كلهم تحدثوا بطريقة واحدة كلهم قالوا له ما قيل له في فرنسا. نقلها إلى معهد الأورام لتكون قريبا من العلاج الذي بلا طائل، لكنها لم تلبث بعد خمس جلسات أخرى أن دخلت في الغيبوبة التي لم تفق منها بعد.

يقف الآن أمامها متأملا عينيها المغمضتين. حواجبها التي سقطت ورموشها التي لاتزال طويلة مدهشة. وجهها الشاحب وشفتيها المزمومتين. ريم. ريم. لا ترد. لو تسمعني مرة.

انتبه إلى خيط من الدم يسري أسفلها ويظهر من جلبابها بين فخذيها. «حبيبتي. آسف. انشغلت عنك» وبسرعة أحضر «الأولويز» والبامبرز الكبير الذي كان من بين ما أحضره معه من القاهرة.

رفع جلبابها فبان له فخذاها رفيعين يترهل لحمهما على العظم. هز رأسه في ألم. بهدوء نزع عنها البامبرز الكبير وراح يمسح الدم من فوق فخذيها وبينهما. أمسك بكيس «الأولويز» وأخرج واحدة راح يفردها ليضعها مكانها لتمتص دم الدورة.

ابتسم. فعل ذلك أول مرة في القاهرة وكانت شبه واعية حين غابت الممرضة عن البيت يومين. كان يضع الأولويز مقلوبا وهي تبتسم وتشير إليه بإصبعها في دائرة ولا يفهم وهي تزداد ابتساما حتى فهم أن يقلبه حتى تكون أطرافه الصمغية إلى الداخل فتلصق باللحم.

فعل ذلك أكثر من مرة بعد ذلك وسيفعله الآن لخمسة أو ستة أيام هنا وحده حتى تنتهي الدورة الشهرية. لقد عرف الطريقة ويبتسم الآن. هذه هي الحياة نفسها التي تتسرب منك حبيبتي فكيف يقولون إنك مريضة؟

يفعل ذلك بنجاح. ثم يحيطها بالبامبرز الكبير ويأخذ ما تم استخدامه من قبل وينزل يضعه في سلة قمامة أمام باب الفيلَّا.

ما إن فتح الباب حتى لفحت وجهه موجة برد شديدة. دخل مستنجدا بالتكييف. أخذ حماما وقرر الصعود لينام قريبا منها على السرير الثاني الصغير. لا يجب أن يبتعد عنها. لن تحتاج شيئا الليلة ولكن من يدري قد تفتح فمها وتناديه فيسمع صوتها الذي أوحشه كثيرا.

سامر. سامر. سامر. كان هو الذي يردد الاسم لنفسه!

4

كان النهار كافيا لتركيب السيراميك في الصالة المتسعة. ستة عمال انتهوا مع الساعة الرابعة رغم كثافة ما هو مطلوب من عمل. هذه المياه الجوفية التي تنشع من تحت الباركيه لابد لها من طبقة من المازوت فوقها ردم من الرمال ثم فوقه يكون السيراميك. هذا يعني ارتفاع الأرض لعشرين سنتيمترا. على هذا النحو ستختفي أول درجة للسلم الداخلي الصغير الذي يصعد إلى أعلى حيث غرفة النوم الكبيرة والحمام الكبير وغرفتان.

كان يسمع من العمال ويندهش من نفسه هو الذي يعرف رجال أعمال في البناء ومهندسين كيف لا يستعين بهم. لقد أراد ألَّا يعرف أحد أنه هنا. وانتبه إلى أن ذلك سهل جدا فليس لديه في القاهرة غير الشقة الكبيرة في الزمالك، وليس لديه في الإسكندرية غير هذه الفيلَّا، ولن يذهب بها إلى الفيلَّا الأخرى بالعين السخنة. لكن أهل زوجته يعرفون ذلك فهل سيبحثون عنها؟ لن يجدوه في القاهرة، ويعرفون الطريق إلى العين السخنة والإسكندرية وسيجدونهما. لقد أخبرهم بسفره إلى أوربا وأنه وجد طريقة لعلاج زوجته. كان واضحا أنهم لا يصدقونه لكنهم بدوا مصدقين حتى يرتاحوا من الأمر كله. إذن لن يبحثوا عنها. أخواتها البنات الثلاثة وأخوها الوحيد كلهم متزوجون ولديهم أبناؤهم وأعمالهم

وقلّـت زياراتهـم لها يوما بعد يوم. لابد أنهم تمنوا أن ينتهي الأمر وترتاح أختهـم مادام سـينتهي! لقد رأى ذلك في عيونهـم. مدير أعماله الذي هو فـي الوقت نفسـه مديـر مصنعه للأثـاث ومدير مبيعاته يعـرف ولن يخبر أحـدا بمكانـه كما طلب منه. لن يسـأل إلا نور. لكن نور سـافرت تكمل دراستها في ألمانيا بعد أن انقطعت عنها شهرا أمضته مع أمها.

- لا يجب أن يضيع مستقبلك. سافري مطمئنة أنك ستعودين تجدينها قد تعافت.

خرجـت نور باكية حتى السـيارة التي حملها فيهـا إلى المطار. حاول طوال الطريـق أن يبهجها بالأحاديث الضاحكة حتى ضحكت. اسـتطاع أن يدخـل معهـا إلى صالة السـفر بمعارفه في المطار وودعها على سـلم الطائرة. ستكون معه على تواصل بالتليفون والإيميل.

ما أن التفت يعود حتى طفرت من عينه دمعة. كان قد أخذ قراره الذي فعلـه أمـس. أن يجلس معها حتـى تفارقه وحده دون البشـر أجمعين. لـم تحب أبدا أن يراها أحد في مرضها. كلما زارهـم أحد وهي في شـيء من الوعـي كانت تعـود إلـى الغيبوبة بعد خروجـه كأنها تتحسـر على حالها الذي لـم تكن تحب أن يراها عليه أحد. يعرف أن ريم الفنانة الجميلة التي تروح روحها مع الموسـيقى ويفنى جسدها في الملكوت ليست ضعيفة. لا تحب أن يراها أحد ضعيفة إلا هو.

كان ضعفها لعشرين سنة لأنها تحبه وترتمي في حضنه كل يوم كطفل وجد أباه بعد طول غياب. كانت تشرف على كل شيء في البيت. تجعل

لـه البيـت جنة مختلفـة كل يوم. هو يصنـع الأثاث ويتاجر فـي التحف و هي تشـتري لوحات الفنانين المصريين من مصر والعالميين حين تسـافر إلى أوربا. لـم تسـافر مرة إلا وعادت بلوحة أصلية لفنان جديد أو بوسـتر مستنسـخ للوحات قديمة لمشاهير الفنانين. رينوار وفان جوخ وبيكاسو وشـاجال وغيرهـم ممـن تمنت لو اسـتطاعت يوما أن تشـتري لوحاتهم جميعا. لكنها وسامر اشتريا لوحات كثيرة لفنانين مصريين أيضا بالإضافة إلى صور للموسيقيين الذين تعشقهم ويعشقهم معها سامر. كل ما كانت تحصل عليه كان يتحول إلى فن على الحائط. أعظم ما لديهم من كتب هي عن الفن التشكيلي. كتب جديدة وقديمة تشتريها من مكتبات باريس ومن السان ميشيل حيث الكتب القديمة متوفرة ومن كل أسواق الكتب بأوربا.

كان يعـرف أن غادة زميلتها وصديقتها التي حلت محلها أخيرا تبادله إعجابـا صامتا. لـم يفتح لها الطريـق أبدا. كان يعرف أن ريم تعرف أنه لن يفعـل ذلك وترتمي فـي حضنه ضاحكة ويتقلبان فوق السـرير كالأطفال ضاحكيـن ثم يذوبان فـي البهجة العارمة. «لا تعاملها بسـوء. دعها تعش فـي الوهم. دعها يكن لها قصة وحكاية. لا تحرمها من الخيال». تقول له ريم وتضحك. إلى هذا الحد أنت على ثقة؟ يسألها فاتحا عينيه بإعجاب فتقول له ضاحكة أيضا «أنا البيانيسـت الأشـهر في مصـر. كل مفاتيحك أحركهـا بلمسـة من أصابعي. أعـرف أن نصف حياتك مـع التحف وكل حياتـك معـي! روحي معـك حيـن تنغمس فـي عملك، وروحـك معي وحدي حين تترك العمل ونكون معا».

كم مرة زارته غادة في المنزل في غياب ريم في أوربا قبل أن يداهمها المرض. مرات كثيرة ما لبثت أن تباعدت. لابد أنها يئست.

- سأعزف لك شيئا يذكرك بريم.

تقول غادة ثم تجلس إلى البيانو:

- ماذا تحب أن تسمع؟

- ما تشاءين.

- ماذا تعزف لك ريم؟

- نسيت.

يقول ويضحك. تبتسم هي. تتصور أن الباب ينفتح. تعزف له إحدى سوناتات موزار المبهجة تنتهي فيقول لها:

- كان يمكن يا ريم أن تعزفي أحسن اليوم.

تنظر إليه بدهشة. لقد أخطأ في اسمها. ربما تتصور أنه يقصد ذلك لكنه في الحقيقة لا يقصد. تتجهم للحظات فينتبه ثم تشعر بما يدفعها للانصراف فتنصرف. هنا فقط يقول لها:

- شكرا يا غادة أسعدتِني. سأحدث ريم عن حضورك.

تخرج ويندهش كيف يختفي عطرها الذي كان يملأ الصالة حولهما بعد انصرافها. كيف لا يبقى شيء منه. ملائكة الله يحرسون حبه لريم.

بعد أن انصرف عمال تركيب السيراميك قرر الذهاب إلى محطة الرمل دون سيارته.

كان قد التحق بهم عاملا نجارة اتفق مع صاحب محل السيراميك أن يجدهما ويرسلهما إليه. أعادا الأثاث إلى مكانه. المقاعد والسفرة والبيانو التي أخرجها عمال السيراميك تحت إشرافهما إلى الحديقة ووقف يتنفس مرتاحا يسأل نفسه هل سمعت ريم شيئا من ضجة العمال اليوم؟

كان يصعد بين حين وآخر يطل عليها فلا يجد أي أثر للضجيج. تمنى لو رآها تبتسم. لابد أنها تدرك أنه يفعل أشياء جميلة من أجلها. لو تفيق من الغيبوبة دقائق أو ثوانيَ وتطلب منه شيئا. أي شيء. لكنه يتجهم. لا يريد أن تفعل ذلك. يعرف ماذا ستطلب. أن يتركها تموت في أقرب وقت. لم تعد بها طاقة للدنيا. هي راضية بالسفر إلى هناك. العالم الآخر الذي لم يعد منه أحد يخبرنا ماذا يحدث فيه لكننا نحبه ونرجو فيه النعيم!

مشى على قدميه مع بداية المساء بين الفلل المهجورة بعد انصراف العمال حتى وصل إلى الشارع الرئيسي في الهانوفيل. مشى عكس طريق حضوره أمس.

بدا له الشارع الرئيسي للهانوفيل أكثر قذارة من شارع البيطاش. حركة قليلة من الناس تدخل أزقة في الناحية المقابلة له. عمارات متجاورة عالية تبدو له من الأزقة. لابد أنها تمتد معها. لابد أن الحياة هنا أكثر صعوبة منها في البيطاش. عمارات كثيرة تحاصر كل شيء وناس قليلون. ربما لأنه المساء. ربما لأنهم أيضا هجروا مساكنهم بسبب نشع

المياه. الأصوب أن الهانوفيل من زمان جاذب لسكان الأحياء الشعبية بينما البيطاش كان دائما لصفوة المجتمع. طبيعي أن تكون العشوائية في الهانوفيل أكثر رغم أنها أصابت البيطاش. لم يشأ أن يشغل نفسه فأشار إلى تاكسي استقله. كان حريصا أن يكون فوق التاكسي شبكة معدنية ليضع فوقها المرتبة التي سيشتريها.

خرج به التاكسي متجها إلى الشارع الرئيسي القادم من الغرب. شارع الإسكندرية – مطروح. رأى الزحام حوله يزداد. ماكاد يصل إليه حتى رأى الزحام يشتد أكثر في الطريق وأمام المحلات. عشرات من الميكروباصات الكبيرة والصغيرة تقف في نهر الطريق. رجال ونساء وأطفال وشباب وفتيات. منقبات كثيرات يظهرن من بين الناس. محجبات أكثر. بنات قليلات يمكن عدهن على الأصابع مكشوفات الرأس. ملابس قديمة فوق أكثر الرجال. يبدون بها عمالا أو صنايعية. أصوات تنادي من سائقي الميكروباصات. المنشية المنشية. محطة مصر محطة مصر. التاكسي يمشي على مهل في الشارع الذي يضيق بالمركبات وبالمياه المركونة على جانبيه. من المطر أم من البلاعات؟ ليس مهما أن يعرف. عادة يأتي إلى هنا مع ريم ومعه سائقه. منذ سنوات لم يأتِ. هذه المياه الغادرة التي انفجرت من باطن الأرض في العجمي فهجر أصحاب الفلل فللهم إلى الساحل الشمالي أو مرسى مطروح أو مثله لم يعودوا يقضون الصيف في الإسكندرية. لكن أدهشه أن المياه المنفجرة تحت البيوت وحولها لم تجد من يجففها. لا تجد من يقيم مشروعا للصرف الصحي في العجمي الذي ازدادت فيه العمارات فتسببت في ذلك.

لقد فكرت ريم أكثر من مرة في بيع الفيلَّا لكنه كان يرفض. هو رجل أعمال من الصعب أن يترك ما في يده بسرعة. ثم إنه يستطيع أن يقضي الصيف في أي مكان آخر في الدنيا. لم يكن هناك صيف كالصيف إلا مرة واحدة. في الثانية كان هناك صيف صامت كليل الشتاء مهدد بنوبة الصرع. في الثالثة كان هناك صيف صامت من بكاء الروح لاعتلال الجسد. سينشغل بالحديث مع السائق أفضل من أن يرى شيئا. هنا أو في مدخل البيطاش حين يعود.

لم يتحدث مع السائق ولا السائق تحدث معه. بعد نصف ساعة كان التاكسي قد وصل إلى أول البيطاش رغم قصر المسافة. هذا وقت ضاع بين الزحام وما كان يجب أن يضيع. لايريد أن يتأخر عليها.

بعد البيطاش انطلق التاكسي مسرعا. على يمينه المباني السوداء لمصنع الحديد الكبير الممتد تقريبا طوال الطريق إلى حي «الدخيلة». عاد الزحام عند «الدخيلة» لكنه كان يعرف أنه لابد أن ينتهي. بعد نصف ساعة أخرى كان قد وصل إلى محطة الرمل. اشترى بسرعة المرتبة الطبية ووضعها السائق فوق التاكسي. اشترى أيضا كمية كبيرة من «البامبرز» الكبير. لكن السائق يقول الآن:

- ربنا معاك يا أستاذ.

ابتسم ابتسامة صغيرة ولم يرد فقال السائق:

- اسمح لي يعني يا أستاذ. حضرتك باين عليك إنسان محترم. ألم يكن هناك من يشتري لك ما تريد؟

ابتسم من جديد ثم قال:

- يوجد طبعا. لكن.

لم يكمل فقال السائق:

- هذه المرتبة غالية جدا. أعرفها. اشتريتها منذ ستة أشهر بألفي جنيه. لكن...

وسكت قليلا ثم هز رأسه وقال:

- الحمد لله على كل شيء.

انتبه إلى ما يقول السائق. اتسعت عيناه في دهشة. رآه كأنما لم يره منذ ركب معه. أسمر عيناه خضراوان في حوالي الخمسين من العمر. فتح السائق راديو السيارة فجاء صوت فايزة أحمد تغني «حمّال الأسية يا قلبي» أغلق السائق الراديو على الفور قائلا بهدوء وهو يبتسم ساخرا:

- تاني؟!

ارتبك سامر لكن السائق قال:

- قبل أن تركب حضرتك معي فتحت الراديو فغنت فايزة أحمد أيضا «حمّال الأسية». فايزة أحمد قسمتي ونصيبي يا أستاذ.

لم يرد. لم يعرف ماذا يمكن أن يقول فقال السائق:

- لن تصدقني لكن هذا ماحدث. منذ توفت زوجتي بالمرض اللعين بعيد عنك كلما فتحت الراديو أجد فايزة أحمد. مرّة «حمال الأسية» ومرة «يا لولي يا غالي» ومرة «يا تمرحنة ليه شاردة عنا». ستقتلني يا أستاذ. كلما غيرت المحطة أجد فايزة أحمد أيضا. الأمر لله.

دخل في صمت أكثر. لكن السائق ضحك وقال:

- اشتريت شرائط تسجيل. قلت بلاها راديو. طلبت أغاني شادية. شادية دمها خفيف. روحت البيت وفتحت الكيس لاقيتها شرايط فايزة أيضا. البائع غلط. تصور. ربنا كاتبها لي والله.

هذه المرة لم يستطع سامر أن يمنع نفسه عن الضحك، لكنه سيطر على ضحكته لتكون ابتسامة مكتومة. ثم شعر بشيء من الارتباك. هل مايقوله السائق إنذار بما سيأتي؟ قال:

- هكذا الدنيا للأسف.

لكن السائق سأله:

- هل المرتبة لشخص يهمك يا أستاذ؟

تقريبا.

قال ذلك حتى لا تتوالى أسئلة السائق رغم أنه شعر بالتعاطف معه ورق قلبه له. لايريد أن يفتح باب الحزن في الطرقات. لن يفيده أحد. كل شيء يمضي في الحياة ولا يتوقف عند ما يتوقف عنده. هو أو غيره.

يدرك ذلك. الحقيقة يفعل ماكانت تفعله ريم. لم تخبر أحدا بمرضها ولم تحب أن يزورها أحد.

كان يعرف أن السائق حين يدخل به إلى المناطق الخالية بين البيطاش والهانوفيل سيعود للأسئلة. قرر ألا يلتفت إليه. يدفع له أجرته في صمت. لكن السائق لم يفعل ذلك. ظل صامتا طوال الطريق. وحين مشى به بين العمارات المهجورة وعلى الأرض التي يعلوها الماء ويتجلط الطين على أطرافها لم يعلّق. بدا له معتادا على المكان حتى كاد يسأله هو لماذا لايثير الطريق انتباهه؟ لكن السائق فجأة قال:

- هناك شيء لم أجد له تفسيرا عند أحد حتى الآن. سامحني سأقوله لحضرتك.

نظر إليه سامر فقال السائق:

- أنا أسكن في حي الورديان. منطقة شعبية زحمة جدا خالية من أي أشجار. قبل أن تودع زوجتي الدنيا بأيام رأيت فراشة كل مساء. بالضبط مع مغيب الشمس. لا أعرف من أين تأتي. فراشة تطير فوق رأس زوجتي وهي فوق السرير وتدور حوله. أي والله. وزوجتي الله يرحمها تنظر إليها وتبتسم سعيدة. ثم تختفي الفراشة لتظهر في اليوم الثاني في الموعد نفسه.

ثم سكت السائق لحظات وظهر عليه التأثر فقال سامر:

- أكمل.

- ونحن ننقل الجثة في النعش إلى سيارة نقل الموتى رأيت الفراشة أيضا تسير وراء العربة. مسافة قليلة ثم اختفت.

وسكت السائق من جديد وسامر في دهشة وحيرة ثم قال السائق:

- سألت الشيوخ. كلهم ضحكوا من الحكاية ماعدا واحد قال إنها لم تكن فراشة لكن ملاك من السماء جاء يأخذ زوجتي الطيبة. صدقته لأريح نفسي من السؤال لكن مازلت محتارا.

لم يجد سامر مايقوله. أحس بشيء من الإشفاق من أجل السائق ثم أدرك أنه في المحنة نفسها وتعجب من حظه اليوم. ازداد سكوته.

نزل السائق ليحمل المرتبة فأشار له أن يضعها في صالة الدور الأرضي فوق منضدة السفرة. حملها السائق ودخل بها وحمل هو الكيس الذي به البامبرز كبير الحجم. عاد السائق يقف جوار التاكسي ينظر إلى سحب سوداء ثقيلة في الفضاء. عاد إليه سامر وناوله أجرته قائلا

- الدنيا ستمطر. الأفضل أن تعود بسرعة إلى البيت. أو تخرج بسرعة من هذا الخلاء.

نظر إليه السائق في دهشة وقال

- الزوجة الطيبة سقف البيت يا أستاذ. أنا عندي خمسين سنة وأعيش الآن في بيت من غير سقف. لذلك لا أخاف المطر. هو فوقي في الشارع أو في البيت. لكن أعرف أنها إرادة ربنا وأحس بالرضا. سلام عليكم.

وأشار إليه بيده يحييه ويمضي بالتاكسي على مهل. لم يستطع سامر أن يتحرك إلا بعد لحظات تابع فيها التاكسي ذاهلا حتى اختفى. شعر بنقط خفيفة من الماء تسقط من السماء وسط الظلام ثم سرى ضوء كبير تحتها بسرعة فائقة وتتالى صوت الرعد فدخل مسرعا إلى الفيلّا والماء ينهمر خلفه بقوة يملأ الأرض.

تهاوى جالسا على أقرب مقعد بعد أن أغلق الباب. شعر بالارتياح كأنه عائد من معركة. أشعل سيجارة وراح ينفثها في هدوء. انتهى من تدخين السيجارة ثم نهض حاملا المرتبة الطبية وصعد بها السلم الذي لاحظ أنه صار أقل ارتفاعا بعد أن ارتفعت الأرض رغم أنها درجة واحدة هي التي اختفت. في غرفة نومهما دخل بالمرتبة. ركنها على الحائط. نزل إلى أسفل من جديد وعاد بكيس البامبرز.

عليه الآن أن ينزع السرنجة من الكانيولا التي بذراعها ويبعد حامل المحلول عن السرير وكذلك يفصل كيس البول المتصل بالقسطرة، ثم ينقلها إلى السرير الآخر الصغير ثم ينقل المرتبة الأصلية خارج الغرفة بعد أن يضع الطبية مكانها. لكنه فكر أن يضع المرتبة الطبية فوق القديمة لتعلو ريم كثيرا فوق السرير. لترتفع ريم دائما!

بسهولة حمل ريم ووضعها على السرير الآخر في الغرفة الواسعة. نقل أيضا كل الصور التي نثرها حولها أمس إلى السرير الآخر. وضع المرتبة الطبية فوق القديمة وأعاد عليها ريم. صارت خفيفة كريشة.

لا لحم يشعر به فوق ذراعيه. أعاد حامل المحلول والسرنجة بعد أن علّق زجاجة محلول الجلوكوز من جديدة. وأعاد كيس البول المثبت في طرف السرير إلى وصلة القسطرة. نثر الصور حولها من جديد. تراجع جالسا على مقعد ينظر إليها. نهض على مهل وتقدم غير مصدق. إنها تبتسم.

- ريم.

همس. ردد اسمها مرتين. عادت شفتاها إلى انكماشهما وصارتا مزمومتين. لماذا لا تفتح عينيها مع الابتسامة؟ لقد فعلت ذلك من قبل أكثر من مرة. هذه المرة لم تفتحهما. مد يده وباعد بإصبعه بين حاجبي إحدى العينين.

كم هي جميلة عيناك يا ريم. سواد العين في مكانه وبياضها. لم يتسلل أحدهما إلى الآخر. لم يذبل أحدهما. وكان قد ترك الحاجبين إذ رأى شيئا قريبا من الماء أو الدمع يسري في العين وداخلها. وأحس بحركة إحدى قدميها. إنها تشعر بما يفعل. انحنى يقبلها على جبينها ثم على شفتيها اللتين لم تنفتحا. صارتا خشنتي السطح. أجل خشنتي السطح. ذبلتا يا ريم. بللهما بلسانه بهدوء.

وانحنى يقبل صدرها. وضع رأسه عليه. في مثل هذه الأجواء الشتوية كان صدرها ملاذا رغم التكييف في الحجرة ورغم السرير وثير الفراش. تحرك إلى قدميها ولثم كلًّا منهما. سحب فوقها الغطاء ووقف. يحتاج الهدوء الآن. يدخل الحمام يستحم ويبدأ العشاء. أي طعام خفيف مما اشترى أمس سيأكله ويعزف الموسيقى.

كان الماء ينسكب عليه ساخنا من "الدش وهو يرى نفسه يعزف على البيانو. يتقدم في العزف وتتالى اللمسات من أصابعه فتتناثر الألحان التي كانت تعزفها له ريم ورودا تطير حوله وفوقه وتصطدم برفق في الجدران وتواصل طيرانها. لم يتوقف العزف وهو ينتهي وينشف جسمه ويشعر بالارتياح فيسمع الأنغام تملأ الفضاء وتتحرك حوله حتى أنه كان يتحرك يوسع لها طريق الدوران.

لم يعد يعرف متى انتهى من الاستحمام ومتى ارتدى بيجامته الشتوية وفوقها الروب دي شامبر وكيف جاء مرتديا الشبشب إلى البيانو وجلس أمامه وراح يعزف بهدوء مكملا ما عزفه في الخيال.

لم يشعر بجوع فقد رأى بقايا الطعام على السفرة لم يحملها. إذا لقد تناول عشاءه وسط العزف!

في الخارج كان صوت المطر لا ينقطع وصوت الرعد وبينما البرق لايجد له مكانا للنفاذ فلا نافذة للصالة الكبيرة ونوافذ الغرفتين الخلفيتين على الحديقة مغلقتين. سينفذ البرق إلى ريم في الغرفة العلوية رغم إغلاق نافذتها إن لم تكن تسمع صوت الرعد، ولابد أنها تركت السرير الآن وتحركت إلى النافذة كما كانت تحب أن تفعل دائما حين يكون هناك شتاء في أوربا وتقف خلف النافذة وتزيح الستارة التي لا تحجب شيئا وتسمع صوت المطر، وفي لحظات طيش جميلة تفتح النافذة الكبيرة فيغلقها هو بسرعة.

- في الخارج عاصفة يا ريم وليس مطرا فقط؟

قال لها ذلك كثيرا. في بوردو على المحيط الأطلنطي وفي لاروشيل على المحيط الأطلنطي أيضا وفي نابولي على البحر المتوسط وفي موسكو على نهر موسكوفا وعلى الجليد في جبال الألب في إيطاليا والنمسا وسويسرا وحول البحيرات بين الجبال. وهي دائما تفتح النافذة وتقول له:

- أحب الهواء وهو يصطدم بصدري.

وتضحك. هي تعرف أن ذلك قد يؤدي إلى نزلة شعبية شديدة، ومن ثم تفتح النافذة لعدة ثوان لا أكثر، ولو لم يجذبها هو إلى الداخل ويغلق النافذة لفعلت ذلك هي، لكنها أيضا أحبت أن يفعل ذلك في كل مرة.

لا ينسى يوم أن سافرا إلى لاروشيل لأول مرة منذ عشر سنوات بعد أن أحيت حفلا في أوبرا باريس. كان الشهر أغسطس بداية الإجازة للفرنسيين وللأوربيين عموما. كانت مندهشة من رغبته في السفر إلى لاروشيل التي لم تسمع عنها من قبل. حكى لها ضاحكا:

- تعرفت على تاجر فرنسي جاء إلى مصر. زار الغرفة التجارية يسأل عن مصانع الأثاث الشرقي. زارمصنعي وأعجبته أفكاري في صناعة الأثاث. نحن نصنع الأثاث الفرنسي هنا ونصنع الأثاث العربي أيضا. أعجبه الأثاث العربي. قال لي إنه في فرنسا يمكن أن أجد سوقا لما أصنعه من تحف خشبية. سوقا عند الفرنسيين وعند الأغنياء من العرب أيضا. اتفقنا أن يكون وكيلا لي في فرنسا. لا أصدّر له الكثير فإنتاجنا قليل ودقيق لكنه صار وكيلي ومن ثم أحب أن أزوره.

رأت لاروشيل مدينة صغيرة على المحيط. مقاهٍ ومطاعم عادية تحمل أسماء جميلة أكثرها أسماء روايات وأسماء كتاب وفنانين. أونديـن وجارجانتـوا والـزورق السكران Le Bateau Ivre. وأمام المطاعم والكافتيريات تقف في الصباح الباكر السيارات النقل الكبيرة حاملة فواكه البحر للمطاعم التي تقدمها طازجة للرواد. بل وتطهوها على مواقد بين الرواد على المناضد الكبيرة يغرفون منها جوار الأطعمة الأخرى. رأت فرقا غنائية مثيرة في الطريق الوحيد الواسع حول الميناء الذي تحتشد فوقه القوارب واليخوت الخاصة. البنات وجوههن حمراء شعرهن أصفر وفساتينهن بيضاء ويعزفن على الجيتار والأوكورديون والكمان. جمهور الزائرين للميدان عشاق شواطئها يتحلقون حول الشباب الذي يغني. أو يقفون حول الرسامين الشباب الذين يرسمون بورتريهات لهم.

كانت تسعد بالفرق الغنائية كثيرا. ومعها سامر وصديقه «ميشيل بوتور» صاحب الاسم الذي لا يجهله أحد في فرنسا رغم أنه ليس الكاتب ميشيل بوتور! كانت تقف باسمة في سعادة وإليها تتجه عيون بعض العازفات. كان يعرف أن لغة مشتركة في العيون تعرفها العازفة الشابة الفرنسية وتعرفها ريم. فكانت العازفة الشابة تنفعل في العزف ليظهر الرضا والسرور على وجه ريم. لابد أدركت العازفة أن ريم عازفة أيضا. كل مرة يحدث ذلك رغم اختلاف فرق الغناء.

ذات مرة. يوم أحد تمنع فيه المحافظة حركة السيارات التي تعمل بالبنزين. يوم صديق للبيئة لا تتحرك فيه إلا الدراجات. في ذلك اليوم

كانت الفرقة معها بيانو تعزف عليه فتاة جميلة. تحركت ريم بهدوء حتى وصلت إليها ووقفت خلفها والفتاة مندمجة في العزف. ما كادت تنتهي حتى ارتفع التصفيق وبينما تدور إحدى الفتيات بالصندوق الصغير يضع فيه الواقفون ما يجودون به من مال سألت ريم العازفة هل يمكن أن تعزف مكانها قليلا. اندهشت العازفة الشابة البيضاء التي يشتعل وجهها بالحمرة. كانت في يد ريم وردة قدمتها إليها. قالت لها إنها العازفة الأولى في الأوبرا المصرية. ابتهجت الفتاة وأوسعت لها فجلست ريم وراحت تعزف بهدوء جعل الجميع يتجمدون في أماكنهم وتزداد دهشتهم ثم اختارت عزف أحد فالسات فريدريك شوبان السريعة الراقصة فراح الجميع يرقصون وأشارت لسامر أن يرقص مع أي فتاة ففعل ذلك بينما رقص ميشيل مع زوجته. بين الواقفين كانت الهمسات عن العازفة المصرية العظيمة. بينهم تتردد كلمة إيجيبسيين egyptienne. انتهى العزف وتوقف الرقص وارتفع التصفيق من كل مكان. فيفا إيجبت. راحت الفتيات تقبلنها في سرور فائق وكذلك فعل شباب العازفين واحتضنها شاب ارتفع بها إلى أعلى صارخا les peramides. توالى التصفيق وسامر مبتسم سعيد. طلبوا منها أن تعاود العزف ففعلت حتى انسحب آخر ضوء من النهار. التقطوا معها كثيرا من الصور بالكاميرات التي يحملونها. ثم غادرت المكان مع سامر وميشيل وزوجته بين تصفيق الجميع الذين فجأة صنعوا طابورين تمر بينهما والتصفيق حولها.

تلك الليلة ضحكوا كثيرا في بار الجينيت La Guignette الذي كان بارا للصيادين في العصور القديمة. كان الجالسون كلهم حولهم من

الشباب والفتيات الصغيرات. بعضهم سبق ورأوها تعزف. أحدهم وقف يقول بالفرنسية هذه السيدة المصرية قدمت أجمل الألحان لنا اليوم ومن ثم سأعزمها مثل رجال الشرق على كل ما تشربه مع أصحابها. في اليوم التالي اكتشفت أن المدينة كلها عرفتها. كان بين الواقفين صحفي أرسل صورتها إلى جريدة «Sud Ouest». جريدة إقليمية لكنها عظيمة التوزيع وربما تكون الثالثة في التوزيع في فرنسا. هكذا كلما دخلت محلا تشتري شيئا يتعرفون عليها. آيس كريم أو خبز أو ثياب أو جلست في مقهى. في الصباح بعد يومين ولم يكن قد بقي لهما في لاروشيل إلا يوم واحد جلست مع سامر في مقهى «على الرصيف «sur la qauie» يشربان القهوة فإذا بصوت عبد الحليم حافظ ينطلق من خلف الشاب الذي يعد الطلبات أمام الماكينة الخاصة بذلك. استدار لهما وابتسم. سأله سامر:

- عربي؟

- لا فرنسي. رأيت صورة مادام ريم في الصحيفة وسمعت عن عزفها فتمنيت أن تزور مقهانا. سألت صديقا عربيا عن شيء أفعله إذا جاءت فاقترح عليَّ أن أقدم لها أغنية عربية. أرشدني إلى هذا المطرب. هاليم!

ضحكا. أمضيا وقتا جميلا حتى جاءهما ميشيل وصحبهما إلى بيته في المزرعة قريبا من لا روشيل. أمضيا هناك يومين ثم عادا إلى باريس ومنها إلى القاهرة بعد أن باتا يوما واحدا في فندق «راسباي»بحي راسباي.

كان الوقت صيفا ومن ثم لم تفتح ريم النافذة لتستقبل المطر. لكن في زيارة شتوية في العام التالي عام 1999. لا ينسى تلك الليلة. بعد أن عزفت في أوبرا باريس التي كانت ضيفة عليها كثيرا اعتذرا عن العشاء المجهز لهما مع الفرقة الفرنسية. يعرف سامر أنها تريد أن تمشي في الفراغ وبين أضواء المحلات المغلقة.

مشيا كثيرا يضحكان في الأزقة حول شارع السان جيرمان حتى كاد الليل ينتصف. قالت له أريد كالعادة ألا نذهب إلى مطعم بعينه. نمشي حتى إذا تعبنا دخلنا مطعما واحنا وحظنا! دائما كانت ريم تحب أن تكسر كل القواعد. دخلا مطعما وحيدا في زقاق صغير وصعدا دوره الثاني. كان مطعما يونانيا كما بدا من اللغة المكتوبة أعلاه عند الدخول. يتذكر الآن تلك الليلة ويهز رأسه ويتوقف عن العزف وصوت المطر لا ينقطع في الخارج. كان مغنٍ متقدمٌ في العمر لكنه مهيب الشكل بشعره الأبيض المسترسل خلف رأسه وذقنه البيضاء الكثيفة وصدره الظاهر تحت قميصه المفتوح من أعلى. عرفته ريم على الفور. إنه اليوناني جورج موستاكي ابن الإسكندرية التي رحل عنها مع من رحلوا من الأجانب، لكنه رحل مبكرا إلى فرنسا لعشقه للغناء الفرنسي، يقف يغني ويعزف على الجيتار. عرفها بدوره. اعتذر جورج موستاكي للحضور الذين كان معظمهم يونانيين بما بدا من سحناتهم وتوقف عن الغناء ثم تقدم إليها يصافحها ويقبل يدها.

- لابد أن تشاركيني الغناء الليلة.

ضحكت.

- أنـا لا أغنـي. أنـا عازفـة بيانـو كما تعـرف لكن أسـتطيع العـزف على الجيتار.

- لا لابد أن تغني معي. «يامصطفى يا مصطفى أنا باحبك يا مصطفى».

ضحكـت. إنهـا الأغنية التي اشـتهرت في مصـر عـام 1960 وغناها المطـرب المصري بـوب عزام ولحنها محمـد فوزي، ثـم منعتها الدولة ولا يعرف أحد السـبب. قيل لأنهم اعتبـروا مصطفى الذي تذكره الأغنية هو مصطفى النحاس باشـا زعيم حزب الوفد وقيل إن جملة «سـبع سنين في العطارين وانا باحبك يا مصطفى» إشـارة إلى مرور سبع سنوات على قيام ثورة يوليو وإلغاء الملكية وقيام الجمهورية وإلغاء الأحزاب وإبعادها عـن الحكم بما فيها حزب الوفـد وزعيمه مصطفى النحاس. لكن الدولة ما لبثت أن سمحت بالأغنية التي اشتهرت في العالم كله وغناها مطربون إنجليز وفرنسيون وأتراك وغيرهم.

بـوب عزام مصـري قيل إنه يهـودي الأصل وقيل إنـه لبناني الأصل. لكـن لم يعرف أحد عنه غير أنه مصري ترك مصر بعد ذلك إلى سويسـرا وافتتـح ملهـى ليليًا ومرت السـنين ويقول لها جورج موسـتاكي إن بوب عزام الآن يعيش في موناكو بفرنسا.

قدم موستاكي ريم إلى الجالسين بالمطعم فهو يعرف عنها كل شيء رغـم أنه لم يلتقِ بها مـن قبل. غنت معه وغنى معهما بعض اليونانيين من النساء والرجال. راح سامر يغني معهما أيضا. لاحظ من بين النساء امرأة عجـوزًا تنزل دمعة من عينها، وتجفف الدمعـة لتنزل أخرى. انتهى الغناء

وجلس جورج موستاكي معهما على المائدة. سأله سامر هل يعرف السيدة التي كانت تبكي بهدوء. قال له من لا يعرفها. ولدت في الإسكندرية وعاشت بها حتى سن الثلاثين ثم هاجرت منها في الستينيات. نظر إليها سامر مشفقا. وجد نفسه ينهض يتجه إليها يصافحها ويقبل يدها. قامت وجاءت معه إلى منضدتهما.

- إلى هذا الحد سيدتي تحبين مصر؟

- من لا يحب مصر؟! أنا من الأزاريطة. من شارع شامبليون في إسكندرية. كان لدينا فرن يصنع الخبز الأوربي. فرن صغير وحلواني لم يتركوه لنا. تم تأميمه. تركت العائلة الإسكندرية وأنا معها طبعا. من يومها لم أعد إلى مصر.

- لماذا لاتزورين الإسكندرية؟

- كيف أزورها. كيف أمر على الفرن والحلواني الخاص بنا. بماذا سأشعر لو وجدت غيرنا يقف فيه. وربما لا أجده. خسارة.

- معك حق.

قال سامر ذلك فقالت:

- اتفق اليونانيون مع عبد الناصر ألا يؤمم ممتلكاتهم لكنه لم يفِ بالعهد.

خيم الصمت على الجميع لحظات فقال موستاكي باسما:

- لن تنسي أبدا ميلينا.

قالت:

- أنا أتابع أخبار مصر وأحزن جدا. مش أعرف أفرق بين الرجالة والنسوان. كله بيلبس زي بعضه!

هنا ضحكوا بقوة. فقالت:

- وربنا.

ضحكوا أكثر.

وتحدثت السيدة العجوز وحدها بقية الليلة.

خرج سامر وريم يلفهما الهواء ومطر خفيف. كانا قد طلبا تاكسي من تليفون المطعم الذي سيغلق أبوابه. استقلاه وودعا الجميع.

كثيرة هي الذكريات يا سامر تتداعى كلها عليك الليلة. كل الليالي تتداعى عليك الذكريات. تشعر أنها نُذُر النهاية وتحاول الهرب منها لكنها تداهمك. لقد تأخرت في الصعود والنظر إلى ريم والاطمئنان عليها. لابد أن تغير جلبابها والكومبليزون تحته. لابد أن تغير سوتيانها. الطبيب قال لك يكفي الجلباب المنزلي أو قميص النوم فوق جسدها لكنك لا تفعل ذلك. لا توافق أبدا على أنها في غيبوبة. لابد أن ترتدي كامل ثيابها. ولو استطعت وضعت فوقها فساتين الخروج. بسبب البامبرز الكبير اللعين لا تلبسها سروالا. ستقبلها كالعادة قبل أن تنام قريبا منها على السرير الآخر ولن تشعر بك. لو تشعر بك الليلة!

انسكبت دموعه فانحنى إلى البيانو ساندا يديه عليه فارتفع نغم ضاج ورأى دموعه تسقط على مفاتيح البيانو العاجية لكنه سمع طرقا على الباب. لم يصدق وإذا بالطرقات تزداد. معقول؟ من عرف مكانهما بسرعة هكذا؟

- من؟

- أنا السائق يا أستاذ.

وقف حائرا. لابد أنه السائق الذي أتى به وبالمرتبة إلى هنا. لماذا يعود الآن وقد مرت خمس ساعات على الأقل على انصرافه. مسح دموعه بكفيه. اتجه إلى الباب الذي به عين سحرية. نظر منها فرآه. هو حقا. فتح الباب مسافة قليلة وسأله:

- ماذا تريد الآن؟

قدم له السائق وهو يرتعش ورقة صغيرة وقال:

- بها اسمي ورقم تليفوني المحمول. ربما تحتاجني يا أستاذ. لا أحد في العجمي غيرك الآن.

تناول الورقة وعاد السائق مسرعا إلى الخلف. أغلق هو الباب وراح ينظر في الورقة غير مصدق.

5

الليلة سيبدأ العام الجديد. انتهى من الاستحمام وحلق ذقنه وارتدى بدلة صيفية وجلس أمامها يتأملها. العام 2008 سيبدأ بعد قليل. بداية السنة الواحدة والعشرين في عمر زواجهما.

لاحظ وهو يرتدي ملابسه أنه بعد مرور أسبوع عليه هنا فقد قليلا من وزنه. هل ستتذكر أيضا كيف كنتما تحتفلان ببداية الأعوام يا سامر؟! لقد تزوجتما في ليلة رأس السنة منذ عشرين عاما ليكون احتفالكما دائما مزدوجا بوداع عام من الحياة والزواج وبداية عام من الحياة التي تتجدد كل يوم.

اقترب منها ثم انحنى إليها وقبّل جبينها الدافئ. لقد فعل ما أحب أن يفعله. خلع عنها جلبابها وما تحته. غيَّر لها البامبرز الكبير وأحضر إناء به ماء دافئ وراح يمسح ما قد يكون علق بجسدها. عطّر جسدها كله الذي صار يتهدل فيه الجلد حاملا اللحم القليل حول ذراعيها وساقيها ورأى نهديها يزدادان ضمورا لكن أيضا يزدادان ترهلا. شعيرات قليلة نبتت في ذقنها أزاحها بالدهان الذي أحضره لذلك. لم يسبق أن حدث لها من قبل. كان الشعر القليل الذي بدأ ينبت في رأسها أسود ويزداد لكن ليس به الخصلة البيضاء التي ظهرت منذ عامين قبل العلاج وكانت فرحانة بها. ألبسها كومبين ووقف يفكر. لن يلبسها جلبابا الليلة. لا جلباب

فرعونيًّا مما تحبه وتشتريه دائما من كراسة ولا جلباب مغربيًّا مما تحبه أيضا واشترت كثيرا منه من المغرب. خلع كيس البول من مكانه في طرف السرير وقربه إلى المرتبة لأنه سيعود بها إلى الخلف كثيرا. لابد أن ينتهي بسرعة ويعيد توصيل محلول الجلوكوز إلى الكانيولا في ذراعها. كان يسند ظهرها إلى ظهر السرير فبدا ذراعاها متهدلين حولها. لو تفتح عينيها الآن لترى الفستان الذي سيلبسها إياه وتوافق عليه. لن ينتظر! سيفاجئها! ألبسها الفستان الأخضر وشده تحت ردفيها وتركها مرتكنة إلى ظهر السرير. وضع حول عنقها عقد اللؤلؤ الذي اشتراه أمس. ووضع في فتحة صدرها وردة حمراء.

سامحيني سوف أتركك على هذا الوضع بعض الوقت يا ريم. لابد أن يبدأ العام الجديد وأنت جالسة هكذا ليراك الفنان الذي لا أعرفه ويرسمك. مَنْ مِنَ الفنانين يمكن أن يلجأ إليه ليفعل ذلك؟ لن يلجأ لأحد يعرفه في الإسكندرية ولن يستدعي أحدا من القاهرة. لم تحب أن يراها أحد متعبة. لن يغفل أي فنان عن كونك الآن خارج زمننا. لو استمر هو في الرسم الذي أحبه صغيرا كان يمكن أن يحمل ريشته ويرسمها. لم يسمع أي فنان عالمي ممن يحب أعمالهم وتحبها صوت رغبته. ماتوا جميعا من زمان.

ابتسم. هو لايزال يفعل ذلك مدركا أنه لن يصل به إلى جديد. مدركا أنها ستفارقه. لكنه لا يستطيع ألا يفعل ذلك. ولايزال مؤمنا بقوة الأساطير وقدرة الكون أن يبدل من نواميسه ويفعل له مايريد.

تصحو ريم وتمشي معه في الطرقات. تنزل معه السلالم ولا تنتبه أنها نقصت درجة. ولا أنه غيَّر الباركيه بالسيراميك. لم يكن أمامه غير ذلك. السيراميك الذي تكرهه ريم جدا.

- هذا شيء مكانه الحمامات. انظر لقد رصفوا به الأرصفة.

يومها كادت تتزحلق عليه في شارع طلعت حرب.

- هؤلاء المسئولون الأغبياء يحولون بلادنا إلى دورة مياه عمومية.

تخرج معه إلى حديقة الفيلَّا.

- لماذا أهملنا الأشجار كل هذا الوقت. غدا تأتي بالبستاني يهذِّب الشجر. لم يعد متساويا على الطريقة الفرنسية. صار مهوشا يا سامر ومرعبا. لقد أتيت هنا قبلي فلماذا لم تفعل ذلك؟

- انتظرتك حبيبتي لتشرفي على البستاني بنفسك. أنت تعرفين أني لست دقيق الملاحظة مثلك.

- دائما تقول ذلك منقذا نفسك وأنت الذي تصنع التحف الشرقية الجميلة. رجل يعرف أنواع التحف في كل أنحاء مصر. من دمياط إلى النوبة يقول إنه ليس دقيق الملاحظة. كما أن النجيل قد مُحِيَ في أماكن كثيرة وارتفع بلا داع في أماكن أخرى.

- بمناسبة النوبة حبيبتي. ما رأيك أن ندهن الجدار الذ ي يحيط بالحديقة بألوان نوبية التكوين. النوبيون من فرط الحر يصرخون بالألوان الزاهية تتألق تحت الشمس، والحر متوفر هنا رغم قربنا من الشاطئ! الألوان

النوبيـة تجعل العالـم أكثر أمنا وأمانا وسـط الفراغ الكبيـر الذي تزيده حدة الشمس.

- الله عليك يا حبيبي.

وقف وتحرك خارجا بعد أن صارت ريم المركونة على ظهر السـرير لوحـة على جدار! نزل إلى الدور الأرضي يأكل شـيئا. لـن يعزف الليلة. سـيفتح التليفزيون يتابع احتفالات رأس السـنة. سيرفع صوته قد تسمعه وتناديـه أن يخفض الصـوت. قد يراها نازلة تقول لـه كيف تحتفل برأس السنة وحدك.

مـا إن نزل حتى دق جـرس الموبايل. هو لايرد إلا على نمرتين. ابنته نـور ومدير أعماله الذي أوكل إليه بيع مصنعـه ومحلات تجارته. لايريد شـيئا إذا فارقتـه ريم. لـن ينتحر. لن يهدي قصة حبهما للناس. سـتظل له وحـده. لم يكتشـف الناس شـيئا بعد أقسـى وأقـوى تأثيرا مـن الانتحار ليفعله. سـيظل حتى يشـاء له اللـه أن يلحق بها. لكن أين سـيكون ذلك؟ لم يقرر بعد.

لـم يرد على التليفون رغم أنه يعـرف صاحبة الرقم. دق الموبايل مرة أخرى فرأى وجه ابنته نور هذه المرة.

- كل سنة وانت طيب يا بابا. وحشتوني.

- وانتي طيبة يا نور.

لكن صوتها يتحشرج. قال:

كل شيء على مايرام يا نور. لا تبكي.

لكني اتصلت بخالي أعرف منه الحقيقة لأنك لن تقولها لي.

ماذا قال لك؟

- قال إنك اختفيت مع ماما وقلت لهم إنك في أوربا ولم تخبرهم أين.

- أنا في الإسكندرية يا نور. تعرفين أن ماما تكره أن يراها أحد في مرضها. لذلك أخفيت عنهم مكاني حتى أعود بها شافية بإذن الله.

- لكن يا بابا.

- كل سنة وانتي طيبة يا حبيبتي. استمتعي بحياتك ودراستك. ماما بخير لكن طبعا لن ترد عليك. لا تبكي يا حبيبتي أرجوكِ. لو أن هناك شيئا يستدعي حضورك سأخبرك. دعيني أصعد أقدم لها الطعام. هابي نيو يير يا قمر.

لا يعرف من منهما أغلق الخط. سمع صوت نشيجها يعلو ويبتعد. ترك الموبايل من يده وبسرعة انتقل إلى المنضدة وفتح اللاب توب وقرر أن يرسل إليها إيميلًا يهدئ فيه من رعبها. ما كاد يفتح صفحته حتى تذكر أن لها صفحة على الفيس بوك. كيف حقا لم يدخلها منذ سفرها؟

«ادعوا معي لأمي»

«ادعوا معي لأمي بالسلامة»

«أفتقد صوت أمي»

«أسمع نغمات البيانو هنا تعزف عليه أمي لكني لا أرى أمي»

راح يستعرض الصفحة بسرعة والحزن يتمكن منه ويرتفع في روحه. عشرات التعليقات والصور لريم في حفلات مختلفة في العالم وضعتها نور ووضعها أصدقاؤها وغير أصدقائها. لكنه لا يستطيع الانتظار.

صعد مسرعا إلى أعلى والموبايل في يده من جديد ووقف ينظر إلى ريم التي لم يتغير وضعها. مالت قليلا إلى الجانب في استسلام. تقدم وأعادها إلى الوضع الأول. تراجع يلتقط لها صورة بالموبايل سيرسلها لنور على صفحتها يطمئنها. لن تدرك نور الوضع الذي فيه أمها. سيقول إنها مسترخية على السرير. سيقول أي شيء فهو مطمئن إلى أن الصورة ستكون جميلة ولن تشي بأي اقتراب للنهاية. راح يختار موضعا يجعل وجه ريم أكثر إشراقا. كان قد وضع على رأسها «البونيه» الذي ترتديه منذ بدأت في العلاج الكيماوي. التقط أكثر من صورة ليختار بينها. نزل بهدوء يفكر هل حقا تحركت رموش ريم أم هذا خياله. جلس أمام اللاب توب ينقل إليه الصور. اختار أفضلها إشراقا. راحت الصور تقفز على شاشة اللاب توب أمامه. نور لم تنتبه إلى ما يفعل. لابد أنها لاتزال تبكي. لم ينتبه هو إلى أن ريم في الصور مغلقة العينين. لن يلغيها. قد تنظر نور فجأة إلى الموبايل في يدها وتعرف ماذا يحدث في الفيس بوك. على يقين هو أنها تستخدم الإنترنت في الموبايل. لقد اشترت أحدث موديل يوفر هذه العملية ولم يفعلها هو.

راحت التعليقات تأتي بسرعة أمامه.

«الله. ما أجمل والدتك يا نور»

«الله ما أجمل الفنانة ريم»

«الله هذه صورة السيدة التي ملأت الدنيا بفرح الموسيقى»

كانت التعليقات تبهجه، ولم ينتبه أحد أيضا إلى أن ريم مغلقة العينين. فجأة انطفأت الأنوار في الفيلّا. انقطعت الكهرباء. لكنه لايزال أمام اللاب توب. لم يعد مضيئا في الصالة غير الشاشة أمامه. لكن ضوءا يخرج من الشاشة إليه ويتفرق حوله. ضوء شفيف لايصدق أنه يراه. يرى وجه ريم يشع بالضوء الشفيف الذي خرج منه إليه وحوله.

«الله. هذه ليست الفنانة ريم. إنها ملاك من السماء»

تعليق يقفز أمامه على الشاشة. لابد أن أصدقاء نور يرون الضوء الذي يراه.

وأحس بالضوء يأتي شفيفا خلفه فالتفت ليراه هابطا مع السلم. إنه يراه يقترب منه. يبدو قويا أعلى السلم ويشف كلما اقترب وتقل كثافته لكنه يظل موجودا. تجمّد غير مصدق. وقف ينظر إلى الصالة حوله. كلها بيضاء من الضوء الشفيف. صعد السلم على مهل. يشعر بالضوء الشفيف كالماء حوله يكاد يمسكه بيده. صعد متأنيا درجة بعد درجة. وصل إلى باب الغرفة فدخلها وسط الضوء المنسكب. كل هذا النور ينبعث من وجهك يا ريم. قال لنفسه وتقدم ناحيتها ينحني يقبلها. رفع

وجهه عن وجهها فإذا بالنور يعود إلى الفيلَّا. لقد عاد التيار الكهربي ولم يعد حوله النور الشفيف الذي هو كالماء. هز رأسه مندهشا من تخيلاته. عاد من جديد لينزل. جلس وسط الضوء الكهربي أمام اللاب توب فرأى تعليق نور.

«لقد امتلأت الغرفة حولي في برلين بالنور يا أصدقائي. حدث لي ماحدث لكم. شكرا دادي لأنك أضأت روحي بالأمل».

في هذه اللحظة كادت دمعة تفر من عينيه لكنه شعر بشيء كالماء تحت قدمه. نظر إلى الأرض فوجد ماء خفيفا يخرج من بين صفوف السيراميك. ماء لا يرتفع قليلا إلا تحت قدميه فأحس به. هنا لم يكن السيراميك منتظما. لابد جاء منخفضا عن بقية الصالة. ربما. لكن كيف يعود الماء خارجا من الأرض حقا بعد أن وضعوا القار عليها ثم ردموها بالرمال بهذا الارتفاع تحت السيراميك. وقف متجهما يتساءل هل سيزداد هذا الماء أكثر مع الأيام القادمة وسيضطر لتعلية الأرض مرة أخرى؟

6

- هل حضرتك فقط معها هنا؟

- أجل.

- لكنها تحتاج رعاية لن تستطيع أن تقوم بها.

- أعرف.

- من سيعطيها هذه الحقن؟

- أنا.

نظر إليه الطبيب الشاب مندهشا وقد رفع حاجبيه إلى أعلى ثم قال:

- على أي حال إذا لم تستطع امزج المحلول بخافض الحرارة. لكن لا تضع أكثر من حقنة من خافض الحرارة في اليوم.

كان هو قد قرر ذلك في نفسه. نزل معه الطبيب الشاب إلى أسفل وقال:

- يمكن أن توصلني إلى شارع البيطاش فقط. سأستقل تاكسي من هناك.

فكر لحظة وقال:

- انتظر قليلا دكتور عادل. هناك سائق تاكسي أطلبه في مثل هذه الحالات. لا أظن أنه سيتأخر.

جلس الطبيب الشاب يتطلع إلى البيانو وإلى اللوحات التي على الحائط بينما انشغل سامر بالبحث عن الورقة التي تركها له سائق التاكسي حتى وجدها في أحد أدراج نيش السفرة. اتصل بالسائق الذي رد عليه فقال له:

- هل أنت بعيد عن العجمي؟

- أنا قريب هنا في الهانوفيل. لكن من حضرتك؟

- أنا سامر الذي ركبت معك من محطة الرمل يوم اشترينا المرتبة.

رد السائق فرحا غير مصدق:

- أهلا سامر بيه. شرف ليّا والله. دقائق وأكون عند حضرتك. هل تطلب شيئا أحضره معي؟

- لا شكرا. فقط تعال. لا تتأخر أرجوك.

نظر إلى الطبيب الشاب وقال:

- لن يتأخر. وأعتذر لك لأني لم أفعل ذلك بنفسي.

- لا داعي للاعتذار. بالعكس هذا أفضل.

- الآن عرفت المواعيد. ستأتي حضرتك كل أسبوع لتغيير الكانيولا والقسطرة وقياس درجة السكر في البول.

- هل هي مريضة سكر؟

لا لكن هكذا كانوا يفعلون بالمستشفى.

عندك حق. لكن لا أصدق أنك يمكن أن تعطيها الحقن.

لقد فعلتها من قبل حين كنت في الجيش. وأفعلها الآن.

- هل حضرتك طبيب؟

- لا؟ لكن معظم تجنيدي كان خدمة في مستشفى المعادي العسكري. تعلمت الحقن من باب الهزار لكنها نفعت الآن.

لايجب أن تتركها الليلة لأي سبب. وتليفوني مع حضرتك تطلبني في أي وقت. لدي سيارة تركتها اليوم عند البيت في العطارين ويمكن أن آتي إليك أيضا بها، لكن هل تسمح لي بسؤال؟

- تفضل.

- هل هذه السيدة زوجتك؟

- نعم.

- لماذا لا تضعها في مستشفى؟

تردد قليلا ثم قال في استسلام:

- كما ترى. لافائدة في أى علاج. قلت من الأفضل أن تموت بين يدي.

نظر إليه الطبيب الشاب في دهشة ثم قال:

- معك حق. مثل هذه الحالات لا يهتمون بها في المستشفيات. تكون مصدرا للمال فقط لكن النهاية محتومة.

وظل ينظر إليه لحظات فابتسم سامر في ألم. قال الطبيب الشاب:

هل تسمح لي بسؤال آخر؟

تفضل.

- يخيل إلى أني رأيت صورة هذه السيدة من قبل.

هز سامر رأسه وأبدى عدم اهتمامه فقال الطبيب الشاب:

- هناك فنانة كبيرة مشهورة جدا تشبهها. عازفة موسيقى عالمية. لقد نشروا صورها أمس في صحيفة الأهرام.

ارتبك سامر لكنه أخفى ارتباكه فقال الطبيب الشاب:

لا أظن أنها هي لأن الصحيفة قالت إن زوجها سافر بها للعلاج في الخارج وانقطعت أخبارها. إذن هي تشبهها.

تنفس سامر في ارتياح. كيف حقا انقطع عن شراء الصحف منذ جاء إلى هنا. قرر أن يشتري الصحف كل يوم. لكن من الذي فعل ذلك حقا؟ لم يشأ أن يسأل الطبيب الشاب عن مصدر الخبر كما نشرته الصحيفة. الخبر يساعده على الاختفاء بها.

نهض وبسرعة أعدّ له كوبا من الشاي وسمع صوت المطر في الخارج
بدا الطبيب الشـاب متوترا قليلا، لكن لم يكن أمامه إلا الانتظار وشرب الشاي في هدوء. دق جرس الباب فعرف سامر أنه السائق عثمان.

فتح له بسرعة وشاهد خيوط المطر الكثيف في الفضاء أمامه والسائق عثمان يرتعش من البرد.

ادخل.

دخل عثمان بسرعة ووقف وسط الصالة فقال سامر:

- تأخذ الدكتورعادل إلى العطارين.

قال الطبيب الشاب

- لا لا. إلى المستشـفى هنا في العجمي حيـث وجدتني. عندي نوبتجية الليلة.

- مش فارقة. العجمي العطارين أهو كله تحت الشتا!

قال السـائق عثمان ذلك فابتسـم سـامر والطبيب الشـاب. قال سامر لعثمان:

- بعد أن تصل بالدكتور تكلمني.

- هل تحتاجني هنا مرة أخرى؟

- لا.

أعطى السائق مائة جنيه قائلا:

- خذ أجرتك واحتفظ بالباقي حتى نتكلم.

نظر السائق إلى الورقة فئة المائة جنيه وقال ضاحكا:

- مش خايف حضرتك آخدها وأهرب؟

ابتسم سامر وقال:

- إذا هربت بها ضاعت عليك نقود كثيرة. الاختيار لك.

نظر إليه السائق مندهشا ثم قال:

- أنا قلت إن حضرتك رجل محترم فعلا.

وخرج مسرعا والطبيب الشاب خلفه.

ظل سامر ينظر إليهما من الباب المفتوح والمطر ينهمر أمامه. اكتشف أن الماء يدخل من عتبة الباب فأغلق الباب لكنه عاد وفتحه من جديد بسرعة. لقد رأى طائرا يأتي مسرعا من الفضاء ويحط على الأرض المبلولة بالمطر ففتح يتأكد أنه هدهد لا يعرف لماذا! كان المصباح المثبت أعلى الباب الخارجي يوضح له كل شيء. من زمان لم يرَ الهدهد. هو دائما بعيد عن أماكن الريف. هنا في العجمي كان يراه لكن منذ ضربت المياه الجوفية في الأرض هجر المكان مع من هجروه ولم ير هدهدا.

كان الهدهد يتنقل مسرعا على الأرض ثم قفز إلى شجرة في الباحة أمام الباب. فكر سامر هل يمكن أن يدخل الهدهد يبيت معه. هل يعرف أنه يمكن أن يجد الدفء في الداخل. ترك الباب مفتوحا لحظة وتراجع

فإذا بالهدهد يطير داخلا إلى الصالة. دار بسرعة تحت سقفها وحط فوق البيانو ووقف ينظر حوله. مشى سامر بهدوء إلى الباب يغلقه لكن الهدد طار مسرعا وسبقه إلى الخروج من الفيلَّا.

أغلق الباب ووقف يبتسم. ثم أسرع صاعدا السلم ليرى ماذا حدث في الحرارة التي ارتفعت في جسد ريم. هل انخفضت بعد أن حقنها الطبيب بالدواء؟

ليس أمامه إلا أن يخلع عنها كل ملابسها. الحرارة لم تنخفض الانخفاض الكافي. يشعر بذلك بيده. لا يمكن أن يضع الترمومتر في فمها. فليضعه تحت إبطها ويضم ذراعها عليه. ثمانية وثلاثون درجة بعد أن حذف نصف درجة. يعرف هذا من فترة تجنيده بمستشفى المعادي العسكري ومن خبرة الزمن. سيخلع وصلة كيس المحلول من الكانيولا التي في يدها حتى يتم خلع ملابسها. لقد تعود. سيطفئ التكييف ويترك الغرفة في برودتها العادية. لكن ليبدأ أولا بكمادات على جبهتها وسيرى النتيجة.

أحضر الماء والثلج من الثلاجة في طبق صغير من البلاستيك. أحضر فوطة صغيرة غمسها في الماء البارد ووضعها على جبهتها وجلس أمامها ينظر إليها. لحظات وعاد يغمس الفوطة في الماء البارد. فعل ذلك لنصف ساعة ثم وضع الترمومتر من جديد تحت إبطها. لاتزال الحرارة عند الثامنة والثلاثين. لاحظ أنه حين يضع الفوطة الباردة على جبهتها يرتفع نفسها ويسمع صوته للحظة ثم يعود إلى الاختفاء. إذن فليخلع

عنها ملابسها. فعل ذلك وأعاد إلى الكانيولا الوصلة تحمل المحلول إلى دمها. هل يضع خافض الحرارة السائل في المحلول كما قال له الطبيب؟ أدوية كثيرة تأخذينها في المحلول يا ريم.

سيستمر ويخفض الحرارة بالطريقة التقليدية. لقد سأل الطبيب عن سر هذا الارتفاع المفاجئ للحرارة فقال إنه لا يعرف. وإذا أراد أن يعرف فعليه نقلها إلى المستشفى لفحص كامل. لكن مادام لاجدوى من أي فحص فلينتظر قد تختفي الحرارة بالدواء والكمادات الباردة وينتهي الأمر. ثم إنه في مثل هذه الحالات قد تظهر أعراض لايعرف أحد مصدرها.

جسدها عار الآن أمامه لكن هذا البامبرز الضخم يثير غيظه كما يثير شفقته. هل هكذا تختفي استدارة ردفيها ودقة خصرها؟ أزال البامبرز عنها فوجد فيه غائطا سائلا قليلا. جلس أمامها يمسح عنها بالقطن الذي بلله بالماء ما علق بين فخذيها من الغائط السائل. أمالها على جانبها فبان له ردفاها مستطيلين من الجلد بلا لحم بينهما إلا القليل. لا استدارة فيهما الآن. انتهى وأرخاها على ظهرها. أخذ القطن المستخدم والبامبرز الذي نزعه عنها ونزل ليلقي به في سلة المهملات في الخارج أمام الباب.

رأى المطر الذي لايزال يسقط. تذكرالهدهد لكنه لم يتوقف لينتظره! مؤكد لن يعود ولابد أنه اختفى في الفضاء البعيد، أو سكن شجرة في الحديقة في الخلف، أو في الباحة أمامه ولا يصدر أي صوت أو حركة، فليسرع ليعطر جسدها.

صعد بسـرعة لكنه توقف وسط السـلم ينظر إلى الأرض. رأى الماء يتسرب من منطقة أخرى. أبهذه السرعة يحدث هذا؟ ليس هناك خطأ وعليه أن ينتظر انفجار الماء من كل مكان. اليوم أو غدا. لن تكون هناك مشكلة. سيعود من جديد لتغيير السـيراميك ورفـع الأرض و تكثيف طبقة القار. سيسأل ولابد أن هناك أنواعا من القار أكثر كثافة لا تسمح بالتسرب، على الأقل بهذه السرعة. صعد ونثر على جسدها العطر. على صدرها وبطنها وساقيها. لم يشـأ أن يقلبهـا لينثره على ظهرها. لا بد أنهـا تتألـم. راح من جديد يضع الفوطة الباردة بالماء على جبهتها. أحضر فوطة أخرى وبللها أيضا بالماء البارد وراح يمشي بها على جسدها. توقف عند عانتها. وجد نفسـه ينظر إليها. للشـعر القليل المتباعد. لم تعد في حاجة أن يعتني بها. أضـاع العلاج الكيماوي الشـعر من قبل كما أضاعه من رأسـها. كثيرا ما طلـب منها أن تترك شـعر عانتهـا فهو يحب العانة الوارفـة على عكس ما تفعله النساء للرجال في مصر من نزع شعر العانة. في البداية ظنته يمزح. لكنهـا رأت في عينيه رغبة حقيقيـة. تركت عانتها وكانت يده ترتاح عليها كأنها ترتاح على شـجرة من الجنة حتـى أنها كانت تضحك أول مرة. في كل مـرة يفعل ذلك كانت تضحك. لكنه بعد قليل كانت يده تمشـي على العانة وتشعر هي بالغيرة شيئا فشيئا ثم تضغط يده عليها وتبدأ في الانتقال إلـى عالم مـن البهجة تداعبها اللذة فترتعش. لكنهـا رغم ذلك كانت بين عدة أشـهر وأخرى تزيل ما علا من شـعر العانة وتتركه ليس عاليا مهوشا ولا منخفضا خشنا. استراح هو إلى ذلك أيضا. لن يستطيع الآن أن يقص مـا علا من شـعر العانـة رغم قلته. لن يعـرف. عليه أن يزيلـه بالدهان إذا

ازداد مادام لا معنى لأن يضع يده عليه. لم تكن تشتري الدهان هي أبدا. كانت تتخلص من شعرعانتها بالطريقة التقليدية. بالعجين الذي تصنعه النساء من السكر والليمون والماء والملح ويسمونه بالحلاوة.

لم تكن تتحدث معه في ذلك لكنه كان يعرف، ويعرف عزوفها عن الدهان الكيميائي الذي سمعها مرة تقول عنه إنه سيئ ويسبب سواد الجلد. هل سيتسع الوقت لك من جديد يا حبيبتي. ليته يتسع حتى لو خالفتِ رغبتي في عدم نزع الشعر وتعودين إلى طريقتك!

رأى أمامه فرجها أسفل العانة بعد أن تباعدت ساقاها. ومن بينه يبدو أثر البظر الذي ضاع مع الختان. لم تختن هي ابنتهما نور وقالت يكفي ماجرى لي. صار الفرج ضامرا ولم يعد مرتفعا كما كان من قبل. هل استسلمت سيدي؟ هل أنت حزين؟ أنا نسيت كل رغبة أيضا، وأنا سليم الجسد والروح. لابد أنك لم تعد تذكر معنى وجودك. وإلا فما معنى هذا الضمور الذي يبدو مثل صمت قديم؟

ضم ساقيها وراح يمشي على جسدها بالماء البارد. لساعة من الزمن حتى صارت الحرارة سبعًا وثلاثين درجة فحمد الله، وراح من جديد يعيد إليها ملابسها على مهل.

أعاد تشغيل التكييف. تمدد على السرير قليلا ينظر إلى السقف في سكون. أحس بالجوع. لا يحب أن يأكل جوارها وهي لا تأكل معه. نزل من جديد يضع لنفسه بعض الجبن والخبز. وضع أمامه زجاجة من النبيذ

الأحمر. هذا هو ما يجعله ينام دون هواجس كل ليلة. لو استطاع أن يجعلها تشاركه النبيذ مرة كما شاركته كثيرا من قبل؟

ابتسم إذ تذكر رجلا يعمل في مصنعه حكى له مرة كيف كان أبوه الفلاح إذا أصابته الحرارة بسبب نوبة برد أو أنفلونزا يغرق جسده بالكحول، فيأخذ الكحول الحرارة كلها عن جسده، ثم بعد ذلك يدفعه إلى الحمام ويفتح «الدش» عليه بالماء البارد.

لن يستطيع أن يدفع ريم إلى الحمام تحت «الدش»، لكنه يستطيع أن يغرق جسمها بالكحول إذا ارتفعت الحرارة مرة أخرى، ثم يمسح جسدها بالماء البارد.

الكحول؟ تساءل. ولماذا لايكون النبيذ والنبيذ الأحمر بالذات حتى تحرق ناره كل نار تحته. لكنه سمع صوت سيارة تتوقف وسارينة السيارة تعلو ثم خطوات مسرعة في الباحة أمام الباب ودق الجرس.

من يأتي الآن؟ هل يكون السائق؟ لو حدث يكون مجنونا. نظر من العين السحرية فوجده يقف تحت المطر. فتح له بسرعة فقال:

- لم أتصل بحضرتك كما طلبت مني ولم تتصل حضرتك بي. ماذا كنت تريد مني بالضبط؟

نظر إليه في دهشة لكنه ابتسم:

- ولماذا حقا لم تتصل. لماذا تكلف نفسك الحضور في هذا المطر؟

- يا أستاذ قلت لحضرتك أنا أعيش في بيت بلا سقف. مطر هنا ومطر هناك. قل لي ماذا كنت تريد؟

نظر إليه مشفقا متأثرا وقال:

- اشترِ لي صحف كل صباح وأحضرها لي في أي وقت من اليوم.

- الأهرام والأخبار والجمهورية.

- بالضبط.

- ألا تريد صحف المعارضة. أنا شخصيا لا أقرأها لكن يقولون إنها مهمة.

لا داعي لها.

- تصبح على خير يا أستاذ.

انصرف السائق عثمان مسرعا تحت المطر الذي صار خفيفا إلى التاكسي بينما وقف هو يتابعه غير مصدق، وإذا بطائر يشق الظلام بسرعة فائقة ويدخل من الباب هذه المرة قبل أن يغلقه. التفت فرآه يطير أمامه حائرا في الغرفة لا يستقر. إنه الهدهد مرة أخرى. وقف غير مصدق منتظرا أن يخرج وقد ترك له الباب مفتوحا لكن الهدهد وقف هذه المرة فوق جدار البيانو يتلفت حوله ويهز رأسه ذات العرف الجميل بسرعة مدهشة. قال لنفسه ماذا يمنعه أن يجرب ويغلق الباب وإذا رأى الهدهد لا يستقر يفتح له من جديد.

أوشك أن يغلق الباب لكن لم يغلقه. بدا الهدهد لا يشعر بوجوده وقفز من أعلى البيانو إلى المفاتيح العاجية وراح يتقافز فوقها فأصدرت ألحانا سريعة وهو يبتسم والهدهد يقطع البيانو عرضا ويعود على

المفاتيـح ولا ينقطـع اللحـن الذي صـار عاليـا بقفـزات الهدهد. وقف لايصدق وتناهى إليه من أعلى صوت يموء أمممممممممممم ويرتفع. أممممممممممممممممممممممم. ريم. لقد سمعت لحن الهدهد. صرخ ريييييييييييييم. وصعد السلم جاريا يقفز درجاته فكاد ينكفئ على وجهه عند النهاية، لكنه اعتدل وأسرع داخلا ووقف ينظر إليها.

كفت عن الصوت ولايزال جسـدها يتحرك فـي صعوبة وبطء. ريـم. ريـم. توقف جسـدها عن الحركة فصـرخ، ريييييييييم. انقطع صوت الألحان المتناثرة من أسـفل وسـكنت ريم فراح يهزها من كتفها صارخا ريـم ريـم رييييييييييييييم. ثم سـكن وانكفأ بوجهـه على صدرها. لاصوت يأتي من أسفل ولابد طار الهدهد.

نـزل على مهل حزينا. لم يجد الهدهـد والباب لايزال مفتوحا يتناهى إليـه منه صوت المطر. جلس مطرقا علـى أحد المقاعد غير مصدق. هل كان ذلك هدهدا حقا وهل كانت هذه ريم التي صرخت صرخة مكتومة؟ هل يكون الحل في الموسيقى. كيف وهو يعزف كل ليلة. فليعزف الليلة مـن جديد. وليكـن عزفه عشـوائيا كالهدهد قـد يكون لذلك سـريان في الروح حتى لو كان احتجاجا صامتا. لكنه شـعر بالهواء البارد يدخل قويا من الباب، وشـعر بالخوف من المكان الذي لا يسـكنه أحد. أغلق الباب وجلس أمام زجاجة النبيذ يشرب في صمت.

7

لم يعد أمامه إلا أن يذهب إلى محل السيراميك. ترك الفيلا في ضيق بعد ليلة قضاها في الدور الثاني في السرير المقابل لريم. لم يستطع أن يقضي شيئا من وقته في العزف ولا قراءة الصحف. لم يعد هناك مكان للجلوس في الدور الأول وقد علت المياه بشكل كبير. تقريبا كاد يختفي شكل السيراميك تحتها. لاحظ أنها تسربت إلى المطبخ الواسع. كانت الساعة العاشرة. المباني الخالية من السكان تعطيه إحساسا بالاتساع رغم ما يشعر به من شفقة على هذه البيوت التي هجرها أصحابها. فكر على نحو مفاجئ ألا يذهب بسيارته. ما الذي يمنع أن يمشي قليلا حتى يصل إلى الشاطئ. كيف حقا لم يخرج إلى الشاطئ حتى اليوم. عشرون يوما مضت الآن لم يغادر الفيلّا إلا مرة أو مرتين إلى الإسكندرية أو إلى بائع السيراميك. أو يشتري شيئا من الطعام والدواء ويعود بسرعة. لكنه وجد نفسه يقف ينظر إلى الأشجار التي تحيط ببعض الفلل يبحث عن طائر. رأى أكثر من عصفور يطير عاليا ويعود إلى الأشجار التي جف كثير منها. ثم رأى هدهدا يطير بينها ويمضي بعيدا ويختفي. ابتسم. مشى على مهل بين الأرض المتربة. هناك أماكن جافة يستطيع المشي بينها. لا يجب أن يقترب من المباني حيث الوحل والمياه الراكدة السوداء والخضراء أكثر.

كيف كانت هذه الفلل عامرة بالحياة في الصيف. كيف كان سكانها أيضا يأتون إليها في الإجازات والأعياد. حتى شاطئ الفردوس. شاطئ بيانكي الذي هو عضو من أعضائه لم يعد تقريبا يأتيه صيفا إلا القليلون. هل يعرف الآن في مقبرته، آشيل بيانكي، السويسري الذي أسس شركة لمواد البناء وتقسيم الأراضي هنا في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي ما آل إليه شاطئه؟ وهل تعرف في مقبرتها «مدام هانو» اللبنانية التي كانت أول من أقام فندقا أسمته الهانوفيل ما انتهى إليه الهانوفيل؟ بل ما انتهى إليه فندقها نفسه؟ «البيطاش» لم تعد كلمة قبطية تعني الحدود كما يقول البعض ولا كلمة فرنسية تعني البقعة الجميلة Beau tache كما يقول غيرهم، وقد صار العجمي كله أكثرعشوائية من أي مكان في الإسكندرية، وحتى لو كان يحمل لقب الشيخ المغربي محمد العجمي الذي سُمِّيَ المكان كله باسمه فلم يعد هادئا ولا على سحره القديم. لم يعد فللا قليلة وخلاء لصيد السمان في الخريف. يقولون إن هناك جهودا للمحافظة ستبدأ ليتم الصرف الصحي وتعاد إضاءة الشوارع ولكن هل تنتظرنا. وحتى لو حدث هذا فمن سيستطيع هدم كل ما بُنِيَ من عمارات عالية وبيوت تسببت في هذه الفوضى. المهم أن يعود من ترك الفلل إليها خاصة هنا بعيدا عن الشارعين الرئيسيين للهانوفيل وللبيطاش.

لكنه كان قد مشى بعيداعن بيانكي ولم يفكر في الاتجاه ناحيته حتى لا يقابله أحد يعرفه يكون قد أخطأ وجاء هنا!

اقترب من الشاطئ وسمع هدير أمواجه. زادت قوة الهواء الذي يقابله حتى انفتح الشاطئ أمامه واسعا على الناحيتين. رأى بعيدا وعاليا عند الأفق قوس قزح شاحبًا. كيف حقا لم يره من بعيد؟

لقد صفا الجو وصار كأنه في الخريف. لكن سحبا سوداء كثيرة معلقة تحت السماء تجاور السحب البيضاء القليلة المتناثرة. هي الإسكندرية دافئة في الشتاء دائما ولا يعرف لماذا كان يرى السائق من قبل يرتعش تحت المطر. لابد أنها ردود أفعال عصبية من أثر المطر وليس ارتعاشا حقيقيا. ابتسم وهو يمشي على الرمال ينظر إلى ما قذفته الأمواج من أعشاب سوداء.

رأى صيادا يجلس على مقعد خشبي صغير يمسك البوصة في يده، منها يتمدد الخيط الرفيع في الماء وجواره غلق من الخوص. الصياد يرفع البوصة إلى أعلى يشد شيئا ثقيلا ثم يعود يرخيها من جديد. كان الصياد ملثما لف وجهه بكوفية. صار هو يقترب منه.

كان جوار الصياد راديو ترانزستور تأتي منه أغنية «البحر بيضحك ليه وأنا نازلة ادلع أملا القلل». ابتسم وفكر أن يسأله هل يجد سمكا هنا بالفعل. كان الموج يتدافع مسرعا لكنه ليس عاليا. سفينة بعيدة جدا يبدو أنها تبتعد ولابد ستختفي بعد قليل.

ظهر جنديان من الجيش يسرعان على الشاطئ في اتجاه الصياد. لابد أنهما من حرس الحدود. توقفا عند الصياد الذي وقف يتحدث معهما والبوصة في يده ولايظهر من وجهه غير عينيه.

وقف يرقب المشهد من بعيد. لايسمع صوت أحد منهم لكنه يرى الاستنكار في شكل حركة لوجه الصياد الذي التف حول نفسه ودفن نهاية البوصة في الرمل متوترا، ثم أخرج من جيب بنطلونه الجينز الخلفي شيئا

لا بد أنه محفظة، أخرج منها شيئا لا بد أنه بطاقته الشخصية قدمها لهما. رأى أحد الجنديين يعيدها إليه ويتكلم ولا يسمعه ورأى الصياد يبعد الكوفية عن وجهه. إنه عثمان السائق وصوته الآن يرتفع. تقدم منهم. راح الخيط يتحرك ويشد البوصة من أعلاها لأسفل بسرعة فأخذ عثمان البوصة من الأرض وترك الجنديين وراح يجمع الخيط حول الماكينة بسرعة. في الماء السمكة لابد تقاومه فهو بدوره يقاومها ويدير الماكينة ثم فجأة تراجع عثمان عدة خطوات بسرعة إلى الخلف إذ كاد يقع. لقد انقطع الخيط واختفت السمكة بالصنارة وما علق بها من خيط. كان هو قد وصل إليهم فإذا بعثمان يصرخ في الجنديين:

- عاجبكم كده. السمكة قطعت الخيط منكم لله. بقالي ساعتين الآن أنتظر رزقي تقطعوه. حرام عليكم. رخصة إيه اللي عايزينها مني بس، هو أنا في عرض البحر، دا أنا في العجمي يا ناس وعلى البر!

قال أحد الجنديين وكان يبدو حاسم تقاطيع الوجه:

- أحسن لك تلم حاجتك وتمشي من هنا. غير هذا سنقبض عليك.

كان هو قد صار جوارهم. رآه عثمان فهتف:

- سامر بيه؟

وبين دهشة عثمان أخرج هو من جيب بنطلونه الخلفي محفظته ثم أخرج منها بطاقته الشخصية وقدمها لأحد الجنديين الذي نظر فيها وقال بهدوء:

- ياباشا نحن لدينا تعليمات. الصيادون هنا ليسوا صيادين. أكثرهم ينتظرون المخدرات ترميها المراكب. عصابات يعني!

تساءل:

- في العجمي؟

- أجل يا باشا.

- لكن هذا رجل محترم. كما أنه سائق أعرفه.

بدا الجندي الشاب الذي حدثه متبرما ثم قال:

- خلاص يا باشا لأجل خاطر حضرتك فقط. لكن لا يجلس كثيرا لأن الضابط لو مرّ لن يتركه.

ثم خاطب الجندي عثمان:

- سمعت أم نسمعك مرة أخرى؟

لم يرد عثمان وانصرف الجنديان. قال له سامر:

- استمر اصطاد سوف أشتري منك ما تصطاده.

نظر إليه عثمان متأثرا ثم راح يضع صنارة أخرى في الخيط وهو يهز رأسه في ألم وزهق ثم قال:

- يا باشا لو على المخدرات ما خرجت للصيد في هذا البرد. هؤلاء يريدون نقودا. رشوة يعني. كانت سمكة كبيرة منهم لله. لابد أنها قاروص يا باشا.

- قاروص؟

- أجل يا باشا. لو مياس كانت استسلمت. ثم إن المياس أكثر في الصيف. هذه قاروص وقاروص كبير والله. كان عليَّ أن أرخي لها الخيط قليلا ثم أجذبها مرة بعد مرة أتحايل عليها حتى تخرج. منهما لله.

- لا تحزن. لكن لم تقل لي من قبل إنك تصطاد.

- أحببت أن تكون مفاجأة. كما أنني كثيرا ما أزهق من السواقة وأصطاد.

ضحك سامر وقال:

- مفاجأة لي أنا. هل كنت تعرف أني سأمر من هنا؟

- كنت سأحضر السمك هدية لك فتقتنع بالخروج والصيد في البحر.

وقف سامر مندهشا. فقال السائق:

- أصل حضرتك صعبان عليا. كلما أحضرت لك الصحف أجدك في البيت ولا يبدو أنك تخرج أبدا. فكرت أشجعك على الخروج. على الصيد. وتبقى قريبا أيضا من الفيلَّا. يا باشا لو سمحت. لماذا حقا لاتفارق الفيلَّا؟

تردد سامر قليلا ثم قال:

- ستعرف فيما بعد.

- عشرون يوما حتى الآن يا باشا. كثير جدا.

ابتسم سامر وقال:

- أحصيتهم؟

- طبعا يا باشا. ألم أقابلك أول مرة منذ تسعة عشر يوما.

زادت دهشة سامر ثم ابتسم وقال:

- أين تركت التاكسي؟

- هناك في البيطاش. أمام صيدلية الدكتور مجدي. تعرفها؟

- طبعا أعرفها. للأسف لن أنتظر معك. ستجدني على مقهى البدوية اليوم قريبا من الصيدلية. لابد تعرفه؟

- طبعا يا باشا.

- سأجلس هناك بعد ساعتين تكون اصطدت فيهما السمك في أي وقت تنتهي مرّ عليّ لتعود بي إلى البيت. وإذا لم تصطد أيضا مر عليّ.

نظر إليه عثمان غير مصدق فقال سامر:

- دعني فقط ألقي بالصنارة في الماء مرة واحدة وسأتركك.

نظر عثمان إليه فبدا له سامر وديعا جدا أكثر من كل مرة فقدم له عثمان البوصة لايصدق أن من يقف أمامه من بني البشر. وقال:

- تفضل. لكن قل لي يا بيه. لم أعرف أبدا من أنت وعرفك الجنديان وانصرفا. لا يمكن تكون رجل شرطة. حضرتك وزير؟

ضحك سامر وقال:

- لا طبعا. أنا رجل أعمال صغير لا أكثر.

اندهش عثمان وقال:

- وهل يعرفك الجنود؟

- لا طبعا لكن أكيد حين قرأوا مهنتي أحسـوا أنهم أمام شخص مهم. هم بؤساء جدا وليس كما تقول.

هز عثمان رأسه وقال:

- نفسي أصدقك لكن لا أستطيع.

ابتسم سامر بدوره وقال:

- تحب ترى بطاقتي الشخصية؟

- العفو يا باشا. خد البوصة وارمي الصنارة. يمكن تفرج على يديك.

أمسك سامر بالبوصة وابتعد قليلا عن عثمان وأمالها إلى الخلف.

- سمي يا باشا.

- بسم الله الرحمن الرحيم.

ودفع سامر بالبوصة إلى الأمام بقوة فطارت الصنارة بقطعة الرصاص التي في الخيط واندفعت كثيرا فوق الماء حتى سقطت فيه .

- ماشاء الله. ولا أجدع صياد.

وإذا بالبوصة تهتز في يد سامر وتفلت منها وتنجذب إلى الماء ويصرخ عثمان:

- يا نهار أبيض.

جرى خلف البوصة ولم يلحق بها إلا بعد أن نزل إلى الماء لكنها أفلتت مرة أخرى واندفع وراءها فجاءت موجة قوية ضربت به وقلبته في الماء وسامر يصرخ.

- اتركها اتركها. سأشتري لك غيرها.

اختفى عثمان لحظات تحت الماء، ثم ظهر يتنفس وتقدم إلى الشاطئ يلحق به الموج فيضربه، وينكفئ على وجهه ثم يعتدل ويقف، ويخرج بثبات يقف على الرمل يسعل كثيرا ويخرج من فمه ماء ويكاد يختنق، وسامر يقف حائرا.

تقدم عثمان يا ئسا يقول:

- عليه العوض. أنا كنت عارف انه يوم شؤم.

قال سامر الذ ي بدا مرتبكا ومتأثرا:

- قل خيرا يا رجل. لا تقلق سأعطيك ثمنا مضاعفا للبوصة والماكينة. أعتذر لك.

- لا تعتذر يا أستاذ. ليس ذنبك. هذه ليست سمكة. أكيد حوت أو قرش. الحمد لله على كده. لا أعرف كيف سأعود مبتلا هكذا. الأمر لله.

- سأشتري لك ملابس. هيا بنا إلى البيطاش.

حمل عثمان الغلق والمقعد في يديه وقال:

- أرجوك يا أستاذ. يكفي ماجرى. اتركني الله يخليك.

ثم قال في يأس:

- هي قالت لي ذلك. ليتني سمعت كلامها.

سأله سامر:

- من قالت لك ذلك؟

- أمي. أحلامها كلها تتحقق. كل مرة أنسى. قالت لي لا تخرج للبحر اليوم لأنها حلمت أني أصرخ فوق مركب في عرض البحر. قالت لي إذا كنت تحب الرجل الذي تريد أن تهديه السمك اشتره له.

صمت سامر ولاحظ الماء الذي لايزال يتساقط من ثياب عثمان الذي استمر يقول:

- أمي عجوز يا أستاذ. منذ أن توفيت زوجتي وهي لا تنام إلا دقائق وتقوم صارخة. تصرخ في الليلة مائة مرة. قالوا ركبها الجن. لا أحد يصدق أن هناك حماة تحب زوجة ابنها كل هذا الحب. لا نافع معها حبوب منومة ولا حبوب مهدئة ولا قرآن يقرأه الشيخ كل يوم عندنا في البيت.

حين اقتربا من الفلل المهجورة في شاطئ بيانكي والقريبة من شارع البيطاش، أمسك سامر ذراع عثمان وقال:

- أرجوك. تقبّل مني ما سأعطيه لك.

وأخرج من جيبه أوراقا مالية كثيرة قدمها إليه قائلا:

- هذه ألف جنيه. اشترِ لنفسك ملابس وماكينة صيد أخرى ووزع الباقي على الفقراء ربما يزيح ربنا الهم عن والدتك.

نظر إليه عثمان متحيرا وقال:

- لا أصدق أنك بشر مثلنا.

هنا ضحك سامر وقال:

- والله العظيم أنا بشر مثلك. رجل أعمال كما قلت لك. اسمي سامر الريدي. ربما تسمع عني شيئا فيما بعد. فقط أُدْعُ لزوجتي بالشفاء.

نظر إليه عثمان متأثرا والماء يتساقط من ثيابه. اهتزت رموشه كأنه يخفي دموعا ستنفجر ثم قال:

- إذن هي زوجة حضرتك المريضة التي اشتريت لها المرتبة الطبية.

لم يرد سامر. أمسك بيد عثمان يضع فيها النقود، وعثمان ينظر إليه غير مصدق ثم قال شاردا:

- وهل ستنتظر حضرتك حتى أشتري ثيابا وأعود بك بالتاكسي؟

رد سامر:

- سأعود على قدميّ كما جئت. اذهب أنت إلى عملك واغفر لي أني السبب فيما جرى لك اليوم.

- كان نفسي أهدي لك سمكا طازجا. لكن ربنا أراد تعطيني حضرتك ألف جنيه.

- ربنا إرادته حلوة.

- كنت أفكر أنك بعد أن تذوق السمك الطازة ستخرج من الفيلّا التي تحبس نفسك فيها وتصطاد. ليتك تفعل هذا يا أستاذ. صدقني. المكتوب مكتوب ولا أحد يقف أمام ما يريده الله.

- سأخرج وربما أشتري ماكينة صيد مثلك. المهم تصطاد لأولادك. لا تشغل نفسك بي. أكثر من شراء الصحف كل يوم لا أريد. إلى اللقاء غدا.

8

يشـعر الآن بخطئه الشديد في حضوره هنا. لماذا لم يذهب إلى العين السـخنة حيـث فيلّتـه الثانيـة. لأن الجميـع يعرفـون أنهما قد هجـرا فيلّا العجمـي بعد ما جرى من فوضى في البنـاء وارتفاع المياه الجوفية داخل وحـول الفلـل والبيوت ومـن ثم لن يفطن أحـد إلى أنهما هنـا. كان يريد مكانا خاليا من البشر. هو والله فقط ليرى الله ما يفعل دون ضجيج، وقد يسـتجيب الله لمشاعره فتنهض ريم وتمشي بين الأشجار والطيور. لكن ما يراه أمامه لا يمكن احتماله.

أكـوام السـيراميك الـذي تـم تركيبـه منـذ أيام بعـد أن تـم خلعه عن الأرض والرمال المشـبعة بالماء في الشـارع الآن. حتى طبقة الأسـمنت تحت السـيراميك خرجت عالقة به وقد تكسر بلا رحمة وامتزجت بالقار الأسـود. العمال الآن يصبّون طبقة عالية من القار المجهز سلفا. نوع قال عنـه صاحب محل السـيراميك إنه لا يقبل أي تسـرب للميـاه. كيف حقا تكون المياه أرقّ وأضعف الأشياء، أقوى من كل شيء؟ من يستطيع حقا أن يتغلـب على المياه إذا أرادت الصعود مـن الأرض. حتى الجبال الآن تعلوعليها المياه بالطلمبات. الذي اخترع الطلبات استجاب لرغبة المياه

السرية التي تترقرق مع رقتها طالبة أن يفسحوا لها كل الطرق. ابتسم حزينا ورأى أمامه أحد العمال يقف قائلا:

- لا حاجة يا بيه أن تأتي سيارة نقل تأخذ الردم والسيراميك المكسّر. خلف الفيلا تعلو المياه والأفضل أن تردم الأرض بها حول سورها.

نظر إليه في ذهول. كيف حقا لم ينتبه إلى ذلك؟ قام وقد انفتحت عيناه على آخرهما وأسرع معه إلى خلف الفيلّا. وقف لا يصدق. ارتفعت المياه إلى حوالي ربع متر حول الجدار الخلفي.

- المياه تبحث عن منفذ. ما فعلناه من قبل سد عليها الطريق للصعود فانفجرت في أضعف مكان.

كان العامل يتكلم وهو يفكر حتى لو ردم المكان هنا هل سيمنع المياه عن الصعود؟ وكأن العامل يعرف مايدور في رأسه قال:

- الأفضل طبعا شفط المياه ثم وضع طبقة من الخراسانة حول الفيلّا لكن نقوم بالردم كإجراء مؤقت.

وقف مستسلما فقال العامل:

- لا تقلق يا سيدي. الفيلّا قوية وما سنفعله نوع من الاحتياط سيفيد.

التفت فرأى الحديقة الكبيرة. يمشي فيها كل يوم يفكر في ريم ولم يرَ ما جرى. لم يغير مصابيح الإضاءة المتفرقة على سور الحديقة والتي لابد لم تعد صالحة بعد هذه السنوات. لم يأتِ بالجنايني يقوم بتهذيب أشجار الحديقة. لقد أهملها في العشرين يوما التي مضت فارتفعت

المياه مساهمة في الإهمال. يستجيب الكون والطبيعة لرغبات الإنسان الحلوة حقا لكنه أيضا ينتظر الفرصة ليركب الإنسان بالهموم!

لكن لماذا لا تصعد المياه إلى أرض الحديقة حقا رغم أنه لابد تحتها مياه جوفية؟ لماذا تتركز على البيت؟

هز رأسه طاردا اليقين بأن البيت إلى زوال. طاردا قول السائق إنه يعيش في بيت بلا سقف. ضم يديه إلى بعضهما وعاد ببطء مستسلما إلى حيث الباحة أمام باب الفيلَّا يتابع أعمال العمال. ما إن جلس حتى رأى هدهدا صغيرا يأتي ويقف فوق البيانو المغطى الآن بملاءة كبيرة حتى لا يصيبه أي أذي من الأعمال التي يقومون بها، والذي أخرجوه إلى الباحة بعيدا عن العمل. حتى لا يصل إليه غبار. لا يصطدم به عامل. لا تدفع الرغبة التي لا معنى لها أحدهم فيضع يده على مفاتيحه.

كان الهدهد صغيرا بحق مما أثار دهشته جدا. وقريبا أمامه يقوم العمال بخلط الأسمنت بالرمال والماء ويحملونها إلى الداخل، ويخرجون السيراميك الجديد من الكراتين إلى الأرض حتى ينتهي من بالداخل من صب طبقة كبيرة مضاعفة من القار ثم يبدأون في فرشها بالرمال ثم تركيب السيراميك. أحد العمال كان قد وضع راديو ترانزستور قريبا على الأرض. الموسيقى التي تنبعث منه في الفضاء يعرفها. موسيقى أغنية «زينة والله زينة» التي تبدأ بالأسى الشفيف ثم يتقدم إيقاعها مسرعا بالبهجة. يذكر الآن أن شادية كانت تغني وهند رستم ترقص على الإيقاع في فيلم«انت حبيبي» الذي شاركهما فيه فريد الأطرش. يذكر المشهد.

كان عرسا نوبيا. في الحزن والفرح صوت شادية نفحة من السماء. لم يفعل ما أحبته ريم يوما من تغطية جدران الفيلا من الخارج برسوم نوبية بعد. سيفعل ذلك في الأيام القادمة رغم المياه التي ارتفعت خلف الفيلّا والتي يمكن أن ترتفع خلف كل الجدران.

- تفضل معنا سيدي لحظات.

قال رئيس العمال فدخل معه إلى الفيلا.

- للأسف سوف تضيع درجة ثانية من السلم.

كان قد أحس باقتراب السقف هذه المرة.

- ليس أمامنا غير ذلك من باب الاحتياط. لا نريد أن يتسرب الماء أبدا.

هز رأسه مستسلما وتراجع ليعود يجلس مكانه. نظر إلى السماء فوجدها ملبدة بالغيوم. طلب من الله ألا تمطر اليوم حتى ينتهوا ويدخل إلى الفيلا. لكنه أدرك أنه لم يعد ينظر ناحية الهدهد الصغير. نظر ليجده مكانه. يمكن أن يبتسم الآن. لكن أحد العمال جاء من الخلف ومد يده يمسك بالهدهد الذي طار للأمام فإذا بعامل آخر يسرع قافزا يضع يده في طريق الهدهد ليمسك به. فعل ذلك بطريقة من يضرب الهدهد فصرخ هو:

- لا

لكن العامل كان قد ضربه بالفعل فسقط الهدهد الصغير على الأرض ثم راح يتقافز ويهتز. إنه يتألم. لابد. إنه لا يستطيع أن يقف على قدميه فيسقط إلى جانبه.

يا حيوان.

صرخ في العامل الذي وقف مذهولا يقول:

- والله لم أكن أقصد. كنت أهزر. كنت لو مسكته سأتركه والله.

كان سامر قد وقف والغيظ يقفز من عينيه:

- أنت لست بني آدم. كسرت رجله أكيد يا حيوان.

وأسرع ناحية الهدهد والعمال ينظرون إليه مندهشين. أمسك بالهدهد بين يديه ينظر إليه. يحس بطراوة لحمه وخفق قلبه تحت ريشه. كلاهما ينظر إلى الآخر الآن. هو يشعر بذلك. يريد أن يعتذر، فهل سيسمعه الهدهد الصغير؟ وقف حزينا والعمال القريبون يقفون مذهولين والبعيدون يتهامسون مندهشين مما يفعله!

وضع الهدهد من جديد على الأرض فانقلب على جانبه لا يستطيع الوقوف. تقدم رئيسهم ناحيته وقال بهدوء:

- آسف جدا يا أستاذ. لم يكن يقصد فعلا. نصيبه هكذا الهدهد يا أستاذ. لا أحد كان يقصد.

تقدم بالهدهد يضعه على الأرض جانب سور الفيلّا حيث الأشجار يمكن أن تمنع عنه الأمطار إذا سقطت. كان يشعر بنبضه حنونا على يديه. سوف يقدم له الماء والطعام حتى يتعافى هنا. قال لنفسه صامتا. لكن صوت شادية كان يرتفع من الترانزستور بأغنية ثانية:

«ذكريات وابتدت بيك ذكرياتي

إنت إحساسي بوجودي

ومن غيرك انت يبقي إيه

يا للي من غيرك حياتي

حياتي يعني كنت حاعيشها ليه.

يا اللي نور الدنيا كله في ابتسامتك»

أخذته من الغضب إلى الأسى فتقدم ناحية الراديو بهدوء وأغلقه.

ما إن جلس في مكانه حتى سمع صوت عبد الحليم حافظ يأتي أيضا من أعلى. لقد تعود أن يترك الراديو أعلى مفتوحا على محطة البرنامج الموسيقي حيث الموسيقى الكلاسيكية طول الوقت وموسيقى خفيفة. الموسيقى العربية في مواعيد معينة يعرفها. ليس هذا هو موعدها الآن. إنها تبدأ في الحادية عشر صباحا. الساعة الآن الثالثة. لكن هذا هو صوت عبد الحليم حافظ يأتي من أعلى.

«مشيت مشيت على الأشواك

وجيت لأحبابك.

لاعرفوا إيه ودّاك

ولاعرفوا إيه جابك»

وبينما هو في ذهوله قال له العامل:

- حضرتك قفلت الراديو لكن الأغاني تأتي من الدور الثاني. العمال مبسوطين من عبد الحليم حافظ. هل هناك أحد في الدور الثاني يا بيه يسمع الراديو؟

نظر إليه ذاهلا وقام متقدما إلى الباب يفكر في الصعود:

- لا تستطيع الصعود الآن يا بيه.

وقف أمام الباب وعيناه تتسعان وصوت عبد الحليم يأتي حزينا

«حتى في أحضان الحبايب

شوك شوك يا قلبي»

قال العامل:

- عشر دقائق وسننتهي من الجزء الصغير أمام السلم وتصعد. هل تريد شيئا من أعلى؟

ارتبك سامر للحظة ثم قال:

- لا.

لقد أدرك أنه أغلق الباب المؤدي للدور الثاني أعلى السلم وتنفس بارتياح. لكنه أيضا أدرك أنه لا يطفئ الراديو. يتركه مشتعلا تأتي منه الموسيقى طول النهار والليل لكن الصوت لايصل إلى أسفل. يجعله هامسا كضوء شفيف. لا يرفع الصوت إلا حين يتركها ليشتري شيئا،

حتى إذا مرّ أحد ما يسمعه من بعيد ويدرك أن المكان مأهول. هو يخشى هـذا الفراغ الذي قد يكون فرصة للصوص. كيف إذن يأتي الصوت ومن أين؟ لكن العامل قال:

- غريبة. عبد الحليم توقف. المحطة تغيرت. هذه موسيقى أجنبية.

هز رأسه وقال:

- هناك راديو أتركه مفتوحا دائما.

عـاد إلـى مكانـه يفكر أنه فيمـا يبدو لم يعـد يدرك مواعيد بـث الغناء العربـي ولا متى يرفـع صوت الراديو أو يخفضه. قال لنفسـه «متى ينتهي هذا العمل اليوم».

الآن لـن يدخـل حمام الـدورالأول. لقد رفـع العمال أرضـه ورفعوا أدواتـه. البانيـو والحوض والقاعـدة والبيديـه والحنفيات، لكـن لم يعد الحمام مناسـبا. انخفاض سـقفه جعـل حجمه صغيرا يعطيه الإحسـاس بالضيـق. هـو لن يجرب مافيـه إلا في الغد كمـا قالوا له، لكنـه يعرف أنه سيشـعر بالضيق ومِن ثَمَّ لن يدخله. لا تزال الصالة الكبيرة بالدور الأول تعطيـه القـدرة علـى التحمـل لاتسـاعها. الغرفتـان الملحقتان بهـا أيضا لاتـزالان كبيرتين. حين حضر السـائق عثمان في الصبـاح ورأى العمال وقف يقول:

- ماذا يفعل هؤلاء هنا؟

ابتسم سامر وقال:

- لا عليك. بعض التصليحات.

لم يشأ أن يشرح له أي شيء لكن عثمان قال:

- أنا أعرف. لست أول من يفعل ذلك. لقد ارتفعت المياه في الفيلاَّ. صح يا باشا؟

- صح.

هز عثمان رأسه وقال:

- والله حضرتك صعبان عليا. كل من فعلوا ذلك لم ينجحوا. الناس طفشت يا باشا من العجمي. الناس الراقية مثل حضرتك. كله طلع على الساحل الشمالي. مارينا والقرية الدبلوماسية وغيرها. صحيح لماذا ليس لحضرتك فيلا في مارينا؟

ابتسم وقال:

- اذهب أنت الآن ولا تشغل بالك بي. اشتر لي غدا بعض الجبن والفاكهة مع الصحف.

- حضرتك تعيش على الجبن فقط! وأنا أقول حضرتك خسيت أوي ليه؟ يا باشا أنا حاولت اصطاد سمك لك وحصل ما حصل. أشتري لك سمك. ما رأيك؟

- حين أحتاج للسمك سأخبرك. اشترِ لأسرتك أيضا سمكا على حسابي.

وقدم له النقود فأخذها عثمان وقال:

- لكن أنا لازم أردها لحضرتك واصطاد. ثم إنني لن أتنازل عن حقي في اصطياد السمكة المجرمة التي كادت تغرقني.

ابتسم سامر وانصرف عثمان.

فكر في ذلك في المساء وهو يغير كيس البول الذي امتلأ. لابد أن تستحم ريم. مضى أسبوع لم يفعل ذلك. معذرة حبيبتي تأخرت عليك.

تردد وهو جالس أمامها ينظر إليها في إشفاق. هل سيرى جسدها عاريا من جديد؟ هل سيرى اللحم وقد فقد تماسكه وتهدل وفقد كثيرا من دهونه وكادت تظهر أضلاع صدرها وظهرها. ليس أمامه إلا أن يفعل ويرى. بعد ذلك سينزل إلى الدور الأول ويمضي الليلة في شيء من العزف.

يسمع الآن أصواتا مبهمة في الخارج. صوت سيارة تقف. أرهف السمع فسمع من يقول:

- لابد أن بها أحدا. لنسأله. وربما يكونون هم هنا.

- لو هم لن يضيئوا النور. على أى حال الطرق الباب لنعرف من في الداخل.

سمع طرقات على الباب. نظر من العين السحرية فرأى ضابط بوليس شاب. فتح الباب فوجد حول الضابط جنديين. وقال:

- أهلا وسهلا. خيرا.

سأله الضابط الشاب:

- حضرتك تسكن هنا؟

- أنا جئت في إجازة بعض الوقت. أنا رجل الأعمال سامر الريدي.

- آسف جدا يا افندم لكن كان لابد أن نسألك. لدينا أخبار سيئة عن عصابة تخطف الأطفال وتبيع أعضاءهم لبعض المستشفيات الخاصة. التحريات تقول إن أحدهم ظهر هنا. ألم ترَ أحدا بالنهار؟

- لا

- طيب. لا تؤاخذنا. من يأتي إليك؟

- لا أحد.

ارتبك الضابط لحظة ثم سأله:

- هل تعيش هنا؟

- قلت لك إني في إجازة لبعض الوقت. أنا أعيش في القاهرة.

- آسف. هل أنت وحدك؟ أرجوك أن تقدر مهمتنا.

تردد قليلا وقال:

- معي زوجتي نائمة أعلى الآن. لا أحد غيرنا.

سكت الضابط قليلا وقال:

- طيب هل ستبقيان طويلا؟

- لا أظن.

أخرج الضابط من جيبه كارتًا صغيرًا وقال:

- طيب. أرجوك إذا رأيت شيئا مريبا حولك أن تساعدنا وتتصل بي في هذا الرقم أو بقسم بوليس العجمي. لمصلحة حضرتك لأنهم قد يكونون لصوصا أيضا.

تناول منه الكارت مبتسما وقال:

- حاضر.

انصرف الضابط وتذكر هو الهدهد الصغير الذي تركه على الأرض أمام السور. كيف نسيه كل هذا الوقت؟

بدأ مطر خفيف يهطل وفي السماء لم يكن أي نجوم ولا حتى قمر. سحب سوداء كثيفة. لابد أن المطر سيكون كثيفا الليلة.

حمل الهدهد بين يديه ودخل إلى الصالة الكبيرة فوضعه على الأرض في أحد أركانها ثم فكر أي طعام يمكن أن يضعه له. ليس لديه حبوب من أي نوع. دخل إلى المطبخ وعاد يحمل قطعا صغيرة من الخبز فتتها إلى أقصى ما يمكن ووضعها على ورقة جرنال ووضع الهدهد عليها بعد أن بللها كلها بالماء. هل هكذا سيأكل الهدهد؟ غدا لابد أن يشتري حبوبا.

أغلق الباب وصعد ليقوم بتنظيف جسم لريم. لم ينسَ أن ينظر فوقه قبل أن يصعد. لا يزال هناك ربع متر الآن بينه وبين السقف. هناك إذن إمكانية للبقاء. لكنه وجد نفسه ينظر إلى الهدهد الصغير فوجده لدهشته ينظر إليه.

9

الفضاء من حوله أبيض والشمس عالية والسماء بعيدة لكنه لمح سحابة سوداء تأتي من أقصى الغرب فبدت له إنذارا بما سيأتي بعدها من السحب.

رأى ذلك في الصباح وهو جالس يشرب القهوة في الباحة أمام الباب وأمامه منضدة من البلاستيك يتركها دائما في مكانها منذ أن جاء. في ركن من الحديقة حجرة مغلقة تستخدم كمخزن بها مناضد ومقاعد بلاستيكية قوية تستخدم في الجلوس في الخارج لسهولة نقلها.

نظر إلى الهدهد الصغير الذي أعاده جوار الجدار لينعم مثله بالشمس ووضع أمامه قليلا من الحبوب التي اشتراها بسرعة دون أن ينتظر حضور السائق عثمان، واشترى معها عددا من اللمبات الكهربية ليضعها على سور الحديقة.

كان اللاب توب أمامه على المنضدة ولم يفتحه بعد إذ أرجأ الدخول على صفحة ابنته نور في الفيس بوك حتى يتناول إفطاره الذي سيأتي به السائق عثمان.

قرر أن ينهض ليرى ماذا يفعل الجنايني الشاب في الحديقة من الخلف، لكنه وجد نفسه قد فتح صفحة الفيس بوك الخاصة بابنته نور.

«بابا كان يكتب لي ويحدثني كل يوم لكنه أمس لم يفعل ذلك. أرسلت له إيميلًا وأرسلت له رسالة على الموبايل لكنه لم يرد. أنا قلقانة على ماما أوي».

انتبه إلى أنه انشغل حقا بتغيير أرضية الدور الأول للمرة الثانية وانشغل الليل بالجلوس أمام ريم والعناية بها. كيف حقا لم ينتبه إلى رسائل ابنته نور؟ لابد أن ينتبه. بسرعة كتب:

«حبيبتي كنت مشغولا جدا بالأمس في أعمالي. ماما بخير».

رأى تعليقات كثيرة لكن التعليق الثاني لفت انتباهه إذ أمامه على يمين التعليق صورة غادة. قرأ التعليق:

«نحن أيضا قلقون جدا على العظيمة مامتك وبابا لا يكلمنا مش عارفة ليه».

اندفع إلى الداخل يحضر الموبايل فاكتشف أنه في الخارج على المنضدة أمامه. عاد إليه فدق في يده. كاد يفتحه لكن عينيه وقعتا على الرقم. تركه يدق. لم يرد. مازالت غادة لم تيأس. مط شفتيه وبعد أن انتهت دقات الموبايل طلب ابنته. لم ترد. لابد أنها في الجامعة أو في الطريق إليها. لم يكتف بما كتبه على صفحتها. أرسل لها رسالة أخرى لكن بالموبايل:

« انشغلت أمس بأعمالي. ماما بألف خير».

وضع الموبايل مكانه على المنضدة. نهض يمشي بهدوء متجها إلى الحديقة الخلفية.

لماذا لا تكف غادة عن طلبه؟ تعرف أن الطريق أمامها مسدود منذ زمن بعيد ورغم ذلك لا تكف عن المطاردة، وأخيرا ظهرت على صفحة الفيس بوك لابنته. كيف يبعدها الآن وهو لايريد أن يتبادل معها أي حديث؟

رأى الجنايني الشاب معه المقص الطويل والسلم الصغير يقف عليه يهذب الأشجار. لقد اتصل أمس بأبيه الجنايني الذي كان يستعين به دائما فردّت الأم. أخبرته بهدوء أن الأب قد فارق الحياة. أبدى لها أسفه وظلت دهشته تعلو وجهه. ولأنه يعرف أن ابنها يقوم بنفس مهنته سألها إذا كان يمكن أن يفعل ذلك فقالت نعم. وبالصدفة كان الابن موجودا فحدثه وأخبره أنه بانتظاره اليوم.

رآه الجنايني الشاب فسأله وهو في مكانه فوق السلم:

- هل حضرتك وحدك هنا؟

نظر إليه مبتسما ابتسامة صغيرة فقال الجنايني الشاب:

- دائما المدام هي التي كانت تشرف على عملنا.

- المدام موجودة لكن مريضة بعض الشيء. نوبة برد ولا تستطيع الخروج. الجو بارد كما ترى.

- شفاها الله.

قال الجنايني الشاب ذلك وسكت لحظة ثم نزل من فوق السلم ووقف يقول:

- حضرتك أحضرت لي لمبات كهربية ووضعتها مكان القديمة أعلى السور، وحضرتك تقريبا الوحيد الذي طلب تنسيق الأشجار. الناس كلها هجرت المكان.

- للأسف.

- والمحافظة كأنها لا ترى ماذا يحدث في العجمي.

- لابد سينتبهون. الخسارة كبيرة.

- لا أظن. إنهم يريدون الناس تهرب إلى الساحل الشمالي. يبيعون الفلل والشقق هناك بالملايين.

انتبه إلى ما يقول وانفتحت عيناه دهشة ثم قال:

- أكيد طبعا هناك إهمال. لكن لا أظن أن السبب هو ما تقول. الذي يبيع الفلل والشقق في الساحل شركات خاصة وليست الدولة.

- يا باشا كله منفد على بعضه!

ضحك. فقال الجنايني الشاب:

- لكن وجودك هنا خطر وحدك مع المدام.

- لا تقلق.

- على أي حال لو احتجتم أي شيء أنا في الخدمة. والدي كان دايما يشكر في حضرتك وفي الهانم ربنا يشفيها. وأنا أيضا رأيت بنفسي معاملتكم الحلوة.

- أشكرك.

ترك الجنايني وراح يمشي قليلا على النجيل الشاحب والمنحول والذي مال إلى الاصفرار في كثير من الأماكن. أحس بالماء في بعض البقع الخالية من النجيل قد صنع مع تراب الأرض وحلا لكنه لا يزال متماسكا لا يتسبب في التزحلق ويمكن المشي عليه. المياه الجوفية تعلو هنا أيضا لكن ليست بالقوة التي تعلو بها في البيت. اندهش. ماذا يحدث لو صارت الحديقة بركة مياه. هل سيكسوها بالسيراميك أيضا؟ ابتسم ساخرا ومشى حتى وصل إلى السور الخلفي للفيلا ووقف ينظر إليه. الحجر الأبيض جميل أعطته الأمطار شيئا من الشحوب لكن أسفله تعلو المياه صانعة على سطح الحجر مساحة من السواد. لقد نقل العمال ماخرج من الأرض إلى هنا ووزعوه لمسافة قليلة بعرض السور حول الفيلَّا لكن يبدو أن هذا لا يكفي. أحس بالجنايني الشاب يقترب منه. التفت فقال الجنايني:

- كنت أريد أن أحدث حضرتك في هذه المسألة.

- خروج الماء من هنا؟

- بالضبط.

- ما رأيك؟

- واضح أن هنا أضعف مكان في البيت. أكيد الحمام خلفها.

- بالضبط. لا أستخدم هذا الحمام الآن. أستخدم العلوي فقط.

- لكن ستظل نقطة الضعف. الأفضل عمل مجرى للماء من تحت أو من بين البناء يمشي حتى مسافة قريبة ونحفر بئرا تصب فيه المياه وكلما ارتفعت جئنا بعربة الرفع كما نفعل بالبئر الخاص بالمجاري أمام الفيلا. أليس الصرف عليه هناك؟

- بالضبط.

- هنا سيكون ماء جوفي فقط.

نظر إلى الشاب مندهشا ثم ابتسم وقال:

- فكرة لا بأس بها لكنها لن تمنع الأذى. الحل هو أن تقوم المحافظة بعمل مجاري في المنطقة كلها تنزل إليها مياه الأمطار فضلا عن الصرف الناتج عن استخدام السكان.

- لكن لايوجد سكان هنا الآن؟

- لقد تشبعت الأرض وساعد ذلك على صعود المياه الجوفية. ومادامت عرفت طريقها فلا أمل إلا بالمجاري العمومية ويعود كل شيء إلى حاله مع الوقت. يقال إن المحافظة ستفعل ذلك قريبا.

- على أي حال ما قلته لحضرتك فعلناه مع إحدى الفلل بالناحية الأخرى من الهانوفيل. المشكلة هناك عويصة جدا لأن العمارات كثيرة وكلها تصرف في الأرض عن طريق الآبار أيضا.

- وماذا حدث للفيلا بعد ذلك؟

- لا أعرف. لكن للأسف صاحبها هجرها؟

ابتسم وهو ينظر إلى الجدار يفكر في الفنان النوبي الذي سيأتي غدا. لقد طلب ذلك من مدير أعماله في القاهرة. سره الوحيد حتى الآن. تخيل الرسوم النوبية المبهرة الألوان التي ستجعل جدران الفيلا صيحة بهجة تحت سماء الشتاء، ومشى عائدا إلى الباحة أمام الباب. يعرف أنه لا معنى لأي شيء لكن لابد أن يحتفل بالحياة. لقد سمع صوت سارينة سيارة لابد أنها تاكسي عثمان. قال الجنايني الشاب ضاحكا:

- لايزال هناك من يمر من هنا.

واصل هو طريقه باسما فرأى السائق عثمان وقد نزل من التاكسي يضع ماحمله من صحف وطعام على المنضدة. ما إن رآه عثمان حتى قال:

- الله.. يوم حلو أوي. كأننا في الخريف. يا سلام لو توافق حضرتك نطلع على البحر نصطاد سوا. أكيد المرة دي ربنا حيرزقنا.

- تريد أن تقع في الماء مرة ثانية؟

- على رأيك يا أستاذ. أنا حتى الآن لا أصدق أنها كانت سمكة.

- أجلس تناول الإفطار معي.

- أنا فعلا أريد أن آكل مع حضرتك حتى أقول إني فزت بهذا الشرف.

ابتسم وربّت على كتفه فقال عثمان:

- ليتك تبقى هنا وأنا سأعد كل شيء في المطبخ. أحضرت الجبن الذي تريد والخبز والفاكهة. لم أحضر السمك لأن الوقت مبكر. بعد الظهر سأحضره لك. المهم أني أضفت إليه فول وفلافل. ما رأي حضرتك؟

- لا بأس.

- بصراحة أحضرت الفول والفلافل لأني كنت نويت فعلا أفطر معاك.

- يشرفني يا عثمان.

- سأدخل إلى المطبخ أضع ما اشتريت في الثلاجة وأحضر ما يكفينا.

نظر سامر إليه ثم قال:

- اترك ذلك لي وإذا أردت الدخول معي فتعال لتحمل الأطباق.

اندهش عثمان للحظة. وبعد أن فعلا ذلك وجلسا أمام الطعام قال عثمان في خجل:

- حضرتك تشك فيَّ؟

- لماذا تقول ذلك؟

- لأن حضرتك رفضت أدخل الفيلَّا وأنت هنا.

ابتسم وقال:

- لا طبعا. لكن. لا أعرف لماذا قلت ذلك.

سكت عثمان قليلا ثم قال متأثرا:

- حضرتك خشيت أن أرى المدام! أنا لايمكن أن أدخل مكانا لم تأمرني بالدخول إليه.

لم يرد سامر للحظة ثم قال:

- دعنا نتناول الإفطار الجميل.

قال عثمان في خجل هذه المرة:

- أنا آسف إذا كنت أزعجت حضرتك بالكلام.

هز سامر رأسه وابتسم فقال عثمان:

- لكن ماذا فعل عمال السيراميك. لقد شعرت بالسقف قريبا من رأسي. إلى هذا الحد رفعوا الأرض؟

- للأسف لم يكن أمامهم غير ذلك.

ابتسم عثمان فسأله سامر:

- لماذا تبتسم؟

- تذكرت أخي.

- أخوك كان يعمل بالسيراميك؟

- لا أخي موظف في شركة الترسانة البحرية بالورديان. كان يسكن في الهانوفيل في إحدى الفلل الصغيرة التي أجرها صاحبها لسفره للخارج. فيلا صغيرة بلاحديقة. حدث له ما حدث هنا.

- أيضا رفع الأرض وانخفض السقف.

- ليت ذلك فقط. أخي ظل خمس سنوات يرفع الأرض كل سنة مرة أو مرتين. زوجته لم تكن تصدق أبدا أن ذلك بسبب المياه الجوفية. رأت كل الناس تترك المكان حولها ولا تصدق. أخي مجنون كان مصمما على البقاء. تقول له إن الفيلّا مسكونة بالجن وهو لا يهتم طبعا. طلبت

أن يتركوا الشقة أكثر من مرة وهو يصر على البقاء. في النهاية لم يعد هناك دور ثان ولا سلم داخلي.

ضحك سامر فقال عثمان:

- هذا عادي طبعا. غير العادي أنه أتى مرة من الخارج فوجد زوجته وقد فتحت التليفزيون أمامها والأولاد يذاكرون في غرفتهم. ما إن رأت أخي حتى قالت له «هذا المذيع يعاكسني. كل شوية يقطع النشرة ويطلب مني أقابله».

لم يستطع سامر أن يمنع نفسه عن الضحك واستمر عثمان:

- بعد ذلك ذهبت زوجته وحررت محضرا في قسم البوليس للمذيع. لكن أمين شرطة هناك كان يعرف أخي. هو جارنا في حي الورديان. جاء إليه وقال له ماجرى، وكيف سخر الضابط منها وكاد يرسلها إلى مستشفى الخانكة في المعمورة، وطلب من أخي أن يحترس منها.

- إلى هذا الحد؟

- للأسف طلقها أخي ويعيش هو وولداه الآن معنا في بيت العائلة.

- وأين ذهبت هي؟

- لا أحد يعرف.

صار سامر موزعا بين الرغبة في الضحك والرغبة في الأسى. في النهاية ابتسم وقال:

- أنا متأكد أن أخاك سبب جنونها.

- كلنا قلنا هذا. لكن هذا ما حدث.

ظللهما الصمت قليلا ثم قال عثمان:

- نـاس كتير هجرت المكان طبعا لكن أيضا ناس كتير تطلقت أو جننت. آه والله.

عادا إلى الصمت من جديد. لكن سامر أحس برغبة أقوى في الضحك فانطلق يضحك وعثمان ينظر إليه سعيدا ثم قال:

- الحمـد لله جعلتك تضحك. يا رب تضحك دائما. حضرتك شـخص عظيم فعلا.

وطالـت نظرته لسـامر الذي شـكره ودخـل الباحة فجـأة هدهد كبير وقف على الشجرة المقابلة للسور فهتف عثمان:

- الله. هدهد.

لكـن سـامر كان يشـعر بنظـرات الهدهـد الكبيـر إلـى الأرض ناحية الهدهـد الصغيـر، ثم فجـأة طار الهدهـد الكبير وحط علـى الأرض أمام الهدهد الصغير ثم راح يطير ويحط حوله وأمامه.

- ماهذا؟

تساءل عثمان هاتفا فقال سامر:

- الهدهد الصغير المصاب وهدهد كبير رآه.

- غريبة جدا!

طار الهدهد الكبير إلى الشجرة من جديد ثم نزل بسرعة إلى الهدهد الصغير مرة أخرى وعثمان في دهشته يقول:

- يشجعه على الطيران. تصور حضرتك!

- للأسف لن يستطيع.

- لكن من أين أتيت بالهدهد الصغير؟

حكى له سامر ماحدث فقال عثمان:

- يا الله. لابد أن هذا الهدهد هو أمه كانت تبحث عنه حتى وجدته.

اندهش سامر للحظة ثم قال:

- يمكن طبعا.

ثم بدا كمن انتبه إلى شيء فقال:

- نسينا نقدم الإفطار للجنايني.

تساءل عثمان:

- هل يوجد جنايني هنا اليوم؟

- أجل في الخلف ينسق الحديقة.

نظر إليه عثمان في دهشة وقال هاتفا:

- إذن المدام صارت بخير. صح؟

ابتسم سامر وقال:

- الحمد لله.

- وحضرتك ستبقى هنا وقتا طويلا معها. نقاهة يعني. صح؟

- إن شاء الله.

وانشغل بالطعام وهو يقول:

- بعد أن ننتهي احمل إليه طعامه.

حل الصمت على الاثنين معا لحظات طويلة يأكلان والهدهد بين حين وآخر يصعد إلى الشجرة وينزل منها إلى الهدهد الصغير ثم رف بجناحيه بقوة وغادر المكان مسرعا فقال عثمان ضاحكا:

- لابد سيحضر العائلة كلها للنجدة.

ابتسم سامر وظهر الجنايني قادما مسرعا يقول:

- يا سعادة الباشا أنا سمعت صوت صريخ من الدور التاني.

ترك سامر مكانه وأسرع داخلا الفيلّا صاعدا السلم. وقف أمام ريم التي رآها على حالها. علت الدهشة وجهه. لايصدق ما قاله الجنايني ولا يصدق ما يراه. لا شيء تغير حولها ولا فيها. من أين جاء الصوت إذن؟ لو رآها تصرخ حقا. وانهار جالسا على أقرب مقعد واضعا رأسه بين يديه.

عشر دقائق تقريبا استجمع فيها نفسه ثم نزل من جديد. وجد الجنايني قد ترك الباحة أمام الباب وعاد إلى الحديقة، ووجد عثمان جالسا في صمت ورهبة:

- خير يا أستاذ!

لم يرد سامر فقال عثمان وهو يقف:

- طيب هل حضرتك تريد مني شيئا؟

لكن التليفون دق فأمسكه سامر بسرعة متصورا أنها ابنته لكنه وجد نفس الرقم الخاص بغادة. تركه مكانه فقال السائق في إشفاق:

- لابد يا أستاذ أن تخرج من العزلة. لابد من امرأة تساعدك. الممرضات كثيرات جدا. وحضرتك قادر ومقتدر. لماذا تفعل بنفسك ذلك؟ لازم تنظر إلى المرآة يا أستاذ. حضرتك فقدت كثيرا من وزنك وصرت شاحبا وتركت ذقنك تطول دون أي عناية. حرام ما تفعله بنفسك.

لم يرد سامر. ماذا يقول له. كيف له أن يدرك معنى أنه يريد أن يكون مع حبيبته لأن وجوده معها يمنع موتها أو يؤجله! هل سيفهم السائق ذلك؟ هل سيفهمه أحد؟ هي تشعر به فتصدر بين الحين والحين صوت استغاثة حتى لو لم يسمعه هو، تعلن به بقاءها، وأنها لاتريد أن تفارقه أيضا كما لايريد أن يفارقها. ماذا سيفعل الله أمام المحبين إلا الاستجابة!

10

حين خرج في صباح اليوم التالي إلى السائق عثمان يتسلم منه الصحف وجده ينظر إلى الأرض في فزع. نظر فرأى الهدهد الصغير ملقى تحت الشجرة بعيدا عن الماء والقمح. ما إن رآه عثمان حتى هتف مضطربا:

- لم أكن أقصد يا أستاذ. وجدته جوار جدار الفيلّا ورأيت هدهدا كبيرا ينظر إليه من فوق الشجرة. تماما مثل أمس. قلت لنفسي ما الذي يمنع أن أضعه فوق الشجرة فيكون قريبا من أهله. عقدت غصنين إلى بعضهما ووضعته بينهما وعدت لأحمل القمح أنثره على أوراق الغصنين. انفك الغصنان عن بعضهما قبل أن أفعل ذلك وسقط الهدهد من بينهما على الأرض.

وقف هو لا يتكلم. الضيق على وجهه وإن كان يفكر أن هذه هي النهاية الطبيعية للهدهد وأنه كان سيموت اليوم أو غدا.

قال عثمان في ارتباك:

- لقد صرخ الهدهد الكبير وطار بعيدا. سمعت صوته. أول مرة أسمع صوت هدهد.

قال في هدوء:

- لا عليك؟ انقله بعيدا عن هنا.

تناول عثمان الهدهد وهو لا يزال مرتبكا ثم نظر إليه وقال:

- لا تزعل مني. كنت ستموت في أي وقت.

ومشى بالهدهد بعيدا ثم عاد يقول:

- وضعته وسط كوم الزبالة البعيد.

وأشار إلى الصحف التي وضعها على المنضدة الخشبية فهز سامر رأسه. تراجع عثمان بسرعة وركب التاكسي وانصرف.

جلس هو يتصفح الصحف لكنه لم يستطع أن يستمر. سمع قريبا صوت رفيف أجنحة فنظر حيث يأتي الصوت فرأى عددا من الهداهد تطير فوق كوم الزبالة البعيد ولا تتوقف عن الطيران. ماذا فعلت يا عثمان؟

أخذ الصحف ودخل إلى الفيلا. جلس مندهشا كيف عرفت الهداهد ما جرى وكيف عرفت بمكان الهدهد الميت.

أحس أنه في حاجة للخروج إلى الشاطئ. أو إلى شارع البيطاش يجلس بمقهى قليلا. يرى الناس تتحرك حوله والحياة تمضي لا تقف من أجل أحد. يختار مقهى البدوية لأن فرصة أن يقابله فيها أحد يعرفه قليلة. عليه أولا أن يفعل ما أجّله من الأمس. أن يقص أظافر يديها

وقدميها. أن يزيل الشعر الذي طال تحت إبطيها. لكنه نزل بسرعة آخذا سيارته إلى البيطاش.

لم يجلس بالمقهى. اقترب من محل كوافير حريمي. دخله. رآه خاليا لم يبدأ العمل بعد. وقف أمام الشاب الذي أطلق شعره خلفه في ضفائر طويلة مجعدة ويقوم بإعداد المكان للاستقبال.

- أهلا. تحت أمرك.

قال الشاب مبتسما فقال هو:

- آسف. دخلت غلط.

وانصرف مسرعا إلى مقهى البدوية. كانت بدورها قد فتحت أبوابها منذ قليل ولا يجلس بها غير امرأة سمينة ترتدي تايير قصيرا يكشف عن أسفل ساقيها ولحمها يكاد يقفز من كل مكان تحت التايير. على وجهها كانت مساحيق كثيرة وتدخن الشيشة وحولها رجلان يبدوان مطيعين كخادمين لها. يضحكان إذا ابتسمت ويتجهمان إذا أغمضت عينيها وبدت شاردة. شرب قهوة وهو يفكر كيف حقا أراد أن يأتي من محل الكوافير بفتاة تقوم بعمل «الباديكير» لها؟ لقد أدرك في اللحظة الأخيرة أنها إذا رأت زوجته ستخرج وتتحدث عن ذلك. هذا إذا لم يشملها الخوف وتنصرف مسرعة. كان يود أن تفعل فتاة متخصصة ذلك كما تعودت ريم. أن تطلي بعد ذلك أظافرها باللون الذي تحبه. الأحمر أو الأزرق

أو الموف وأن تخلط بين الألوان أحيانا كما كانت تفعل ريم. كيف حقا لم يفعل ذلك من قبل؟ كانت الممرضات في المستشفى تفعلن ذلك لكن بلا طلاء. فليفعله هو وليبق بعيدا عن كل البشر.

في اللحظة التي قرر فيها أن يغادر المقهى سقطت أمطار مفاجئة. كانت من القوة حتى أنها جعلت الرجلين اللذين مع المرأة ينهضان مسرعين يخرجان إلى باب المقهى يتفرجان. صاح أحدهما مندهشا:

- ثلج. ثلج.

كان «بَرَد» شديد يسقط من السحب يصطدم بالأرض ويتقافز عليها حتى يهدأ. سمعت أصوات الرعد مرعبة يسبقها برق يلمع تحت السماء. لابد أن يغادر بسرعة. دفع ثمن القهوة وأسرع داخلا في سيارته الواقفة أمام الباب ثم انطلق بها. لم يكن يستطيع أن يستمر مسرعا. سيدخل بين العمارات التي حلت محل الفلل ثم بين الفلل المهجورة بعد ذلك ويمشي مضطرا على مهل. كم من الوقت سيستمر هذا المطر وهذا البرق وهذا الرعد؟ هل يمكن أن تشعر به؟ ربما. وتصرخ أن تقف لتتفرج عليه من خلف النافذة. لكنه أبطأ من سرعة سيارته بسبب المطر وإدراكه لحماقة ما يفكر فيه. هل يستجيب الكون إلى المنى التي تتجاوز قدرته؟

اقترب من الفلل في النهاية وقد انقطع «البَرَد» الساقط من السحب وتوقف المطر والرعد والبرق. وهو يترك السيارة رأى بعيدا فوق كوم الزبالة القديمة التي لا يحملها أحد عددا من الهداهد لاتزال ترف حول الهدهد الميت. صارت قليلة الآن عن ذي قبل. طار أحدها بسرعة ناحيته

ووقف أعلى شجرة ووجهه يتجه إليه ورأسه وعرفه يهتزان أكثر من مرة ثم طار بسرعة مبتعدا. هز رأسه يفكر أنه لابد يسبه أو يعتب عليه. يدينه. لكنه دخل إلى الفيلّا وصعد إلى الدور الثاني. كل شيء على حاله فليقم بعمله.

- ريم ريم.

قال ذلك ينظر إلى وجهها وقد أحس بها تهتز قليلا حين توغل المقص تحت ظفر إصبع من أصابع يدها وكاد يقص لحمها. لم ترد عليه فأكمل صامتا.

ما الذي يمنعه أن يرد على تليفونات غادة؟ سوف تأتي مسرعة إليه. سوف تعمل جاهدة على راحته ولن تستنكف أن تعمل بيدها. حتى إذا جاءت بممرضة يمكن أن تنشغل الممرضة بريم وتخفف هي عنه أحماله النفسية. تأخذ شيئا ولو مؤقتا من حزنه.

مضى أكثر من شهر الآن وهو لا يشعر بالوحدة. لكنه شعر بها اليوم فجأة. لقد نظر إلى الحديقة التي تم تنسيقها على الطريقة الفرنسية. ونظر إلى الرسومات النوبية المبهجة. عناق الألوان البكر. الأحمر والأبيض والأزرق والأسود وما بينها من ألوان. الأخضر والأصفر والقرمزي والبرتقالي. الوجوه السوداء والعيون الواسعة والرموش الطويلة للنساء. الوجوه السوداء والضحكة التي لاتفارقها والعمامة النوبية للرجال.

التماسيح التي تدرأ الشر والشياطين والطيور البرية طويلة السيقان والأسماك المعلقة في الهواء. موكب الحج والمحمل فوق الجمال. الولاد الصغار والبنات يقفزون في الهواء ورجال يمارسن التحطيب ونساء يملأن القلل والأزيار بالماء والحناء على الكفوف والأقدام. صارت الجدران كلها متفائلة مستبشرة مبهجة زاهية تتطلع إلى الربيع القادم وتريده ألا يفارق الدنيا. النوبة التي تحبها ريم رغم أنها لم تذهب هناك غير مرة واحدة. هل ستذهب إليها مرة أخرى؟ النوبة التي تتذكرها دائما حين يزوران الرباط في المغرب ويصعدان إلى الشاطئ والبيوت القديمة بحي «أودايا» على المحيط الأطلسي. رغم أن في الرباط بحر وفي النوبة نيل. رغم أن الرباط في الأعالي والنوبة في الجنوب. إنها البيوت الصغيرة المعلقة وألوانها الصادحة بالفرح. الألوان وهي تهتف بوجودها قبل أن يراها البشر!

حين رأى هذا كله أحس بجمال الدنيا، لكنه أيضا أحس أن هذا الجمال ينقصه من يراه. ولم يكن يستحق أن يراه غير ريم. وارتفع في روحه الإحساس بالوحدة والضجر.

لقد أمضى الفنان النوبي الشاب أسبوعا شغله كثيرا، وأخرجه كثيرا من الهم. لكن كل ما انزاح عنه من حزن يعود اليوم مجتمعا في هذه اللحظة. يتذكر دهشة السائق عثمان وهو ينقل الفنان النوبي كل يوم إلى الفندق في البيطاش، وحديثه إليه بعد أن يأتي بالفنان في الصباح.

- حضرتك ناوي تأجر الفيلّا لحد نوبي؟

- لماذا؟

- لأن الرسوم نوبية والفنان نوبي وحضرتك لن تبقى طويلا هنا.

يبتسم:

- إنها الرسوم التي تحبها زوجتي. لقد وعدتها بها.

يسكت السائق حائرا. يعرف سبب حيرته. لابد يريد أن يسأله كيف وقد بدا أنها شفت من المرض من قبل لم تظهر أبدا. يتركه في حيرته. لا يستطيع أن يقول لأحد إنها تزوي بشكل لم يتوقعه. بدت له كأنها لا تريد المحاليل ولا أي شيء مركب في جسدها. بدت له قد ذهبت. هل أفاقت من الغيبوبة دون أن يدري وأدركت ماهي فيه فقررت الرحيل؟ لن تتأخر أن تفعل ذلك إذا استيقظت وأدركت. لن تنتظر النهاية. ستذهب إليها. يعرف كبرياءها.

أطال النظر إلى شفتيها وقال في نفسه لو تتحدثين مرة. لقد قال لي الجنايني من قبل إنه سمع صوت صراخ من الدور الثاني. وحين صعدت وجدت شفتيك على حالهما مزمومتين. أحضرت الطبيب الشاب بلا سبب واضح لي وسألته عن الصوت الجديد الذي بدأ يعلو من أنفاسك فقال لي إنه من الأنف. كيف فاتني ذلك. شفتاك مزمومتان أكثر الوقت. لولا أني أسمع الأنفاس لتصورت الوفاة. الأنفاس تعني الأمل الذي لا يعرفه إلا أنا. وأنا رأيت نفسي اليوم في المرآة. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أرى نفسي في المرآة. كل يوم أفعل ذلك وأنا أمشط شعري أو أحلق

ذقنـي التـي صرت حريصا علـى حلاقتها منذ قال لي السـائقإنني تركتها وطالت دون عناية. لا أريد أي إشـارة إلى همي. رأيت نفسـي قد تغيرت بحـق. صرت أكثر نحافة عـن ذي قبل. أكثر اصفرار الوجه. أكثر شـرودا أمـام المـرآة في شـيء لا أعرفه. لكن لـن أتصل بغـادة. لا يمكن أن يراك أحـد غيري فـي محنتي! هذا عهد وقـرار اتخذته. سـأتركك إذن وأذهب مع السائق عثمان غدا في الصباح إلى الشاطئ نصطاد السمك لن يطول الوقت. سـيحضر في السـاعة العاشـرة. سـأمضي الليلة هنا جوارك مثل كل ليلـة ولن أرد على غادة إذا اتصلـت من جديد. لن أرد على أحد. لقد فكـرت لأول مـرة أن أرد على غادة ثم فكرت في صيد السـمك الذي قد أسـتغني به عنهـا. لا تلوميني فليس معنى الصيد أني سـعيد. ولا تلوميني لأني لن آكل وحدي مما سوف أصطاده. سأعطيه للسائق كله. لبس هناك معنى لأي شيء جميل أعود به لأنك لن تكوني في استقبالي.

11

في الصباح سمع سارينة التاكسي في الخارج. إنه عثمان كالعادة لكنه اليوم سيختلف. نزل. ما إن جلس جوار السائق عثمان حتى قال:

- كل شيء تمام يا بيه. اشتريت لك ما كينة صيد نادرة وجهزت كل شيء. «الطعم» الذي سنستخدمه في الصيد جمبري صغير طازج.

ابتسم سامر ومشى السائق عثمان بالسيارة على مهل بين الفلل المهجورة. ظهر عدد من الكلاب جرت جوار التاكسي لكنها لم تنبح فقال عثمان:

- أول مرة أرى كلابا لا تنبح.

ابتسم ولم يرد فقال عثمان:

- أكيد تعبت من النباح ولا أحد استجاب لها. أكيد عرفت أن السكان طفشوا!!

هنا ضحك سامر ضحكة قصيرة، لكن ظهر عدد من القطط تنبش في كوم زبالة التفتت كلها إليهما. كان عثمان يرى ذلك وهو لا يراه. قال:

- انظر إلى القطط يا بيه. كلها تنظر إلينا. زبالة قديمة لا يضيف إليها أحد جديدا والقطط تستنجد بنا.

ضحـك. بدت له خفـة دم عثمان أكثر هذه المرة. أحس بالراحة إليه. الحقيقـة هو يرتاح إليه من قبل. لكن هذه المرة أحس أنه شـيء قدمه الله إليه ليسـرّي عنه بتلقائيـة تظهر عند المصريين في الأوقـات الصعبة. قرر أن يتـرك له ما بقي من مال سـبق وأعطاه له ليشـتري ماكينـة الصيد. لكن عثمان قال:

- لا أعرف لماذا أشعر أن الكلاب التي رأيناها ليست كلابا.

نظر إليه مندهشا ومبتسما فقال عثمان:

- لاتوجد كلاب تيأس من النباح. أجل. هي ذئاب والله.

ضحك سامر بصوت عال ثم قال:

- لو كانت ذئابًا كانت تعوي.

قال عثمان بهدوء:

- بالليل يا أستاذ. أجل. بالليل ستعوي. لا تخرج من الفيلّا بالليل أرجوك.

وجاءهمـا صـوت الموج عاليـا. لقد اقتربا من الشـاطئ إذن. بل ظهر البحر أمامهما وظهر الموج عاليا. الشـارع الذي تتحرك فيه السيارة ضيق ولا يجب أن يتقدما بالسيارة أكثر فالرمال تزيد على الأرض. لكن عثمان تقدم حتى نهايته وأوقف السيارة وقال:

- الموج عالي جدا. لكن إن شاء الله سنصطاد.

وقـف هو وعثمان يخرج الأشـياء من حقيبـة السـيارة الخلفية. تقدم وأمسك بالبوصة الجديدة الخاصة به ونظر إلى الماكينة وأدرك أنها جيدة الصنع فهي صناعة فرنسـية. حمل عثمان بوصته والغلق في يده به الطعم والراديو الترانزستور، ولما أخرج مقعدين صغيرين من البلاستيك يمكن فتحهما تقدم سامر ليحملهما عنه.

- ياباشا لا يصح.

- أنا اليوم ليس الباشا. أنا زميلك الصياد.

قال ذلك مبتسما فنظر إليه عثمان نظرة امتنان وقال:

- ربنا يعطيك بقدر عملك وطيبتك يا باشا.

لكنه سـبقه إلـى رمال الشـاطئ العريض الذي تتناثر عليه بقع سـوداء هي بقايا مازوت ألقته السـفن وفروع خضراء رفيعة لابد أنها نباتات مائية حملهـا الموج. كانت الرمال عميقة وأدرك سـامر أنـه كان عليه أن يخلع حذاءه ويتركه في السـيارة. هكذا رأى عثمان قـد فعل. خلع حذاءه وقال مبتسما:

- لماذا لم تنبهني لذلك؟ الحذاء يغوص في الرمال.

تقدم عثمان منه قائلا:

- هاته أضعه أنا في السيارة.

نظر إليه سامر وقال وهو يهز رأسه:

- لا. سأحمله أنا. هات مفتاح السيارة.

قدم له عثمان المفتاح واتجه سامر للسيارة بينما انشغل عثمان بوضع «الطعم» في صنارة كل منهما حتى عاد سامر.

- الآن تستطيع أن تلقي بصنارتك. كل شيء جاهز.

تقـدم كل منهمـا إلى الماء وكما ترك عثمان الموج يضرب في أسـفل بنطلونه فعل سامر. لم يتقدما كثيرا ومن ثم ما أصابه الموج من بنطلون كل منهما لم يكن يعلو أكثر من عشـرين سـنتيميرا. اندفعت الصنارتان بعيدا وهمـا يلقيـان بهما ثم جذب كل منهما خيطه إلى الخلف قليلا فوجده قد صار قويا غير مرتخ. قال عثمان:

- إن شاء الله سيكون خيرا.

وتراجعـا كل إلـى مقعـده. لكـن عثمان أخذ مقعـده بعيدا عـدة أمتار وقال:

- هكذا أفضل.

ثم غرس البوصة في الرمال وأخرج الراديو الترانزستور ووضعه على الأرض وفتحـه. راح يبحـث بيـن محطـات الإذاعة حتى بـدأت الأغاني تعلو. «سوق على مهلك سوق لما الدنيا تروق» ضحك عثمان وقال:

- شادية هذه أنقذتني يا أستاذ من الموت؟

- هل تعرفها؟

- كيف لمثلي أن يعرفها يا أستاذ؟ أنا أسمعها فقط. وتقريبا شاهدت كل أفلامها.

- إذن كيف أنقذتك من الموت؟

تساءل سامر ضاحكا فقال عثمان:

- كنت في مشوار لدمنهور على الطريق الزراعي. وبينما أقود التاكسي والسيارات مسرعة حولي غنت من راديو التاكسي هذه الأغنية. انسجمت معها. أنا أحبها من زمان جدا. أحب كل أغانيها. هل تحب شادية يا أستاذ؟

- من لا يحب شادية يا عثمان؟!

- فتح الله عليك. المهم قررت أن أطيعها وخفضت سرعة التاكسي جدا. الزبون احتج. سألني لماذا أهدئ السرعة قلت له أنا أحب أن أطيع شادية. قال لي أنت مجنون. قلت له تقريبا.

ضحك سامر فاستمر عثمان يتحدث:

- شردت مع شادية وهي تقول على إيه تجري كفاية علينا العمر بيجري من حوالينا. كدت أبكي وأتوقف وهي تقول كان في عينينا وملو أيدينا وبعد دقيقة مش بإيدينا. رأيته مغتاظا جدا لايدرك ما أشعر به. فجأة على بعد حوالي مائتي متر أمامي انكسرت شجرة كافور عالية من جذرها وسقطت في لحظة بعرض الطريق.

- معقول؟

- والله كما أقول لك. سقطت على سيارتين. لحقت بنهاية سيارة فهشمتها وأصابت صاحبها وفعصت الثانية ومات من بداخلها.

- يا إلهي. حادث صعب.

- هذا ما حدث. كل السيارات المسرعة فرملت واصطدمت ببعضها. كان هناك إصابات كثيرة. أنا الحمد لله استطعت التوقف بهدوء بسبب سرعتي البطيئة. شفت يا أستاذ شادية وكيف أنقذتني؟ كان يمكن أن تقع الشجرة عليَّ أنا وسيارتي.

نظرإليه سامر صامتا مندهشا فقال عثمان:

- قلت للزبون ما رأيك في جنوني. دقيقة وكان عمرنا حيضيع. زي ما قالت شادية بالضبط. كان هو ينظر إلـيَّ صامتا مذهولا فقلت له لن أكمل معك. أنت وش نحس.

ضحك سامر بقوة فقال عثمان:

- والله هذا ما حدث. تركته وعدت ولم أتقاض منه مليما.

هنا أحس سامر بشيء يجذب البوصة من يده فوقف وبدأ يدير الماكينة بقوة يجذب الصنارة للخارج فهتف عثمان:

- إرخي إرخي الخيط قليلا. أرخِ ثم اسحب.

فعل سامر ذلك ثم أحس بانخفاض قوة الجذب فراح يدير الماكينة يجمع الخيط بسرعة. هتف السائق الذي وقف واقترب منه تاركا دون أن يدري البوصة على الأرض. شيئا فشيئا بدأت سمكة تظهر وتقفز في الماء بين الموج المتعاقب ثم صارت أعلى الرمال ترتعش حتى اقتربت جدا ورفعها سامر أمامه فقال عثمان فرحا:

- بورية زي الفل. حلال عليك يا أستاذ.

لكنه لمح بوصته تجري إلى الماء فأسرع هاتفا:

- يا نهار أبيض.

وقف سامر يضحك ولحق عثمان بالبوصة قبل أن تصل إلى الماء وعاد مسرعا. راح بدوره يجذب ما علق بها بتدوير الماكينة وجمع الخيط حتى صارت أمامه بورية أخرى. فهتف:

- ألله أكبر. يوم زي الفل.

جلس كلاهما بعد أن فصل السمكة عن الصنارة يضع الطعم في الصنارة من جديد. كان صوت شادية قد انقطع وبدا محمد عبد الوهاب يغني «جفنه علم الغزل» فابتسم سامر، لكن عثمان وقف مذهولا يقول:

- ما هذا؟

نظر إليه سامر فأشار عثمان إلى الماء وقال:

- قف يا أستاذ وانظر معي. شيء أسود كبير في الماء يظهر ويختفي.

وقف سامر فرأى شيئا يظهر ليس أسود كله كما يقول عثمان لكن أحمر أيضا في بعض أجزائه. وقف كلاهما لا يتحدث لحظات حتى قال عثمان:

- يا رب تكون هدوم ألقتها السفن.

لكن سامر قال في ذهول:

- لا. رأيت ذراعا.

كان عثمان قد تجمد مكانه. لقد اقترب الشيء وبدا بالفعل آدميا. قال عثمان ذاهلا بصوت خفيض:

- غريق!

حمل الموج الغريق أكثر حتى استوى على الرمال لا تدفعه الأمواج بل تمر فوقه ولا تسحبه إلى الماء مرة أخرى. تبادل كلاهما النظر في ذهول. قال سامر:

- لم البوصة. لن نستطيع الصيد اليوم.

فعل هو ذلك بسرعة وفعله عثمان في ضيق ويأس.

- تعالَ معي.

قال سامر ذلك وتقدم إلى الماء وعثمان جواره حتى وصلا إلى الغريق.

- بنت!

قال السائق فقال سامر:

- احملها معي إلى الشاطئ.

كان بطنها عاليا من الماء الذي شربته ووجهها ممزقا من الرمال التي سحجته وربما من فعل مجرم. وضعا الجثة على الشاطئ ووقف عثمان ذاهلا يقول:

- ماذا سنفعل؟

- سأتصل بالبوليس. هل لدينا شيء آخر نفعله؟

سكت عثمان قليلا ثم قال:

- لو فعلنا ذلك لن نعود إلى بيوتنا إلا بعد التحقيق. سيشكّون فينا نحن. الأفضل أن نتركها ونمضي. لا أحد حولنا.

لكن سامر لم يستمع إليه. كان قد أخرج الموبايل الذي كان قد وضعه في الغلق وطلب بوليس النجدة وأخبرهم بالأمر. في لحظة فكر فيما قاله السائق وفكر أنه سينشغل عن ريم وقتا قد يطول كثيرا لكنه قال لنفسه كيف أترك فتاة قد يكون هناك من ينتظرها!

12

بعد يومين كان الخبر صغيرا في صفحة الحوادث في جريدة الأهرام. لكنه كان يعرف أنه سيكون كبيرا!

قال لنفسه ذلك وهو يجلس بالصالة السفلية على منضدة السفرة وأمامه اللابتوب مفتوحا على صفحة ابنته نور في الفيسبوك.

«إذن عاد بابا من أوربا إلى الإسكندرية لينقذ الفتاة الغارقة. يا رب تكون ماما بخير دلوقت. وحشتنا جدا».

«لم ينقذها. أبلغ عن خروج جثتها من البحر. بابا تحدث معي اليوم وطمأنني على ماما. لكن ما زلت أنتظر أسمع صوتها».

توقف عند هذين التعليقين فقط. الأول من الفنانة غادة والثاني من ابنته. إذن عرفت الفنانة غادة مكانه. يا للخبر اللعين الذي صار كبيرا حقا.

لقد قال له السائق عثمان أن يتركه وحده خوفا أن يتأخر في قسم البوليس وهم يحررون محضرا بالواقعة لكنه رفض. قال:

- لن أتركك. معي سينتهي المحضر بسرعة.

- يابيه ربما يصل التحقيق إلى النيابة ويطلبون أقوالنا. ستغيب عن المدام كثيرا من الوقت.

- لا عليك.

كان يقـول ذلـك ويفكر فعـلا أنه يمكن أن يتأخر كثيـرا على ريم لكنه كان يشعر بالخجل أن يترك عثمان. ومن يدري ربما يرتبك عثمان ويقول إنـه لـم يكن وحده الـذي عثرعلى الجثة. تخيل أن ضابـط البوليس الذي سيحرر المحضر قد تكون لديه بعض الشكوك في عثمان وراءها أسئلة من نوع ما الذي جعل سائق تاكسي يصطاد في هذا اليوم الشتوي. ربما يكون علـى علاقـة ما بالغريقة. وإذا توصلت النيابة فيمـا بعد عن طريق الطبيب الشـرعي أنها قتلت مثلا قبل أن يُلْقَى بها في البحر ومن ثم لم تكن غريقة عادية فسوف تزداد الشبهات حول عثمان المسكين الذي أراد بالصيد أن يسري عنه، والذي قد يرتبك ويطلب شهادته باعتباره كان معه، وهنا يثور السؤال لماذا لم تستمر معه بعد إبلاغ البوليس وتزداد الشكوك.

كان الضيـق يحاصره بالفعل لكن وجد أن اسـتمراره مع عثمان ينهي المسألة أسرع.

انتهـى التحقيـق فـي قسـم البولـيس بسـرعة حقـا. لقد عـرف مأمور السـجن شخصيته واسـتضافه في مكتبه والسـائق عثمان معه في ارتباك. حـرر المحضـر فـي مكتب المأمـور الذي قدم لهمـا القهـوة وعثمان في ذهول. حين خرج المأمور لدقائق لأمر ما خارج غرفته انحنى إليه عثمان يهمس:

- فعلا وجود حضرتك معي جعل المسألة نزهة. ربنا يزيح عنك كل الآلام.

وقعا على المحضر بعد أن أجابا عن سؤالين فقط. متى وأين عثرا على الجثة. وقال المأمور:

- سننقل الجثة إلى المشرحة في منطقة كوم الدكة وستطلب النيابة تشريحها. ربما نحتاج إليكما مرة أخرى للإدلاء بأقوالكما في النيابة في حالة ما إذا كانت قد قتلت قبل الغرق.

بدا الارتباك على عثمان فقال المأمور لسامر:

- وحتى في هذه الحالة يا سامر بيه لن يزيد الأمر على دقائق في النيابة. المهم لا تغادر الإسكندرية إلا بعد أن أخطرك بنتائج تقرير الطب الشرعي.

- هل سيستغرق هذا وقتا؟

- ثلاثة أيام على الأكثر.

- لابأس. أمامي على الأقل أسبوع هنا.

وترك للمأمور رقم تليفونه إضافة إلى عنوان الفيلّا المدون في المحضر ووقف لينصرف فوقف المأمور يصافحه قائلا:

- أرجو أن تنتبه إلى ما حولك. المنطقة خالية الآن وربما يكون فيها بعض المجرمين.

- أعرف. حدثني أحد الضباط منذ أيام عن وجود عصابة لخطف الأطفال، وقتلهم للحصول على أعضاء منهم لبعض المستشفيات الخاصة.

- لقد قبضنا عليهم في الناحية الأخرى من الهانوفيل، لكن لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يكون في هذا المكان أيضا.

ظهرت الدهشة على وجهه وقتها كما تظهر الآن. كيف لخبر مثل القبض على عصابة لخطف وقتل الأطفال ألا يظهر في الصحف بينما ينشر خبر عثوره على جثة غريق؟ إنه يقرأ الصحف كل يوم ولم يرَ مثل ذلك الخبر. لابد أن اسمه هو سبب النشر.

لم يتصل به المأمور ليخبره بنتيجة فحص الطب الشرعي وهذا يعني أنه لا جريمة وراء الغريقة التي لم يعرف عنها شيئا. إذن انتهت القصة لكن ستبدأ قصة جديدة معه هو ويتوقع أن تصل غادة في أي وقت.

انتبه إلى أن عليه اليوم أن يغسل ثيابه وثياب ريم. مضى أسبوع لم يفعل هذا. اتجه إلى الحمام الذي لم يعد يستعمله لكن به الغسالة والثياب. وضع الثياب في الغسالة وأدارها وخرج إلى الصالة من جديد.

اكتشف أنه لم يتناول إفطاره. الساعة تدخل في الحادية عشرة ولم يصل السائق عثمان اليوم بالصحف. خرج أمام باب الفيلَّا ووقف.

فراغ وبيوت خالية مثل كل يوم. لماذا لم يعد يظهر هدهد من جديد. هل كرهت الهداهد المكان؟

دار حـول الفيلَّا إلى الحديقـة الكبيرة. أحس بجمال المكان أكثر من ذي قبل. زاد اتسـاعه في عينيه. بدت الأشـجار أجمل من كل وقت. رأى كلبـا يدخـل جاريا ويقطـع الحديقة بالعـرض ثم يعود خارجـا من تحت سـورها الذي دخـل منه. وقف مندهشـا. تقدم ناحية السـور الذي يحيط بالأشـجار. وجد فتحة كبيرة في قلب السـور من أسـفل. أحس بالأرض تحته صـارت أكثـر ليونـة. ارتفعـت بهـا المياه أكثـر وإن لم تطـفُ على سـطحها بعد. لكن من الذي قام بعمل هذه الفتحة لتدخل منها الكلاب؟ لم تكن في السـور من قبل. لكنها تبدو قديمة. لـم يشـأ يشغل نفسه بأسئلة أكثر. لثلاثة أعوام لم يأت هنا ولا معنى للبحث عن سبب.

عاد بسـرعة خارجـا من الحديقة مبتعـدا عن الفيلَّا قليـلا. حمل عدة أحجار من الطريق وعاد إلى الفتحة في السـور ووضعها فيها. لم يسـتطع أن يسد الفتحة كاملة لكنها هكذا لن تتيح للكلاب الدخول. ربما تستطيع ذلك الفئران. قال لنفسـه. لكن لم يظهر أي فأر بعد. وحين يأتي السـائق عثمان سيطلب منه شراء بعض الأسمنت وسد الفتحة كاملة. تذكر أن عمال السيراميك تركوا بعض الأسمنت في شيكارة وضعوها في ركن من باحة البيت قريبا من الباب. لو لم تطلها الأمطار سـيجد الأسمنت بها صالحا.

عـاد إليهـا ووجدها كذلـك بالفعـل. إذن فليفعـل ذلك بنفسـه مادام السـائق لم يصل. أحضر من الداخل إناء من البلاسـتيك وضع فيه بعض الأسمنت ثم إضاف إليه الماء وانتقل إلى الفتحة في الجدار وراح يسدها به مع الأحجار.

كان يعـرف أن مـا يفعله لن يجدي كثيرا لأن الأحجار صغيرة ليست بعرض السـور، لكن لو لم يفكر أي كلب في الدخول منها الآن سيجف الأسمنت وتكون قوية بعد ساعة على الأكثر.

عاد إلى الحمام وغسـل يديه. أحس بضيق خفيف ثم انتبه إلى شـيء فخرج مسـرعا وعاد إلى الحديقة لينظر فـي الفيلّا من الخلف. رأى ذلك منـذ قليل ولم ينتبه إليـه. لقد ارتفعت المياه في جدارها الخلفي لمسافة نصف متر تقريبا وتغير لون الحجر. بل تغير لون الرسوم النوبية الجميلة. مد إصبعه فلمس غبارا متجمدا على الرسوم. إنه الغبار الخفيف الذي قد يطيره الهواء التصق بالجدار الرطب المشبع بالماء. لكن هل سيجد أثر المياه على الجدار من الداخل. هنا يقابل الحمام.

عاد إلى الفيلّا ودخل الحمام ينظر فوجد الجدار من الداخل قد ارتفعت عنه أكثر من قطعة سيراميك من أسفله. إنها لاتزال متماسكة به لكن ارتفاعها هذا يعني أن الماء في الجدار هو السبب. مط شفتيه وهز رأسه يائسا ثم خرج إلى الصالة الكبيرة فرأى شرخا رفيعا في الحائط عند أحد الأركان. شرخا رفيعا جدا يتعرج في الحائط مبتعدا عن الركن ويرتفع. هل كان هذا الشرخ قديما ولا يذكره؟ لا يعرف بالضبط. الشرخ يبدأ متسعا لحوالي ملليمترين من أسفل ثم يصبح كخط رفيع حتى ينتهي. وقف ينظر إليه صامتا ثم مشى بيده على الحائط ونزل بها إلى أسفل على مهل فأدرك رطوبة الحائط كلما اقترب من الأرض. إذن ارتفعت المياه فيه كما ارتفعت في الخلف. لابد أنها ارتفعت في جدران الفيلّا كلها.

مشـى ليخـرج إلى الشـمس أمـام الباب قليـلا فتعثرت قدمـه بقطعة سـيراميك ناتئـة عن الأرض. يـا إلهي. نظـر فوجد قطعة السـيراميك قد خرجت من مكانها. انحنى عليها وأمسك بها فخرجت في يده وصار مكانها خاليا إلا من الأسـمنت القاني. لا يمكن أن يكون ذلك خطأ في التركيب بسبب السرعة مثلا. انحنى ولمس الأسمنت مكانها فوجده متجمدا حقا لكنه رطب. شمله غيظ خفيف وتذكر حكاية أخي السائق الذي ظل يرفع الأرض حتـى اختفـى الدور الأرضـي. هل يمكن أن يحـدث معه ذلك؟

فكـر لأول مـرة أن يأخذ ريم من جديد وينتقـل بها إلى فيلته في العين السـخنة. هـل يمكن أن يفعل ذلك حقا؟ هنا يسـتطيع بسـهولة أن يذهب إلـى المدينـة يشـتري ما يشـاء. هنـا يصاحبه السـائق عثمـان يخفف عنه ويقـوم بكثيـر من مطالبـه. لكن هناك سـتأتي غادة بسـهولة. سـمع هدير الغسالة يتوقف بالحمام. لينشر الغسيل الآن ويفكر ماذا سيفعل فيما بعد.

كان بـاب الفيلَّا مفتوحـا والضوء من الخارج ينسـكب داخلها بقرب الباب. أحس بالظل يحل مكان الضوء فنظر ليرى غادة أمامه.

لـم تكن غادة تحمل أي شـيء غيـر حقيبة يدها. كانـت ترتدي بالطو فوق ملابسـها وكان شـعرها كالعادة محلولا غزيرا خلفها. ظل واقفا في الصالة ينظر إليها مندهشـا وهو يرى ابتسامتها ونظرة عينيها المصوبة إليه وقد اتسعت العينان إلى نهايتهما. قال بصوت متحشرج:

- غادة!

كانت قد اقتربت منه. مد يده إليها يصافحها فمدت يدها وظلت تنظر إليـه صامتة ثم انهـارت على أقرب مقعد واندفعت فـي البكاء. ظل واقفا وقد ازداد ارتباكه، لكنه أغمض عينيه للحظة ثم جلس أمامها يتساءل:

- كيف عرفتِ الطريق؟

رفعـت عينيهـا إليه وفتحـت حقيبة يدهـا أخرجت منا ديـل كلينيكس وراحت تجفف دمعها.

- كنت أعرف أنك قررت الاختفاء.

كاد يقـول لهـا الحقيقـة. إنـه يريـد أن يعيش الأيـام الأخيـرة مع ريم وحدهما لكنها قالت:

- أنـا أعـرف ريم وكيف هـي ذات كبرياء كبير لا تحـب أن يراها أحد في محنة لكن كيف تتحمل ذلك كله وحدك؟

هز رأسه وقال:

- حمد الله على سلامتك يا غادة. لم تقولي لي كيف عرفت الطريق.

- هل نسيت أننا كنا نزوركما هنا من قبل؟

قال:

- إذن ادخلي إلى غرفة داخلية واستريحي قليلا حتى أنتهي من عملي.

- أي عمل؟

ابستم وقال:

- سأنشر الغسيل.

نظرت إليه بشفقة كبيرة وقالت:

- أنت إنسان عظيم يا سامر. اتركني أنشره عنك. هذا شأن النساء. ولن تكون وحدك أبدا.

ولم تنتظر. فعلت ذلك وعادت تقول:

- هل تسمح لي برؤية ريم؟

أشار إلى الدور الأعلى وقال:

- تفضلي.

صعدت وظل هو في مكانه جالسا لكنها عادت نازلة السلم بسرعة شبه منهارة. رآها فقال:

- لا تبكِ يا غادة.

قالت بعد أن جلست:

- لن أتركك يا سامر وحدك. لن أترك ريم. ستصل أنت بها إلى النهاية راضية حقا وأنا سأصل بها معك إلى ذلك وهي في وضع أفضل.

ارتبك للحظة ثم زم شفتيه وقال:

- لن تستطيعي البقاء ولا العمل. ستطلبين مني إحضار ممرضة ولن أستجيب. لقد قررت أن أكون كل شيء ومازلت قادرا.

- سأكون أنا الممرضة.

ووقفت من جديد ثم قالت:

- سـأتركك وأذهـب بسـيارتي إلـى البيطاش لشـراء ملا بـس للبقاء. لن أطلب منك أن تأتي معي.

لم يرد فخرجت على مهل وهو جالس في مكانه يفكر كيف حدث ما توقعـه وكان يخشـاه. يبدو أن ماجرى من العثور على جثة الغريقة ونشـر ذلك في الصحف كان اسـتجابة من الله لرغبته السـرية أن يسـاعده أحد. تسـاعده غادة التـي حاولت ذلك من قبـل كثيرا ولـم تمل. الآن يرسـم له القـدر طريقين. طريق تذهـب فيـه ريم إلى النهاية وطريـق تأتي منه غادة. لايريد الطريق الثاني ولن يستسلم له. سيمضي في الطريق الثالث ويغادر مصر كلها إذا أصر القدر على ما يريد.

سـمع فجأة صوت طلقات رصـاص في الخارج. طلت الدهشـة من عينيه. وقف وتقدم مسـرعا ليخرج، لكنه عاد بسـرعة ودخل غرفة داخلية ثم عاد منها ممسكا بمسدس صغير في يده وخرج من الباب فلم ير شيئا. صـوت الطلقـات كان بعيدا حقا لكنـه ليس بعيدا إلى درجـة لا يرى فيها أصحابه. من زقاق بعيد ظهرت سـيارة شـرطة تتقدم مسرعة ناحيته. تهتز بقـوة فـوق الأرض الطينية الموحلـة والمليئة بالحفر. كان جوار سـائقها الضابط الشـاب الـذ ي رآه من قبل. رآه الضابط فأشـار للسـائق أن يقف أمام الفيلا.

- مازلت سيادتك موجودا هنا؟

اقترب منه وقال:

- كما ترى.

- انتبه لقد قبضنا على العصابة.

- لكني عرفت أنكم قبضتم عليها من قبل.

- عصابة لصوص للفلل والبيوت هذه المرة.

ثم ابتسم الضابط وقال:

- كنا نتابعهم منذ شهر. كانوا يتنقلون بين الفلل الخالية بين البيطاش والهانوفيل. كانوا في الحقيقة يستأجرون بعض الفلل من أصحابها ليسرقوا الفلل الأخرى. في كل مرة كانوا يدّعون لمن يصل إليهم من رجال البوليس أن لديهم مريضة يعتنون بها. تكرر هذا الأمر ثلاث مرات. أغبياء. لم يفكروا أن أحدا يمكن أن يشك في روايتهم، فالاعتناء بالمريض لا يعني التنقل به بين الفلل.

فكر لحظة في هذه المصادفة. هو أيضا لديه مريضة يعتني بها. لكن الضابط لمح في يده المسدس الصغير فقال:

- هل لديك ترخيص بهذا المسدس؟

- طبعا.

قال ذلك مرتبكا وهو ينظر إلى المسدس في يده إذ بدا أنه قد نسيه ثم أردف:

- يمكن أن تتفضل معي لترى الترخيص بنفسك بين أوراقي أو إن شئت أحضرته اليك.

- لا شكرا. أنا أصدقك لكن أرجوك إذا وجدت أي غريب في المنطقة تعلمنا. لابد أنك تعرف أصحاب هذه الفلل كلها. على الأقل القريبة. لقد قبضنا على اثنين فقط من العصابة.

- طبعا. سيحدث.

نظرإليه الضابط ثم ابتسم قائلا:

- حضرتك وعدتني قبل اليوم ولم تفعل أي شيء. نحن دائما نطلب من الناس أن تساعدنا ويقولون نعم ثم ينسون. الشعب المصري شاري دماغه!

ابتسم هو وأشار الضابط للسائق أن يمضي. نظر إلى السيارة البوكس من الخلف فرأى فيها أمينا شرطة يمسكان بمسدسيهما وخلفهما لمح رجلا وامرأة. لابد أن هذه المرأة هي التي كانوا يدّعون مرضها.

عاد إلى باحة مدخل الفيلّا فرأى أمامه هدهدان كبيران يتقافزان على الأرض يبحثان عن شيء يأكلانه لأنهما يلتقطان حبوبا بقيت من طعام الهدهد الصغير الذي مات. لقد نسيت الهداهد طفلها وعادت إلى سيرتها الطبيعية. قال ذلك وهو يهز رأسه مبتسما. ما إن دخل إلى الصالة حتى ملأته رغبة أن يجلس إلى البيانو يعزف. كان قد ترك الباب مفتوحا خلفه رغم أنه سمع صوت تساقط المطر. وكان قد رأى السحب السوداء

تقترب فوقه وهو يتحدث مع الضابط. جلس إلى البيانو وراح يعزف عزفه البسيط لشيء من ألحان عمر خيرت. أحس بنفسه ينسجم مع العزف. في لحظة فكر أنه قد يسمع صوت ريم الآن فيصعد مسرعا إليها. استمر يعزف ثم توقف قليلا يدخن سيجارة ثم مضى إلى المطبخ ليعد كوبا من الشاي. رأى في المطبخ شرخا ينتصف أحد الجدران. شرخا يتسع في بعض المناطق إلى مسافة سنتيمتر وفي بعضها الآخر إلى نصف سنتيمتر. الشرخ يصل بين الأرض والسقف الذي صار قريبا. ثم رأى في أحد الأركان ثقبا في الأرض تخرج منه مياه ضعيفة لكنها انتشرت وصنعت فوق الأرض مساحة من الماء تعلو ملليمترا أو أكثر قليلا. لابد أنها ستعلو أكثر إذا تركها. كيف لم ينتبه إليها حقا من قبل. لقد دخل المطبخ أمس قبل الفجر و تناول من الثلاجة شيئا يأكله قبل أن ينام ولم يرَ الشرخ ولا المياه. لابد أن يذهب بسرعة إلى محل السيراميك يأتي منه بعامل يسد هذا الثقب. لم يعد لديه أسمنت ليفعل هو ذلك. وحتى إذا وجد لن يفعله كما ينبغي. لو ترك الفيلّا الآن قد تعود غادة ولا تجده وتستريب في اختفائه. لكن لابد تعرف. إذا اتصلت به الآن سيرد عليها. لن يفعل كما فعل من قبل. إنها هنا الآن. ولماذا لايتصل هو ويخبرها أنها قد تعود من طريق لايسلكه هو فلا تراه. أو تنتظره في المقهى فلابد أنها لم تنتهِ مما تشتري بعد. لكنه سمع صوت سارينة التاكسي في الخارج. لقد حضر عثمان متأخرا بالصحف. خرج إليه فوجده في الباحة أمام الباب. كانت ابتسامته كبيرة اليوم. قال عثمان:

- لا تؤاخذني يا بيه تأخرت عنك يومين.

- لا عليك. جئت في وقتك. ادخل.

دخل عثمان ووقف وسط الصالة يقول:

- الله رائحة بارفان حلوة جدا.

نظر إليه في دهشة. إنه بارفان غادة. كيف حقا لا يستنشقه هو؟! كيف انسدت حواسه عن أي امرأة أخرى منذ وقت طويل؟! اطمأن أن قصته الجديدة مع غادة لن تتقدم. قال في نفسه «قلبي لايزال في مكانه يا ريم».

- يا أستاذ حضرتك شردت مني. أقول لحضرتك بارفان حلو جدا. هل تنزل المدام هنا الآن؟

- تعالَ معي إلى المطبخ. سأريك شيئا.

قال ذلك وسبقه إليه. رأى عثمان الشرخ أمامه في الحائط فقال على الفور:

- هل هذا الشرخ قديم؟

- لم أره من قبل. لكن يخيل لي أنه قديم وأنا الذي انشغلت عنه.

تقدم عثمان إلى الشرخ وحملق فيه لحظة ثم قال:

- لا هو جديد.

- كيف عرفت؟

- خبرة يا باشا. نحن بيوتنا كلها شروخ!

أشار سامر إلى ثقب المياه فقال عثمان:

- طبعا هذا هو السبب. لكن هناك حل.

- رفعت الأرض مرتين حتى الآن كما تعرف. هل سأظل أفعل ذلك؟

- لا يحتاج مجرى صغيرا تحدد اتجاه الماء إلى الخارج خلف الفيلَّا.

فكر سامر لحظة. هذا هو ما قاله له الجنايني الشاب وقال عثمان:

- ستظل كل عدة أيام ترفع السيراميك عن الأرض حتى يضيع الدور الأول بلا فائدة. مجرى يسحب الماء إلى الحديقة يُنهي القصة حتى تقوم المحافظة بعمل المجاري في الأرض في المنطقة كلها فتقل المياه الجوفية وتجد أمطار الشتاء طريقا إلى المجاري وليس باطن الأرض.

- ليس أمامي إلا عمل ذلك.

- أستطيع أن أفعله أنا بنفسي. لقد صنعته من قبل لأخي الذي حدثتك عنه.

نظر إليه سامر مندهشا متحيرا. مادام قد فعل ذلك لأخيه لماذا رفع أخوه الأرض أكثر من مرة حتى ضاع الدورالأول. لكن عثمان قال:

- هذا بعد أن يئس وضاع الدور الأول من الفيلَّا طبعا.

ثم ضحك وأردف:

- أخي كما قلت لك كان يرفض. كان تقريبا يريد أن يدمر الفيلَّا على زوجته ولا يعلن ذلك.

ابتسم سامر وقال:

- متى يمكن أن تصنع ذلك؟

- اليوم. سأذهب في مشوار صغير وأعود. هل لديك فأس؟

- في حجرة المخزن كل ما ستحتاج إليه.

خرج سامر من المطبخ فخرج عثمان خلفه يقول:

- لم تسألني يا بيه لماذا لم آتِ اليومين السابقين.

- أكيد كنت مشغول.

- لا أنا كنت أجلس بمقهى البدوية فوجدت شخصا يمسك بصحيفة يفتحها ويسأل الجرسون هل يعرف عنوان صاحب الفيلّا الموجود اسمه بالصحيفة والذي عثر على جثة الغريقة.

نظر إليه سامر في حيرة فقال عثمان:

- لا تقلق. راح يسأل أكثر من شخص جالس ولم يجد إجابة. فكرت إذا سألني أن أكذب عليه. سألني قلت له إنك سافرت. ولما سألني كيف عرفت بذلك أخرجت بطاقتي الشخصية قدمتها له. قلت له أنا اسمي مع سيادتك في الخبر.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- مسكين. قال لي إنه السبب في موتها. هو أخوها الأكبر. لقد رفض أن تتزوج من تحبه فانتحرت. كان يريد أن يشكرنا على بلاغنا بالعثور على جثتها.

فكر سامر قليلا وقال:

- وهل صدقته؟

- طبعا لا وظللت أراقب الفيلّا من بعيد اليومين الماضيين. توقعت أن يأتي أحد إليك فأحضر مسرعا أباغته وأساعدك إذا كان يقصد لا قدّر الله أي مكروه لك. لقد رأيت اليوم البوليس وهو يقبض على عصابة وابتعدت حين سمعت صوت طلقات الرصاص. ورأيت سيارة رينو تصل إليك تنزل منها سيدة ثم تركبها مرة أخرى وتترك المكان.

نظر إليه سامر غير مصدق فقال عثمان:

- لا تقلق يا بيه. يبدو أنه كان شخصا صادقا فيما قال. سأتركك الآن وأذهب إلى مشواري وأعود لعمل المجرى الملاحي لقناة السويس!

لم يستطع سامر إلا أن يضحك. بل ضحك بقوة حقيقية.

13

- ليست هذه ريم التي أعرفها أبدا.

قالت وهو يقف جوارها حائرا. هل يقول إنها مريضة. إنها تعرف. ثم إنها صعدت إليها حين وصلت ورأتها! لكن غادة قالت:

- اتركني وحدي الآن. سأقوم بتنظيف جسهما كأنها هي التي تفعل ذلك.

- سأخلع الحقنة عن الكانيولا التي في ذراعها.

- المهم أن أعرف متى أغير المحلول ومتى أضع فيه الدواء.

وقف يشرح لها كل شيء. كانت عيناها الدامعتان مركزتين على كيس البول المثبت في طرف السرير تحت قدمي ريم. تعرف من أين يأتي البول. ورآها تغمض عينيها للحظة ثم تقول:

- كيف كنت تفعل ذلك كله وحدك؟

لم يرد. قالت:

- الآن يزداد تصميمي ألا أتركك.

تركها ونزل بعد أن خلع الحقنة عن الكانيولا

حين صعد بعد أكثر من ساعة رأى ريم في وضع باهر. وضعت غادة علـى وجهها الماكياج الذي لا يعـرف كيف يضعه. زينت أظافرها باللون الأحمر. ألبستها جلبابا مكويا قامت هي بكيه. ربطت حول رأسها رباط رأس بعناية لا يظهر شيئا من صلعها. رطبت شفتيها بجيل وجدته ضمن الأدوية أدرك سامر أنه غفل عن استعماله. قامت بالتقاط شعيرات كانت بدأت تظهر داخل أذنها وكان قد رآها ونسي أن يفعل ذلك. دعكت قدميها بالماء الساخن فلمعتا وصار كعباها أبيضين مضيئين.

- كل ذلك فعلتِه؟

نظرت إليه متأثرة لاتدري أنه كاد يقول لها يا ريم فتوقف. امتلك نفسه وركز أن ينطق اسمها. قال:

- لا أعرف كيف أشكرك يا .غادة.

وارتبك للحظة لكنها ابتسمت. انحنت على ريم وقبلتها على وجهها. قال:

- أظن آن الأوان لتأكلي شيئا.

- أرني ماذا لديك في المطبخ وسأفعل أنا كل شيء.

سأل غادة فجأة:

- ما رأيك أن نخرج قليلا إلى البيطاش نجلس في مقهى وسط الناس؟

- ونترك ريم؟

- لن نتأخر وهي لا تحتاج شيئا الآن.

- لن أخرج معك. اخرج أنت لتخفف عن نفسك قليلا.

- إذن سأبقى.

كان مطر قد بدأ ينزل. قالت:

- السماء أيضا تقول لك أن تبقى.

سأل نفسه كم يوما ستبقى غادة. وهل سيجد الكلام الذي يكفي كل الوقت الذي ستبقاه. لكن غادة وهي تجلس معه راحت تحدثه عن الأوبرا وبرنامجها الجديد. وكيف أخذت إجازة بصعوبة. وكيف كان هناك سفر إلى فيينا اعتذرت عنه. لقد رأت الخبر الذي نشر عنه والعثور على غريقة في البحر فقررت أن تترك كل شيء. تريد أن تعيش مع ريم أكثر مما تعيش معه.

كان يحاول أن يصدقها. يقول لنفسه إنها صادقة فالعالم مفتوح أمامها. ولقد كان مرض ريم طريقا مفتوحا لها لتكون عازفة الأوبرا الأولى. هي تتخلي عن كل شيء الآن. ولابد أنها صادقة. لكنه أراد أن يضع النهاية أمامها فقال:

- مدير أعمالي يقوم الآن بإجراءات البيع لمصنعي.

- لماذا؟

سألته بدهشة فقال:

- لن أبقى في مصر بعد رحيل ريم.

سكتت لحظة ثم قالت وهي تهز رأسها متعجبة:

لكن لماذا تترك المصنع وأنت بعيد؟ قد تعيد النظر وتعود إلى مصر.

ضم شفتيه لحظات وقال:

- سأبيعه حتى لا أعود.

سكتت لحظة وقالت:

- معك حق. لم يعد في مصر ما يستحق البقاء.

بالليل كانت اللحظة التي ستدخل فيها غادة إلى إحدى الغرف الداخلية جديدة عليه. كثيرا ما زارتهم غادة هنا منذ سنوات قبل هذا البؤس الذي حل بالمنطقة، وكذلك في العين السخنة وهي متزوجة أو بعد طلاقها. كانت بعد السهرة تدخل غرفة الضيافة. كان الأمر عاديا. تدخل معها ريم تتحدثان قليلا. يسمع صوت ضحكاتهما. اليوم هو وحده ومعه امرأة جميلة. أجل غادة جميلة. ليست في جمال ريم لكنها جميلة. لا يستطيع أن يدخل معها الغرفة يتحدثان. لا يريد. وحين قالت له «تصبح على خير» ورد عليها اقتربت منه وقبلته على خده وهو ذاهل،

ليس بسبب القبلة فهذا أمر عادي بينهما، لكن بسبب أنه أدرك أن معه امرأة تتحرك في الفيلَّا ولا يعرف أحد ذلك.

- إذا احتجت أي شيء في أي وقت لا تخجل أن توقظني. لا تفعل أي شيء لريم. من اليوم دعني أنا أفعل كل شيء وأي شيء.

الآن يشم رائحة البارفان في كل مكان بالفيلا. يأكل الطعام فيشعر به شهيا. هو نفسه الطعام الذي يقدمه لنفسه كل يوم لكنه صار شهيا بحق. سرّ بين النساء والطعام الذي يزداد حلاوة بمجرد أن تحمله إليك امرأة.

وجد نفسه يخرج من الفيلَّا يقف أمام الباب ينظر إلى المطر الخفيف. لمح من بعيد القمر في شكل هلال بين السحب التي بدت أسود من الظلام. هلال يبدأ في التشكل. للحظات وقف ولا سحب تتحرك تخفي الهلال المضيء بعيدا. كم يحتاج أن يمشي تحت المطر.

أدرك أن الطاقة تتجدد في روحه. دخل. راح يقرأ في الصحف ما لم يقرأه في الصباح ثم صعد لينام على السرير أمام ريم. لكنه فوجئ بغادة تقف بالباب قائلة:

- لم تقل لي أنك تنام هنا.

نظر إليها بعد أن اعتدل فوق السرير وقال:

- أنا لا أنام إلا هنا كل ليلة.

- إذن دعني أنا أَنَمْ هنا. نم أنت في إحدى الغرف - وابتسمت - كأنك الضيف.

ترك السرير مبتسما وأخذ طريقه للنزول. لاحظ أن الروب الذي ترتديه غادة فوقها جميل. كيف لم يلاحظ ذلك من قبل ؟

في الصباح ظهرت على سامر علامات من الراحة. اعتنى بنفسه أكثر. أحس بوجهه يعود إلى تورده قليلا وهو يقف أمام المرآة يحلق ذقنه. هل سينتظر نزول غادة من أعلى تعد له طعام الإفطار بنفسها كما طلبت منه. لكن غادة نزلت تسبقها دقات كعب شبشبها.

للحظة أدرك وهو ينظر إليها أنها ريم ثم أغمض عينيه يلوم نفسه. لابد أن ينتبه. التي تتحرك في الفيلَّا الآن هي غادة. هز رأسه أكثر من مرة فقالت وهي تجلس أمامه إلى منضدة السفرة في الصالة السفلية:

- لماذا تهز رأسك؟ كنت تتصور أنني ريم. أليس كذلك؟

ارتبك وقال مبتسما:

- لا أكذب عليكِ. ربما فعلا تصورت ذلك للحظة. لكن.

- تصورني كما تشاء. عندما أجد رجلا مثلك يحب زوجته كل هذا الحب أشعر أن هذه الدنيا جديرة بأن تعاش.

سكت لحظات وقد طامن رأسه ثم قال:

- رغم ما قابلتِه في حياتك؟

ابتسمت وقالت:

- رغم أي شيء.

أغمضت عينيها لحظات وطامنت رأسـها. فكرهو كيف حقا لم توفق غـادة في زواجهـا. كيف كان زوجها بخيلا إلى درجة لا تحتمل. شـكاكا غيـورا لايوافـق على سـفرها مع فريـق الأوبـرا وإذا وافق تعـود لتجد ما ينتظرها شـجارا لا ينتهي. كيف حقا تعرفت على هذا الزوج وأحبته دون أن تـدرك هـذه الخصال فيه؟ انتهى كل شـيء بسـرعة وحيـن طلبت منه الطـلاق طلب أن تتنازل له عن كل حقوقها. وافقت على الفور. شـعرت بالفرج كما كانت تقول وكسرت خلفه كل «القلل» كما كانت تقول أيضا وتضحك.

قال:

- أنت عظيمة يا غادة.

زادت ابتسامتها وقالت وهي تقف:

- أنا جعانة. دعني أعد إفطارا شهيا.

وتركته واتجهت إلى المطبخ. لكنهاعادت مسرعة تقول:

- مـا الذي يحدث. المياه ارتفعت في الأرض. ألـم يحفر السـائق مجرى لها خلف الفيلَّا؟

نظر إليها غير مصدق. ثم قال مبتسما:

- قلت لك استخدمي المطبخ الأعلى لكنك قلت إن هذا أوسع. سأحمل كل شيء إلى الدور الثاني. لا تدخلي هذا المطبخ بعد الآن.

ونهض إلى المطبخ ثم عاد يقول وهو يهز رأسه:

- ثقب آخر في الأرض بعيدا عن المجرى الخلفي لكن الارتفاع ليس كبيرا. بضع ملليمترات.

وراح ينقل كل مافي المطبخ وداخل الثلاجة من طعام إلى أعلى وهي معه تقول:

- إلى متى سيظل الماء يرتفع. قلت لي أنك رفعت الأرض مرتين. يبدو أننا سنستغني عن الدور الأول كله.

ابتسم وقال:

السائق عثمان قال ذلك أيضا. ربنا يستر.

ثم تركها في المطبخ العلوي ونزل من جديد.

ضحك أكثر من مرة وهو يتناول إفطاره مع غادة على منضدة السفرة في الصالة السفلية. ذكرته بأوقات لم يعد يذكرها. حين كانوا في ألمانيا وجاءهم في الفندق شاب ملتحٍ يسأل عن الموسيقارة الشهيرة ريم. بالصدفة كانت ريم في اللوبي مع غادة ينتظران عودته من الخارج ليذهب معهما إلى منزل السفير المصري لتناول العشاء. كيف اندهشت ريم من هذا الشاب المصري الملتحي. كان يرتدي بنطلون جينز فوقه جاكت جينز قصير. حين سألها هل أنت الفنانة ريم توقفت عن الإجابة لحظات. رأيتها تبتلع ريقها الذي جف فجأة - هكذا قالت غادة - تكلمت ريم

وأشارت إلى غادة وقالت مبتسمة هذه هي الفنانة ريم. ابتسم الشاب ابتسامة عريضة وارتبكت أنا - هكذا قالت غادة - لم يجف حلقي بل ارتعدت فرائصي. جلس أمامي وقال يا سيدتي الفاضلة لا تندهشي من سؤالي عنك. أنا أعمل هنا في فرانكفورت في تركيب القرميد على أسطح الفلل والبيوت. وأنا في نفس الوقت مؤذن للجامع. ضحك سامر لأنه يعرف بقية القصة. لكنها استمرت تتحدث:

- قال لي إنه جاء ليهديني سواء السبيل. فالغناء حرام والموسيقى حرام أما الباليه فهو الحرام الأكبر والرجس العظيم.

كان سامر يضحك ويزداد ضحكه وهي تقول:

- كانت ساقاي ترتعشان وهو يتحدث ويقول إنه يطلب لي التوبة والعودة إلى الله وهو لا يكف عن ذلك مع كل من يأتي من مصر أو العالم العربي من الفنانين. ضاعت مني القدرة على الحديث تماما.

قال سامر ضاحكا:

- لكن ريم بعد أن ورطتك أنقذتك.

- طبعا. صرخت في وجهه قائلة من الذي أرسلك إلينا. تفضل غادر المكان وإلا أخبرت البوليس وتسببت في ترحيلك.

ضحك وهي تحكي كيف قام الشاب مرتعدا يتراجع وهو يتلفت حوله في حيرة حتى إذا بلغ باب الفندق أسرع في الطريق.

لـم تكن هذه هي الحكاية الوحيـدة. حكايات كثيرة أخرى أضحكته. حتـى انتبه إلى أنه يضحك وريم صامتة بأعلى. نزلت على وجهه سـحابة حيـرة وربمـا لـوم. نظـرت إليه غـادة مدركة ما هـو فيه. قالت في نفسـها لا بأس. شـيئا فشـيئا سـأعيده إلى حالته الطبيعيـة. واتسـعت نظرتها إليه ثـم نهضت تحمـل بقايا الطعـام والأطباق إلـى المطبخ العلوي. أشـعل هو سـيجارة. عادت غـادة ووقفت أمام الباب تنظر إلى الفضاء الواسـع. تذكر هوعثمـان الذي تأخر حضوره بالصحف فسـمع على الفور سـارينة التاكسـي فابتسـم. قام وتقـدم ناحية البـاب المفتـوح. رأى على الأرض ثلاثة هداهد وغادة تنظر إليها سـعيدة. لقـد رأت غادة هدهدا يبحث عن طعام على الأرض أمس فقالت:

- لم أرَ هدهدا في القاهرة. لم أره إلا هنا حين كنتم تقضون الصيف.

لم تنتظر رده. لقد رأت من قبل قمحا في المطبخ فقامت لتأتي به تنثره على الأرض وقالت:

- سأجعل كل الهداهد تأتي إلى هنا.

الآن ترى الهداهد سعيدة وتقول:

- كما قلت لك أمس. لقد جاءت الهداهد أكثر.

كان عثمان قد توقف بالتاكسـي ونزل منه يتقدم مبتسـما وغادة تقف أمـام الباب. ألقى عليهـا تحية الصباح فردت مبتسـمة. جلس عثمان إلى المنضدة الصغيرة بالباحة وتقدم سامر إليه قادما من الصالة. همس عثمان:

- هل هذه هي المدام فعلا؟

اندهـش سـامر لأن عثمان رأى غادة أمس وسـأله نفس السـؤال. هز سامر رأسه وقال:

- سألتني أمس وقلت لك إنها أختها.

سكت عثمان لحظة ثم قال مبتسما:

- طيب. مادامت أختها معك لماذا لاتخرج معي نصطاد على راحتنا.

- مـاذا جرى لك يا عثمان؟ أنت لسـت صيادا محترفـا والمرة التي كنت معك فيها كدت تغرق وفي الثانية وجدنا قتيلة.

لكـن عثمـان هتـف محدثا غـادة البعيـدة التـي كانت قد عـادت إلى الصالة.

- لوسمحتِ يا مدام. اسمحي لي بكلمة.

جاءت غادة تبتسم فقال:

- أنا أحب الأسـتاذ سـامر جـدا. حاولت أسـاعده ليخرج مـن البقاء هنا وحده ولم يوافق. الآن حضرتك معه. ليتك تشجعينه على الصيد معي اليوم.

وقفت غادة مبتسمة في استغراب فقال سامر:

- يـوم خرجت معـه نصطاد وجدنـا الغريقة وظهر اسـمانا في الصحف. يبدو أن عثمان يريد الشهرة فأنا لا أعرف ماذا سنجد إذا خرجنا اليوم.

لكن غادة قالت:

- أنا رأيي من رأى عثمان. أنا هنا وخذ أنت راحتك. ثم إنني أستطيع أن أطهو السمك كما لا يفعل أحد. اسأل ريم.

قالت ذلك بشكل تلقائي ثم ارتبكت فابتسم سامر وقال:

- إذن سأخرج لأصطاد معك يا عثمان.

ودخل ليرتدي ملابس أخرى فما يرتديه لا يصلح للشاطئ.

جلست غادة بالخارج مع عثمان تدخن سيجارة، وعثمان يجلس أمامها مندهشا وصامتا.

عاد سامر فوجد غادة تضحك ولا تتوقف عن الضحك وعثمان ينظر إليها مسرورا. تساءل سامر:

- حكاية من حكايات عثمان أكيد.

قالت غادة:

- تعال اسمع أنت.

واستمرت تضحك فقال عثمان:

- حكيت لها الكابوس الذي رأيته بالليل. ثلاث مرات أصحو فزعا لأن هدهدًا ينقر في عيني بمنقاره. آي والله.

نظر إليه سامر غير مصدق فقال عثمان:

- الهداهد عرفت أني سبب موت ابنها الصغير. لم أكن أقصد كما تعرف حضرتك. لا أعرف ماذا سيحدث لي بعد هذه الكوابيس. ربنا يستر.

ضحك سامر وعادت غادة إلى الضحك فقال عثمان:

- نقلت المرتبة إلى غرفة أمي ونمت على الأرض. قلت ربما حين لا أكون وحدي تنتهي الكوابيس. لم أشأ أن أنام في غرفة بنتيَّ حتى لا ترتبكا.

- هل لديك ابنتان يا عثمان؟

- الحمد لله والاثنتان في الجامعة.

- لم تقل لي ذلك من قبل.

- يا باشا أقول لك إيه ولا إيه. يكفي ما أنت فيه. ربنا يساعدنا كلنا.

كانت نهاية غريبة للضحك وحل عليهم الصمت للحظات لكن عثمان قال:

- ما رأيك يا أستاذ سامر أن تأتي المدام معنا. هي من القاهرة ولابد أن الشاطئ في الشتاء شيء آخر عنه في الصيف. تأتي معنا وإذا زهقت أعود بها بسرعة.

نظر سامر إلى غادة فاتحا عينيه وبدت هي مرتبكة قليلا. أحس برغبتها في أن تكون معه قال:

- إذن تأتين معنا. قليلا من الوقت وتعودين.

كانت ترتدي بنطلون فوقه بلوزة فدخلت وارتدت جاكت جينز فوق البلوزة وعادت وهو يفكر لماذا فعل ذلك. لماذا استجاب لها؟

- سنركب سيارتي اليوم.

قال سامر ذلك فقال عثمان

- طبعا. المدام لا يجب أن تركب اللادا.

ضحك سامر ونقل عثمان عدة الصيد التي مازالت معه من سيارته، والغلق الصغير والراديو الترانزستور إلى حقيبة سيارة سامر الخلفية وانتبه سامر وسأله:

- لكن ليس معنا «طعم» للسمك.

قال عثمان:

- أحضرته معي. موجود في الغلق. جهزت كل شيء. كنت أعرف أنك ستوافق. المرة القادمة نشتري بوصة وماكينة صيد للمدام أيضا. لازم نخلص سمك العجمي كله.

أحست غادة بشيء من الفرح. وأحس سامر أن هذه البهجة ربما لا تتكرر تحرك سامر بسيارته في الشوارع الرملية الضيقة وبين الفلل المهجورة. كان عثمان يفكر من هي ريم التي تقول مدام غادة لسامر أن يسألها. هل هي زوجته؟ لابد. لكن لن يسأله. سيعرف فيما بعد. ثم ما فائدة السؤال.

سكت عثمان وهو يضع كفيه حوله على المقعد الوثير يلمس نعومته ودفأه من التكييف الذي أداره سامر ويشعر بالنعمة فوق قدرته على التحمل حقا لكنه أيضا قرر أن يشعر بالسعادة. قال سامر:

- ألا ترى يا عثمان أنه لايوجد كلاب ولا قطط هذه المرة؟

- صحيح. أمر غريب.

- أنا أخاف من الكلاب هل هي على الشاطئ؟

تساءلت غادة فقال سامر:

- لا أظن أنها تخرج إليه. لكنها قابلتنا كثيرا في الطريق من قبل.

قبل الوصول إلى الشاطئ ظهر أمام إحدى الفلل المهجورة رجلان يرتديان زيا بدويا ورجلان يرتديان البدلة وامرأة في حوالي الخمسين تقف بينهم شعرها يطيره الهواء.

- ما هذا؟

تساءل سامر فقال عثمان:

- ربنا يستر.

اقترب منهم سامر بسيارته. كانت ثلاث سيارات متوقفة. اثنتان قديمتان قليلا ماركة شيفروليه والثانية بي إم دبليو حديثة. قال عثمان:

- هؤلاء البدو يبدون أصحاب أرض في العجمي.

هدأ سامر من سرعته متعمدا وفتح نافذتي السيارة الأماميتين ربما يسمع شيئا. وبالفعل سمع المرأة تقول ضاحكة بصوت عال:

- من قال لكم إنه حدثت جريمة قتل في الفيلا. هذه حكاية روّجها السمسار لأنه طلب مني عمولة كبيرة ورفضت.

أسرع سامر قليلا. قالت غادة:

- واضح أنهم يشترون فيلّتها.

قال عثمان:

- مسكينة. تبيع في الشتاء. في الصيف ترتفع الأسعار.

قال سامر:

- الآن تساوى الصيف مع الشتاء. لقد حل الخراب.

وكان الهواء قادما بقوة. لم يغلق سامر النافذتين مرة أخرى وأوقف تكييف السيارة.

- هل اقتربنا؟ لقد ابتعدنا كثيرا عن بيانكي.

تساءلت غادة فقال سامر:

- ها هو البحر.

كان الشارع قد انتهى وظهر البحر متسعا على الناحيتين وممتدا أمامهم والموج هادر يتدافع عاليا إلى الشاطئ. توقف سامر فقالت غادة ضاحكة:

- مشهد مخيف. كأننا أمام المحيط.

لم تعرف غادة ماذا فعلت في روحه بكلمتها. هل كانت تقصد؟ هل حكت لها ريم عما رأياه في لاروشيل حين زاراها مرة ثانية هي وسامر

على الشاطئ يوم أن حدث الجزر في مياه المحيط وظهرت القوارب واليخوت على القاع وكيف شاهدا رجلا وصبيين هما ابناه يجلسون يمدون البوص فوق ماء غير موجود، ويمتد الخيط إلى القاع الرملي المتعرج التي تظهر فيه المياه القليلة في بعض منخفضاته. يومها لفت نظرهما تجمع عدد من الفرنسيين حول الرجل وابنيه يضحكون ويستمرون في طريقهم ويتجمع غيرهم. أقبلا هما أيضا فرأيا المشهد. الرجل الذي يبدو في الخمسين وابناه اللذان تجاوز أحدهما الخامسة عشرة بينما الثاني يبدو لم يتجاوزها. كل منهم يمسك بالبوصة ويضحك. حانت التفاتة من الرجل إلى الخلف يرى الناس حوله مندهشين ويبتسم لهم. أدرك سامر أنه مصري من ملامحه فتقدم منه وسأله مبتسما ومندهشا:

- ماذا تفعل هنا؟

نظر إليه الرجل وهو جالس وابتسم ثم قال:

- كيف عرفت أني أتحدث العربية؟

- تبدو مصريا جدا.

لكن الرجل نظر إلى ريم لحظة ثم وقف والبوصة في يده وقال:

- أهلا بالفنانة العظيمة ريم.

نظرت إليه مبتسمة وقالت:

- هل تعرفني؟

- طبعا. أنا أديب مصري أحب الموسيقى، حضرت لك حفلات كثيرة في الأوبرا.

ارتبكت ريم لحظة ثم قالت:

- آسفة إذا لم أكن أعرف حضرتك.

- اسمي أحمد حسن إبراهيم.

ابتسمت وبدت عليها السعادة.

- آسفة بجد يا أستاذ أحمد. كيف لم أعرفك وأنا إحدى قرائك؟

كان سامر يقف مبتسما أيضا ثم قال:

- أنا عرفت حضرتك من البداية لكن المفاجأة جعلتني أتريث. حضرتك لك مكان جميل في قلوبنا أنا وريم وأصدقاء لنا كثيرون أيضا.

- أنا سعيد جدا بلقائكما هنا.

- لكن قل لي ماذا تفعلون حقا؟

تساءل سامر ضاحكا فقال أحمد حسن إبراهيم

- هذان ابناي. جئت هنا في إقامة ثلاثة أشهر منحتها لي جامعة بواتييه. الولدان كل يوم يقولان لي إنهما يريدان الصيد في المحيط. نحن أصلا من السويس. اشتريت ثلاث ماكينات صيد وأتينا هنا اليوم فوجدنا المحيط في حالة جزر. قلت لهما لن نعود صفر الأيدي. نجلس كأننا نصطاد نضيع الوقت الذي كنا سنضيعه. وربما تكون هناك سمكة لم تلحق بالماء العائد!

ضحك الثلاثة وضحكوا أكثر والابن الأصغر يرفع البو صة بالخيط والصنارة الخالية هاتفا سمكة سمكة. والثاني يقول فين فين. ثم يضحكان.

قال أحمد حسن ابراهيم:

- كما ترى. يعيشان اللحظة.

ضحكوا من جديد. قال سامر:

- يبدو أنهما فنانان مثل أبيهما.

واتفقا على موعد للقاء في مقهى «لا مارين». قال أحمد حسن إبراهيم إنه يحب أن يجلس ويكتب فيه.

التقيا أكثر من مرة. لقد عرفا من أحمد حسن ابراهيم أنه فقد زوجته بسبب السرطان اللعين منذ عام وجاءت هذه المنحة في وقتها. هونت عليه كثيرا.

نظرا إليه بإشفاق فقال:

- استراحة بعض الوقت.

كيف حقا لم يلتقِ بهذا الكاتب بعد ذلك في مصر ولو مرة. وهل لو قابله الآن وحكى له ماجرى مع ريم يمكن أن يكتب قصتها؟

كان عثمان قد ألقى بخيطه إلى الماء ثم قال:

- هيا يا أستاذ ارمِ بالصنارة إلى البحر.

لكن سامر قال هامسا:

- ما رأيك يا غادة أن القي بالصنارة إلى الماء وأعطيك البوصة وأتركك قليلا مع عثمان.

نظرت إليه مندهشة مرتبكة فقال:

- شعرت ببعض القلق لكن لا أريد أن أظهر ذلك لعثمان. اقضي معه وقتا طيبا وسأنتظركما في الفيلَّا.

لم ينتظر ردها وهي تقف ساهمة فقال لعثمان:

- سأترك معك مادام غادة وأعود وسأترك السيارة أيضا.

- لكننا سنتأخر يا أستاذ.

- لا عليك وقد أعود إليكما مرة أخرى.

- ستعود ماشيا؟ ربما تقابلك كلاب كثيرة. أجل من يعرف ربما اختفت الكلاب لتظهر فجأة.

ابتسم سامر وقال:

- لا عليك.

وألقى بالصنارة إلى الماء وهدير الموج قد ازداد وحركة الهواء صارت أقوى وكادت تطيره من مكانه وهو يلقي بالخيط بقوة. ثم أعطى

البوصة لغادة التي كانت تحاول أن تجمع شعرها الطائر حول وجهها، والتي أدركت أنه لابد يريد أن ينفرد بالجلوس إلى ريم. كان يمكن أن يفعل ذلك وهي في الحديقة مثلا. لماذا جاء بها إلى هنا ليعود؟ لابد أن الفكرة جاءته الآن أو أن حاجته لذلك قفزت إلى روحه. مسكين يا سامر. قالت لنفسها بعد أن تناولت البوصة منه. سأظل ألتمس لك الأعذار وأحبك وأنت لا تشعر يا حبيبي.

كيف مشى هذه المسافة دون أن يشعر. هل كان يسرع في الطريق. كيف لم يرَ شيئا حوله. كيف غامت الدنيا في عينيه رغم ضوء الشمس الشفيف؟ اكتشف أن الدمع يتحرك في عينيه. لقد وصل في النهاية وقبل أن يفتح باب الفيلَّا هبط هدهد ثم آخر في الباحة. ما إن فتح الباب حتى دخلا إلى الصالة بينما صعد هو مسرعا إلى أعلى. وقف أمام ريم الممددة مكانها. رأى دمعا ينزل من عينيها. دمعتان تتمددان على مهل على وجنتيها.

- لا تبكي يا حبيبة الروح. لقد رأيتك تبكين لكن لم يكن ليصدقني أحد.

قال ذلك ذاهلا وانهارعلى المقعد أمام جسدها يمسك بيدها اليسرى الخالية من الكانيولا يقبلها ويمد يده إلى علبة المناديل الورقية يسحب منديلا يجفف به الدمعة التي توقفت على خدها وشعر بها متماسكة كأنها من زئبق وليس من ماء فوضع رأسه على صدرها:

- لن أتركك أبدا بعد اليوم. لن أتركك لأحد. ليست إلا يدي طبيبك ونجدتك. وليسامحني الله على ما ارتكبت من خطأ.

14

- أخشى أن أتكلم فتسيء فهمي.

- لا طبعا. تكلمي.

كانا يقفان في الغرفة العليا أمام ريم المسجاة كما هي فوق السرير. لاشيء تغير فيها غير أن العطر يملأ الغرفة من جسدها وثيابها. نفس العطر الذي تعطر به غادة نفسها.

جلست غادة على المقعد فجلس أمامها لكنها أطرقت برأسها صامتة فقال:

- تكلمي يا غادة.

نظرت إليه وهمست:

- أخشى أن تسمعنا ريم.

ارتبك للحظة وقبل أن يفكر فيما تقصد قالت:

- أجل يمكن جدا أن تسمعنا.

اتسعت عيناه بدهشة أكبر. ليست أول مرة يتكلمان أمام ريم. أحيانا يجلسان أمامها طويلا ويتكلمان فلماذا تقول ذلك اليوم. لا يمكن أن تقصد ما يفكر فيه هو. هو حقا يحاول جاهدا أن يبعد عن نفسه كل رغبة في غادة. ويستطيع حتى الآن. بينما الرغبة تزداد في روحه وتشتعل كثيرا في جسده وهو يكبتها ويبتعد قبل أن يبدي أي إشارة. حتى حين يسهران يتحدثان بعيدا عن الحالة الخاصة بريم ويشربان الويسكي يتحدثان في كل شيء في الفن والحياة في مصر ولا يتحدثان عن ريم ولا يبدي أي إشارة برغبته الجنسية التي تتحرك. قالت مرتبكة:

- في الحقيقة لا أعرف هل يمكن أن تسمعنا أم لا. لكنني أشعر أنها يمكن أن تسمعنا.

قالت ذلك وعيناها العسليتان تتسعان وهي تنظر إليه. يعرف لغة عينيها منذ تعرّف عليها. كثيرا ما كان يراها تختلس النظر إليه وهو غافل عنها، لكنه في لحظة غير مقصودة ينظر إليها فيرى نظرتها العميقة والمليئة بالإعجاب والرغبة. حتى بعد أن بدا أنها يئست من إقامة علاقة معه في الأوقات التي تسافر فيها ريم في الخارج. أكثر من مرة ولا تضيع نظرتها المختلسة إليه ولا يضيع اكتشافه غير المقصود لها. هي الآن إذن تطلب أن يخرجا من الغرفة التي لا يسمعان فيها حتى أنفاس ريم، بل يريان فقط صدرها يرتفع وينخفض بهدوء وهذا يكفي للاطمئنان عليها.

كان المطر لا يكف في الخارج. لم يكن هناك برق أو رعد لكن صوت المطر لا ينقطع. ما الذي يمنع أن يخرج من هنا إلى غرفة أخرى

يتحدثـان حقـا؟ تحدثا من قبل كثيـرا في الصالة التي ارتفعـت فيها المياه بشـكل يغيظ. كانت مكان سهرهما حتى الفجر في الخمسة أيام السابقة. وجد نفسه يقول:

- إذن نذهب إلى غرفتك.

ووقف فوقفت. تقدمت أمامه حتى خرجا ودخلا غرفتها. لم يجلس. استدار وظل واقفا وسألها:

- لن تسمعنا هنا.

- مؤكد. ولأن ما سأقوله قد يشي بالنهاية فقد يجعلها ذلك تختار الرحيل بسرعة. آسفة لكن لا تلمني أنا أعرف كبرياءها.

قالـت ذلك وهـي تمد يدها إلى أحد أزرار جاكت "الترينينج سـوت" الشـتوي الـذي يرتديه. كان يخشـى من رغبته أن تغلبـه الليلة. لقد كادت تحملـه عـن الأرض أمس بعد أن دخل غرفته ينام. خمسـة أيـام مع غادة وحدهما. تريده من زمان وهو يعرف ويبتعد عنها لكنه الآن أمضى عامين بلا امرأة. ذلك الذي لم يقله لها حين سألته لماذا حقا تركهما على الشاطئ منذ يومين هي وعثمان. لم يستطع أن يقول إنه فجأة أحس بالرغبة فيها قد تجعله يهجم عليها غافلا وجود عثمان نفسه. الخطيئة التي قد يغفرها الله لكنه لن يغفرها لنفسه.

كانت حركة أصابعها حول الزرار تحرك فيه رعشة خفيفة أخفاها ولم يتقدم أكثر ناحيتها. قالت:

- مـن الصعب جـدا أن ننقل ريم إلى العين االسـخنة. هي حقا في غيبوبة لكن من قال إن هؤلاء لا يشعرون. قد تشعر بالطريق وتفكر أنها تذهب إلى ما لا تعرفه. إلى النهاية التي لا تبدو واضحة لها.

كادت الدهشــة تعلو وجهه، وأحس برائحة عطرها تزداد حوله. لكنها قالت:

- باختصار من الصعب أن ننقلها إلى أي مكان.

قال محاولا البعد عما يشعر به.

- أفكر أن أصنع سلما من الخشب يمتد من الحديقة إلى غرفتها ونتستغني عن الدور الأول هذا.

وكان قد أمســك بيدهـا ليبعدها عن صدره. لكنه بعـد أن أبعدها نظر في عينيها العسليتين فوجدهما متسعتين إلى غايتهما. اقتربت منه فتراجع قليلا فقالت:

- سأتركك هنا. عد أنت واجلس قليلا مع ريم. لقد قلت ما أريد!

وتركت الغرفة مسرعة. نزلت السلم وهو في دهشة. هل هذا ما أرادت أن تقولـه حقا؟ لكنه سـمع صوت البيانو يرتفع. إنها تعزف بسـرعة وقوة لتنفـس رغبـة كادت تفجرها. هو أيضا يكاد ينفجر ويشـعر بشـيء داخله يدفعـه بسـرعة إلى النزول. يشـعر بنار ترتفع في جسـده. لكنه تماسـك ونزل السـلم علـى مهل. بدت له وهوينزل ذاهلة عنـه، تتحرك يداها بقوة وتهتـز رأسـها وشـعرها الأصفـر الغزير ولا يعـرف متى خلعـت الروب

بسرعة هكذا من أعلاها فقط وتركته خلفها بينها وبين ظهر المقعد، فظهر ذراعاها الجميلان الرشيقان وكتفاها المستديرتان من الجلباب الذي ترتديه تحت الروب. هل خلعت الروب ضيقا مما يكاد يفجر صدرها أم خلعته لأنها تعرف أنه سينزل. لابد أنه الضيق فهي لا تقف في المطبخ إلا وذراعاها عاريتان. وهي دائما في الصيف ترتدي ملابس عارية الذراعين. ثم إنها كثيرا ما جاءت هنا وارتدت المايوه في الصيف مع ريم. لا شيء من الإغراء تقصده لكنه الضيق الذي يكاد يفجرها. إنها حتى لم تنتبه إلى الماء الظاهر فوق الأرض الذي علا أكثر من الأمس يعلو فوق الشبشب ويصل قدميها. هو أيضا يعلو الماء فوق شبشبه. لقد تركت نهايتي الروب وجلبابها الأزرق تحتها ينغمسان في الماء. كما أنه الضيق ولا شيء غيره هو الذي جعله ينزل بسرعة مشتعلا ويقف وراءها يحيطها بذراعيه وهي تضرب على مفاتيح البيانو ولا تتوقف. يزداد ارتفاع صوت البيانو وهي تحرك رأسها بعيدا عن وجهه، وهو يلثم عنقها وتكاد تطبق رأسها عليه ولا تتوقف عن العزف حتى التفتت إليه تاركة البيانو فهبط فمه على فمها يقبلها بقوة، فوقفت تتأوه واندفعت إليه فضمها وهي تقبله بشراهة فكاد ينحني بها إلى الأرض. لا. همست. أدرك أنه سينزل معها إلى الماء فحملها على صدره لا يبتعد فمه عنها ودخل بها إلى الغرفة القريبة فرأى الماء بها قد ازداد أيضا عن الأمس. لم يهتم. لقد نام أمس في إحدى الغرف العلوية ونامت غادة ولابد أنها مثله لم تنم مع ريم وظلت تفكر فيه طول الليل كما كان يفكر فيها. أراحها على السرير وصعد فوقها فضمته إليها لكنه تراجع قليلا وراح يخلع عنها ملابسها

وهـي أيضا راحت تخلع عنه ملابسـه. كلاهما كان أسـرع من الآخر. في لحظة كاد يتراجع لكنه استسلم فما يشعر به من رغبة يهدم الجدران.

لن تنهدم الدنيا إذا أخطأ وريم لن تدرك ذلك.

غـادة بدورهـا أغمضت عينيهـا واستسـلمت وانخفضـت تأوهاتها، ليـس حتـى لا يرتفـع صوتهـا، لكـن لأنها صـارت فـي أعلى قمـة جبل عجيـب ليس فوقه غير السـحب المنخفضة تمسـكها بيدهـا تبعدها عنها في حنان، وتشـعر أن من جسـدها تخرج نيازك حارقة تترك وراءها نيازك حارقة أخرى ولا تسـتطيع أن تقاوم. الانهيار هـو النهاية الوحيدة الباقية. هـي تشـتهيه وهو يتخلص مـن رغبة قمعهـا عامين. هي تقبـل في صدره علـى مهل وترتشـف من رائحته وهو يعمل فيها بقوة وسـرعة الذي يفتح الأبواب للحرائق لتخرج إلى الفضاء. إلى الملكوت.

لـم تسـتطع أن تتحمل ما يقفز مـن روحها من عـذاب فارتفع صوتها تتـأوه فانتبه، لكنها سـرعان ما أغمضت عينيها وراحت تفتح سـاقيها إلى أبعد مدى كأنما يهبط جسدها إلى أسفل في قاع كهف مسحور وهو معها بينما تبتعد ساقاها إعلانا عن راحة بحجم الكون تسري في جسدها. لكنه صار فجاة مثل ماكينة لا تتوقف وانتهى مسترخيا فوقها والعرق يتناثر من وجهه ويسـري عبر عنقه. لقد أحسـت بجسـده كله امتلأ بالعرق. صدره الذي لان فيه شعره المبتل الآن.

اسـترخت سـاقاها وبراحتيها على صـدره أبعدته برفـق فتقلب على جانبـه ثم اسـتلقى على ظهره وصـارت عيناه معلقتين بالسـقف والنجفة التي لم يطفئها وساد سكون بدا أنه لا أحد سيتكلم بعده إلى الأبد.

لم يعد يعرف أين هو بحق. كل هذا الألم خرج من جسده. في لحظة في البداية كاد يتراجع كل شيء فيه، ففكر على الفور أن يتخيلها ريم، لكنه تحدى نفسه ورآها هي غادة الجميلة بحق الشهية التي منع نفسه عنها سنوات.

سمعها تقول هامسة:

- بسرعة كده؟

انفتحت عيناه أكثر. هو لا يشعر بالزمن حقا ويبدو له أنه غاب أكثر مما ينبغي. لكن لا لقد تعود مع ريم إذا كاد ينتهي يشرد في أي شيء يؤخر من لحظة قذفه حتى يعجز عن الشرود فينتهي. حقا كان لا يتلذذ كثيرا لكنه يعرف أن ريم تتلذذ بتأخره وهو لا يريد إلا أن يفي لريم بما تريد.

هذه المرة انفتحت أبواب الشبق ولم يحاول الاستغراق في أى فكرة بعيدا عنها. إذن انتهى الأمر بسرعة كما تقول.

وجد نفسه يستدير إليها مبتسما ويأخذها في حضنه من جديد ويظلان صامتين لحظات استيقظت فيها الرغبة مرة أخرى. هل يفعلها؟ سيفعلها. سيصل بالخطيئة إلى غايتها.

أدرك أن هذا تفكير شيطاني. لكنه هذه المرة لابد أن يكافئ غادة. انتظرته طويلا ثم هبطت عليه من السماء! ألم يحاول هو أن يختفي عن الجميع؟ القدر صنع اللقاء.

راح يداعبها بأنامله ويمشي بها على جسدها كله ويتوقف فوق الأماكن التي تتوقف عندها الروح ويمشي عليها بهدوء ثم بقوة. كان كثيرا أيام الزواج الأولى ما يقرأ لريم روايات هنري ميللر قبل أن يباشرها فتخلع ثيابها شيئا فشيئا مع تقدمه في القراءة وترديده للألفاظ الجنسية ومسمياتها الفجة وكانت أحيانا تضحك وتضمه إليها وتلف حوله ساقها. فعل ذلك بعد أن وقعت عيناه على روايات هنري ميلر في مكتبة شيكسبير في باريس بالحي اللاتيني. كان قد قرأ شيئا عنه وعرف ماذا يكتب وكيف يكتب وهكذا قرأ «مدارالجدي» و«مدار السرطان» ولم يكن يحب استخدام الأفلام البورنو ولا السيديهات بعد ظهورها فهو لا يريد أن ينظر إلى شيء أمامه غير ريم التي بجواره، رغم أنه يعرف كثيرا من رجال الأعمال لهم شقق لا تعرفها زوجاتهم بها شاشات عرض متصلة بالتليفزيون، وتمتلئ بالنساء الراقيات في المجتمع الذي لا يعرف أحد حقيقته، ويمضون بهذه الشقق أوقاتهم السرية. لم يفعل ذلك أبدا رغم ما يسمعه من حكايات. هو لا يمارس الجنس إلا مع من يحب ولم يمارسه إلا مع ريم.

لكنه مارسه اليوم باستغراق فاق قدرته على التصور، فهل يكون قد أحب غادة في هذه الأيام القليلة أم يكون يحبها من قبل ولا يدري؟ هي رغم محاصرتها كثيرا له لم تبدُ أبدا فجة. كانت تتراجع في اللحظة التي تشعر فيها بعدم الاستجابة، بل تأخر الاستجابة. هي فنانة حقيقية مثل ريم وإن كانت أقل موهبة واحترافا منها فقد صارت بديلا لها. هي أيضا

أرستقراطية المنشأ مثل ريم. لكنها في النهاية والبداية امرأة كما أنه رجل. من المؤكد أن غادة الآن لا تتذكر من عملها شيئا ولا من موهبتها، كما لايتذكر هو شيئا من حبه للتحف الشرقية.

بدا أن غادة قد ضاعت تحت أنامله وقبلاته لكل مكان من جسدها. لقد رآها أغمضت عينيها وفقدت الوعي بحق وخرجت من صدرها فجأة شهقة تقترب من الشخير ثم تنهيدة. لقد نامت. فوق السرير هل تختلف الملكة عن الخادمة! ابتسم وهو يقول لنفسه ذلك.

- ريم.

هتف. فتحت عينيها فاستدرك:

- غادة. أين ذهبت؟

قالت باسمة:

- نمت.

ضحك وضمها إلى صدره وعاد من جديد يداعب جسمها بيديه وشفتيه. أحس أنه سبقها في الدخول إلى عالم النشوة والاقتراب من الأورجازم. صارت هي نارا تحته وجواره لا يعرف. في النهاية صارت تحته وانتهى وتمدد جوارها من جديد فانكفأت عليه وأحاطت صدره بذراعها وقالت هامسة:

- الله.

إذن اخترق حصونها وبدد حراسها ولم تقل له بسرعة هكذا مرة أخرى! لقد قدمت له ما افتقده في عامين وقدم لها ما انتظرته أعواما. لكن هل سيستطيع أن يفعل ذلك مرة أخرى؟ هل لن ينفتح الباب لتأنيب الضمير عنده أو عندها. الأفضل أن ينهض ليستحم الآن ويذهب إلى غرفته يقرأ الصحف. لن يترك رغبته أن ينام هنا جوارها حتى الصباح تتحقق. فوجئ بها تقول:

- لابد من الاستحمام بسرعة. لقد تأخرت كثيرا على ريم وأخشى أن يكون قد حدث لها شيء.

وقفت عارية تضع الروب على جسمها وثدياها يهتزان أمامه ثم أسرعت صاعدة، فهي كما يفعل هو لا تستخدم الحمام الأسفل الذي ارتفعت فيه المياه أكثر مما يتوقع أي أحد، ولم يعد السبب مجرد انخفاض سقفه.

قال لنفسه ليست المسألة صعبة إذن يا سامر. لقد حرمت نفسك كثيرا مما منحك الله لتؤديه. وحرمت نفسك سنوات طويلة من عشق النساء رغم أن العالم واسع حولك دائما بحكم وضعك الاجتماعي وبحكم ثروتك وبحكم طيبة وحب ريم لك الذي لم تصدق أنت أنه يمكن أن يجد مثله أحد أو يتكرر.

وتذكر أعداد النساء اللاتي قدمن له ما يكفي من الإشارات ليقترب ويفتحن له أبواب السرور. عشرات لايمكن إحصاؤهن وغادة ماهي إلا واحدة منهن فقط. لقد ضعن جميعا حقا وطوتهن الحياة، وكان إذا حدث والتقى مع واحدة منهن صدفة تقدم له زوجها قائلة «زوجي» بقوة

وشـماتة فيـه رغم أنه رجـل أيضا وزوج. لكنه كان يـدرك أنهن كن كأنما يعلـن له «ولا الحوجة ليك» كان يكتفي بالابتسـام وهو يعرف أنه لو فتح الباب لأيهن ستدخله رغم أن لها زوجا كما تقول. وبعضهن التقى معهن فـي حفلات كثيـرة كان يصافحهن فيصافحنه ببرود كأنهـن لم يعرفنه من قبل. يدرك السـبب لكنه كان يشعر بالسعادة فهو لـم يخن ريم ولـم يقترف ذنبا بشأنها ويحمد الله على هذا الحب عنده وعندها.

عادت غادة ملفوفة عارية في باشكير كبير وبين يديها ملابس نوم غير التي خلعتها وألقت بها إلى الأرض. قالت هامسة في دهشة:

- خفت جدا أن أجد ريم في طريقي وأنا طالعة أو نازلة. حتى في غرفتي خفت. أحضرت ثيابي أرتديها هنا.

نظر إليها وقت انفتحت عيناه على آخرها فقالت:

- اصعـد أنت إلى الحمام وسـأرتدي أنا ثيابي وأصعـد إلى ريم. أرجوك لا تدخل عليَّ الحجرة وأنا معها الليلة.

وبـدا حزن شـفيف على وجهها فوقـف أمامها. سـقطت دمعتان من عينيهـا أمامه فضمهـا إليه لحظات حتـى أبعدته برفق فخـرج وصعد إلى الحمام. ما إن وقف تحت الماء الساخن حتى قال لنفسه «سيكون عليك أن تخفف عن نفسك ما ارتكبت من خطيئة وعن غادة أيضا».

لكـن هل تشـعر غادة بالذنـب حقا؟ أم هـي لا تصدق أنهـا نالت منه ما تريد؟ إلى هذا الحد كانت تتعذب بحبه؟ ربما برغبتها فيه. لا فرق. هي فنانة يختلط عندها الحب بالرغبة فيبدوان شيئا واحدا لاعلاقة له بالذنب والخطيئة، لكن يتجاوز الأرض إلى سرمد من الفناء الجميل.

15

صمت حط على المكان. في الصباح جلس سامر في الباحة وحده بينما تقوم غادة بعملها في رعاية ريم. حضر السائق عثمان وألقى بحماس تحية الصباح فرد عليه بصوت هادئ لم يسمعه عثمان الذي وضع الصحف أمامه ونظر إليه في دهشة يقول:

- يبدو أن اليوم سيكون غير عادي. رأيت أمام قسم شرطة العجمي زحاما من الناس فسألت أحدهم ما الذي يحدث ولماذا هذا الزحام. قال لي إن هناك قتيلا داخل القسم قتلته الشرطة وهم أهله محتجون.

نظر إليه سامر في دهشة ولم يرد فقال عثمان:

- كنت أفكر أن نصطاد اليوم معا لكن يبدو أنه لن تكون هناك فرصة رغم أن الجو جميل صاف.

لم يرد سامر أيضا فقال عثمان:

- إذن أترك سيادتك اليوم.

وانصرف عثمان مسرعا مندهشا. ما إن وصل إلى التاكسي حتى ركبه وانطلق به مختفيا يفكر لماذا يبدو سامر شاردا كثيرا اليوم.

ترك سامر الصحف على المنضدة ودخل إلى الفيلَّا التي وضع على أرضية صالتها المغطاة بالماء بعض الحجارة صار يمشي فوقها في دخوله وخروجه. دخل غرفته وارتدي ملابس خروج شتوية وغادر الغرفة ليرى غادة أمامه. قالت مندهشة:

- إلى أين أنت ذاهب؟ لم تتناول إفطارك.

أجاب:

- سأعود بعد قليل.

انصرف بسرعة وركب سيارته ثم قادها تاركا المكان. أين يذهب الآن حقا؟ ليبتعد عن المنطقة قدر ما يستطيع. ليذهب إلى محطة الرمل وهناك يرى ماذا سيفعل.

ما إن وصل إلى حي المكس حتى توقف. لقد أدرك أنه أكثر من مرة كاد يصطدم بسيارة أمامه أو جواره. قرصه الجوع هو الذي عادة تكفيه كوب من النسكافيه باللبن تسد نفسه لساعات حتى لو لم يتناول إفطاره. رأى على يساره كازينو ومطعم زفير. لن يدخل يجلس فيه وحده. لا يريد حزنا يتدفق مع بداية اليوم. ما أكثر المرات التي تناول فيها الأسماك الشهية مع ريم في القاعة الملكية التي تعيد سحر القديم. ابتعد وقطع الجزء الأكبر من الطريق قبل أن يدخل شارع المكس الذي سيأخذه إلى أحياء الورديان والقباري ومينا البصل وشارع السبع بنات والمنشية في النهاية. لن يذهب إلى محطة الرمل.

استدار بسيارته وتوجه إلى الشاطئ. مشى قليلا بالسيارة فرأى باعة الأسماك على الناحيتين. المشهد الذي يحبه وكانت تحبه ريم. كانت تحب أن تقف أحيانا مع الطاهية علياء التي كانت تزورهم ثلاث مرات في الأسبوع تطهو لهم ما يشاءون من أسماك أو لحم أو دجاج. كل شيء جميل كانت تفعله هذه السيدة. ضاع رقم تليفونها من الموبايل. والأجندة التي بها أرقام التليفونات المهمة في الإسكندرية هناك في الفيلا. كل شيء خاص بالإسكندرية أهمله في السنوات التي لم يأتِ فيها إلى العجمي. لكن هل يريد أن يراها حقا؟ لم يترك الفيلّا من أجل ذلك لكنه وصل إلى هنا وتوقف فتذكرها. إذن فليرها. الحديث مع البسطاء دواء. عثمان نموذج لكن لا بأس أن يضيف إليه امرأة.

يعرف أنها تقطن هنا على شاطئ الترعة التي تصب في البحر. هنا في الترعة الصغيرة قوارب الصيد المركونة وعلى ضفتيها البيوت الصغيرة.

«الله. فينيسيا الإسكندرية».

هكذا صاحت ريم حين جاء بها هنا أول مرة بعد أن عرفا طريق الطاهية علياء من إحدى العائلات التي هجرت العجمي أيضا فيما بعد.

هل إذا قابل علياء سيرتاح؟ ماذا يمكن أن يقول لها وتقول له؟ وماذا ستفعل ولماذا يفكر فيها الآن. وهل جاء ليراها حقا؟ هو المكان الذي ذكره بكل شيء. مؤكد أنه يريد أن ينشغل بشيء جديد. أي شيء.

كان قد توقف بسيارته وهو يفكر في ذلك كله. فجأة انتبه أن هناك وجها يطل عليه من الرصيف لفتاة في حوالي السادسة عشرة من عمرها ترتدي فستانا جميلا. كانت تنظر إليه بإمعان كأنها تعرفه. ابتسمت له وهو يفكر أين رآها من قبل. تقدمت إليه وهو في حيرة من أمرها وأمره. لم يكن قد دخل بين زحام المشترين للأسماك من الباعة الفارشين بضاعتهم على جانبي الشارع وعلى الرصيف، ورائحة السمك الخفيفة تختلط برائحة اليود القادمة من البحر. رآها تتجه إليه وتزداد ابتسامتها ثم تهتف مبتهجة:

- عمو سامر. فاكرني حضرتك؟

- أنت زهرة.

اتسعت ابتسامتها وقالت:

- صح.

قال:

- كنت أفكر في ماما الآن. لقد كبرتِ فجأة يا زهرة وأصبحتِ عروسة.

- أشكر حضرتك جدا.

- كيف حالكم.

- بخير. ماما دايما تذكر حضرتك ومدام ريم بالخير. ماما نفسها تشوف حضرتك ومدام ريم.

إنها ابنة الطاهية علياء. كانت تصحبها أحيانا منذ سنوات. كانت تقول له دائما عمو سامر لكن علياء أمها تقول لها أن تناديه بسامر بيه ويضحك هو ويقول «وعمو سـامر جميلة جدا». لقد نضجت زهرة وخرطها خرّاط البنات كما يقال. لقد قفز اسمها إليه حين اقتربت منه. سألها:

- أين ماما الآن؟

- في البيت.

- بيتكم قريب. أنا أتذكره.

- قريب جدا.

وسألته في فرح:

- حضرتك ستأتي الآن؟

هز رأسه مبتسما وقال:

- سآتي معك. انتظريني.

قاد سيارته إلى مكان قريب من أحد أكشاك بيع السمك وركنها جوار الرصيف وتركها قائلا لصاحب الكشك:

- لن أتأخر. ساعة على الأكثر. سأتركها أمانة عندك.

قال الرجل وهو ينظر إليه بإمعان:

- حضرتك تؤمر يا سامر بيه.

أدهشه أن الرجل يعرفه لكن الرجل قال:

- شفت صورة حضرتك في الجرنال.

وقف مندهشا. هل ظهرت صورته مرة أخرى حقا؟ لكن الرجل قال:

- ابنتي تحب الموسيقى جدا. تعزف في مدرسة الورديان الثانوية للبنات. تجمع كل أخبار الموسيقيين. أمس اشترت مجلة الكواكب وكان هناك صور لمدام حضرتك الفنانة ريم ولمدام تانية أظن اسمها غادة. الخبر يقول اختفاء عازفة الأوبرا الثانية ولا أحد يعرف مكانها. صورة حضرتك معهما.

ظل مندهشا. في الحقيقة مذهولا فقال الرجل صاحب الكشك:

- الجرايد والمجلات دائما تكذب. حضرتك تقف أمامي الآن فلماذا يقولون ذلك؟

تماسك وابتسم ثم قال:

- أنت أجبت. أخبار لجذب القراء فقط. أنا هنا وزوجتي وغادة أيضا.

- في المكس؟

تردد لحظة ثم قال:

- في الساحل. في القرية الدبلوماسية. مريحين أدمغتنا قليلا وبعيدا عن الزحام. سلام عليكم.

وتركه بسرعة قبل أن يستمر في الكلام. لكنه راح يفكر كيف حقا صار ما تصوره سرًّا، عراء كاملا كل شيء فيه مكشوف لأي عابر سبيل. هل يعيش كذبة صنعها بيده ولا يدري؟

راح يفكر كيف عرفت غادة أنه بالإسكندرية ولم يعرف زملاؤها. لقد عرفت الخبر من الصحف ولابد أنهم عرفوا. هل عليه أن يشتري المجلات أيضا الآن؟ لكنه مشى مع زهرة التي كانت تضحك وتبدو سعيدة وتقول:

- ماما ستفرح جدا.

كان صامتا ومبتسما من أثر الدهشة التي لم تفارقه. ينظر حوله إلى البيوت الصغيرة المنخفضة على جانبي الترعة وألوان جدرانها الجميلة والرسوم التشكيلية التي عليها. قالت زهرة:

- فيه شبان من كلية الفنون جاءوا هنا كثيرا ورسموا الرسوم الجميلة على جدران البيوت. بصراحة المنطقة تغيرت. فعلا أصبحنا مثل فينيسيا.

ابتسم وسألها:

- هل تعرفين فينيسيا يا زهرة؟

- طبعا. البندقية في إيطاليا. أنا في تانية ثانوي وأشطر تلميذة في الجغرافيا.

ضحك ومشى ولاحظ أنها تسرع في مشيها فأدرك كم سعادتها وصلا إلى باب البيت الخشبي الأزرق على الشاطئ المنحدر وفتحت زهرة الباب بمفتاح معها ودخلت قائلة «تفضل» ثم ارتفع صوتها تقول.

- ماما ماما أنا معي مفاجأة حلوة.

أشارت إليه أن يجلس في الصالة الصغيرة التي بدت له مرتبة الأثاث أنيقة. ودخلت زهرة إحدى الغرف وانقطع الصوت. رأى بسرعة على الباب السيدة علياء تقف في جلباب منزلي فوقه روب أنيق قائلة في سعادة:

- لا أصدق نفسي. سامر بيه عندنا!

تقدمت هاشة تصافحه فوقف يصافحها وقالت:

- والله زمان يا سامر بيه. أنا مشتاقة لكم جدا والله. يا رب تكونوا بخير.

وجلست فجلس. قالت:

- أعرف أنكم هجرتم العجمي مثل عائلات كثيرة محترمة. افتقدتكم والله.

وسكتت لحظات واضطربت. بدت تقاوم انفعالا بالألم ثم قالت:

- حدثني عن الأستاذة الفنانة العظيمة. ما أخبار المرض؟ هل هي بخير الآن؟

نظر إليها مندهشا. أدرك أن الأخبار التي نشرت عن مرض ريم كثيرة في العامين الماضيين. كيف كان يتصور حقا أنه سيختفي بها عن الناس؟ وهل معنى اختفائه ألا يعرف أحد؟ قال باستسلام:

- نحمد الله على كل شيء.

وحط عليهما الصمت لحظات فاندفعت علياء فجاة في البكاء. نظر إليها متأثرا وقال:

- ريم بخير يا علياء.

هزت رأسها وقالت في أسف:

- أبو زهرة تعيش انت بسبب السرطان أيضا. لاحل مع هذا المرض يا سامر بيه. أجل. لا حل. المهم أن تتماسك حضرتك من أجل نور. وترمي حمولك على الله.

سكت وسكتت. هل جاء هنا ليكتشف موت زوجها؟ السائق عثمان أيضا ماتت زوجته وحين اتصل بالجنايني وجده قد مات. صحيح لم يسأل كيف مات لكن لماذا لايكون بنفس المرض؟ وهل يموت الناس كثيرا هكذا؟ كيف حقا لانعرف؟ لأننا لانعرف كل الناس. كما يولد الناس يموتون. لا يدرك ذلك إلا من تقدموا في العمر فيسقط حولهم أحبابهم وأصدقاؤهم حتى يسقطون بدورهم. هو لم يتقدم في العمر لكنه اقترب كثيرا من الموتى في رحلته لعلاج ريم. وهاهو الموت يحاصره فهل تراه اقترب؟ لكنه سمع موسيقى البوليرو تأتي من غرفة داخلية.

أتت زهرة من الغرفة نفسها بكوبين من الليمون بالنعناع وقالت مبتسمة:

- أعرف أن حضرتك تحب الليمون بالنعناع. شفت يا سامر بيه لم أنسى.

ابتسم وتناول منها كوب الليمون وتناولت علياء الكوب الثاني. قالت زهرة:

- لا أنسى أني سمعت هذه المقطوعة الموسيقية أول مرة عندكم. سألت طنط ريم عنها قالت اسمها البوليرو. سمعتها الشهر الماضي من الراديو صدفة. تذكرتكم وتذكرت اسم المقطوعة. دخلت على موقع موسيقي على الإنترنت واستمعت إليها. صارت أحسن شيء أسمعه. أحببت اليوم أن تسمعها حضرتك عندنا.

نظر إليها معجبا ثم أشار إليها أن تقترب. أمسك بيدها الصغيرة الناعمة وجذبها إليه في هدوء وقبلها على خدها قائلا:

- ذوقك رائع يا زهرة.

ابتسمت زهرة التي تورد وجهها خجلا من أثر القبلة وجلست أمامه مبتهجة. شملهم الصمت جميعا للحظات. قال بعد أن رشف رشفة صغيرة.

- كيف تعيشون؟

أجابت علياء:

- بمجهودي. أنا الآن لا أذهب لأطبخ في البيوت. أنا أعد الطعام هنا لمن يرغب ويأتي ليأخذه.

ابتسم وقال:

- جميل. وكيف يتم ذلك؟

قالت:

- زهرة عملت لي صفحة على الإنترنت. في الفيس بوك. أستقبل عليها الطلبات. عنوان الصفحة «علياء كيتشين». زهرة علمتني كل حاجة عن الإنترنت. جيل غريب يا سامر بيه. الدنيا لن تسعه. مصر دي صغيرة جدا على ولادها الشباب. ربنا يستر عليهم من العواجيز مثلي.

ابتسم وقال:

- ومثلي أيضا.

ضحكت زهرة سعيدة ثم قالت:

- حضرتك في عز الشباب.

- ربنا يخليكي يا زهرة يا جميلة.

قال ذلك وانتهى من شرب كوب الليمون ووقف يقول:

- أنا آسف. لم يكن في نيتي الحضور. لذلك...

قاطعته علياء قائلة:

- أنا لا أريد إلا صحة الأستاذة ريم. ربنا يشفيها لحضرتك ولينا كلنا.

- إسمحي لي أن أصطحب زهرة إلى السيارة. بها دفتر شيكات سأكتب لها شيكا صغيرا. هدية مني لأحسن تلميذة في الجغرافيا وأجمل محبة للموسيقى.

ازدادت السعادة على وجه زهرة وقالت علياء:

- لا داعي. نحن في حالة جيدة والحمد لله. زيارتك وحدها تساوي الدنيا.

قال مبتسما:

- هذا أمر.

سكتت علياء بينما كانت زهرة لاتزال تبتسم سعيدة. عادت معه إلى السيارة. كان هو مسرورا بخروجه من هم ما فعل مع غادة.

أخرج من تابلوه السيارة دفتر شيكات تركه بها منذ جاء إلى الإسكندرية ولم يهتم بوضعه في الفيلا. قال مبتسما لزهرة التي لا تكف عن الابتسام:

- تحبي أكتب لك كام؟ ماتقولينه سأفعله.

ظهر الخجل على وجهها ثم قالت في شغف:

- مائة جنيه أشتري حقيبة جديدة رأيتها أمس.

نظر إليها مندهشا ثم حرر لها شيكا بعشرة آلاف جنيه وقال:

- عشرة آلاف جنيه. لا تنسيني وادعي لطنط ريم.

طفرت دمعتان بسرعة من عيني زهرة من الفرح والتأثر معا. قدم لها الشيك فترددت فأمسك يدها ووضعه بها وقال:

- كم مرة لم تأت ماما إلينا. عشرات المرات لأننا انقطعنا عن الحضور منذ سنوات. هذا أجر السنوات التي انقطعنا فيها.

مشت زهرة على مهل لا تصدق ووقف هو قليلا ينظر إلى البحر الذي علت أمواجه والذي يمتد بعيدًا أمامه، وإلى الناس الذين قلت أعدادهم حول باعة السمك وأحس بشيء من الراحة يشمل روحه.

تذكر أنه رأى في طريقه مسجدا فأخذ طريقه إليه. لم يفكر من قبل أن يصلي ولم يفكر أن يصلي الآن. كان يريد أن يبكي بين يدي الله. لعله يبعد عنه الموت الذي صار يقابله عند الناس.

16

جلس شاردا في المسجد الصغير. كيف لا يجد أحدا؟ الفضاء الصغير حوله ساكن كأنما ينتظر طائرا يهبط من السما برسالة. مساحة المسجد لا تزيد على ثلاثين مترا، بينها في الوسط عند الطرف المقابل له منبر صغير لا يرتفع أكثر من ثلاث درجات عن الأرض من خشب قديم لكنه يبدو راسخا.

لقد انتهت صلاة الظهر وهو مع علياء وانصرف المصلون وشيخ الجامع. انتبه أن تحت قدميه سجادا قديما. كيف حقا لا يعتني أحد بهذا المسجد. وما الذي يحدث في مصر من أحاديث عن الإيمان والحث على الإيمان. وهؤلاء الناس الملتحون الذين يقفون في الميادين منذ عشرات السنين يطلبون من المارة التبرع لبناء مسجد كيف لا يصلون بما يجمعونه إلى هذا المسجد؟ كيف لايتبرع القادرون من التجار هنا ليكون المسجد جميلا؟ النافذة الوحيدة خلف المنبر عالية وتبدو عليها تراب لا يعرف مصدره، وخيوط عنكبوت.

جلس مرتكنا على الحائط ونظر إلى أعلى السقف الذي به نجفة وحيدة تبدو من النجف الصيني الرخيص. ليست مضاءة والمسجد كابي

الضـوء، ولـولا أن الباب مفتوح لـكان الظلام قد عم المـكان. إلا أن في المكان راحة سـرية. أحس بنفسـه وقد استسلم إلى هدوء وسكينة سيأتي بعدهمـا خير. أحس بأن الإنسـان بحق صغير في هذا الكـون. وأنه لو لـم يجـد ملاذا عند الله لاحترق من البؤس أو الخوف. وسـمع هدير الموج القريـب هادئـا يحمله كما تحمله الموسـيقى إلـى فضاء مـن الراحة. إنه يقترب الآن حقا من السـماء. قل لمـن يحمل هما إن هما لايدوم.. مثلما يفنى السرور هكذا تفنى الهموم.

أغمـض عينيه وتذكر أنه بحق لم يدخل مسـجدا مـن قبل. لم يصلِّ. لم يشـأ أن يشـغل نفسـه باللوم. يعرف أنـه لم يفعل ذلك شـكا في الدين ولا موقفـا منـه. من زمـان ورأيه أن الديـن المعاملة. وهـو كرجل أعمال مسـتنير لم يحدث أن ضعف أمـام إغراءات الثراء السـريع ولا الغش في المعاملة. لا يذكر له العاملون في مصنعه موقفا جشعا. هو يسعد بما ينتجه من أثاث شـرقي وتحف شـرقية رائعة ويرى البهجة أكثر فيما ينتج لا فيما يربح. ثم إنه يربح ولا يتأخرعن مسـاعدة أى محتاج، أو ما يراه حوله من دعوات للتبرع لمستشـفيات السـرطان أوغيرها. الله يغفـر لنا إهمالنا في حقه، لكنه لا يغفر أبدا إهمالنا في حق عباده! هذه فلسفته ويقينه.

لكنـه أحـس بالحاجة الشـديدة حقـا للصـلاة فاتجه إلـى دورة المياه الملحقـة الصغيـرة ليتوضـأ. راعتـه قذارتها. كل شـيء في حـي المكس جميـل من الخارج فما معني هذا؟ للحظـة أدرك أن ما يفعله اليوم يجعله ينسـى ماجرى بالأمس فابتسـم. عاد من دورة المياه بعد أن توضأ ووقف متجهـا إلـى المنبر وصلـى ركعتين فـي منتصفهمـا تذكر غـادة فأغمض

عينيه وراح يرفع صوته بالآيات القرآنيـة القليلة التي لا يزال يحفظها من أيام المدرسة.

انتهى وعاد يجلس مكانه. لم يشـعر بالوقت فإذا به يرى شـيخا يتقدم داخلا. نظر إليه الشـيخ وألقى عليه السـلام. كان رجلا في حوالي الستين مـن العمـر تـرك ذقنه قد طالـت لكن ليس إلى حد كبير. لو سـأله الشـيخ لمـاذا أتى مبكرا قبل صلاة العصر ماذا يقول؟ وهل سـيعينه الشـيخ على التحمل والرضا بقضاء الله؟ هو المتعلم المثقف يعرف ما سيقوله الشيخ لو أخبره بأزمته. ثم إنه بحق صار يشعر براحة كبيرة.

جلس في مكانه وراح الشـيخ إلى المنبر ووقف على إحدى درجاته. مد يده إلى جانب المنبر وسـحب «مايك» لم يظهر لسامر، متصل بسلك كهربـي لـم يـره. رآه الآن يمتد خلف المنبر ثـم يرتفع إلى النافـذة العالية المغلقـة ويمـر من فتحة صغيرة فيها. لابد أنه متصـل بالميكروفون أعلى الجامع. راح الشيخ يؤذن وهو جالس لايتحرك. دخل رجل وبعده رجل ثم هلّ أكثر من شخص. سيصلي جماعة الآن معهم.

فـي دقائـق صاروا أكثر من عشـرين شـخصا. جلسـوا علـى الأرض فجلـس بينهـم. وإذا بالشـيخ لايبـدأ الصلاة بل يخطب فيهم. وجد نفسـه ينتبه إلى مايقوله الشـيخ. إنه يتحـدث عن الموت المنتظر للعباد أكثر مما يتحدث عن أي شيء آخر ويحث الناس على العمل الصالح قبل الموت. وعلى الأمانة والإخلاص قبل الموت. هكذا ترددت كلمة الموت عشـر مرات تقريبا وهو مندهش. لقد جاء هنا لينسى فإذا بالموت يقابله في كل

مكان! ثم وجد نفسه يشرد من الرجل ويعود إليه بعد لحظات فسمعه يقول «يا موسى لقد أتيت لي اليوم لحاجة في نفسك ولو لم يكن ما بك من همّ ما أتيت إلي» اندهش جدا. لم يفكر كيف بدأت القصة التي لابد حكاها الرجل وهو شارد عنه، لكنه أحس أن الكلام موجه إليه هو. هل أخطأ حقا بالمجيء؟ هل قال الرجل ذلك لأنه رآه قد دخل المسجد مبكرا ولابد أدرك أنه في محنة فهو لم يره من قبل ولابد يعرف الزائرين للمسجد فهم من أهل المنطقة يبدون جميعا من بائعي السمك. وهل يمكن لو أدرك الرجل أنه في أزمة أن يكيد له هذا الكيد؟ للحظة تجهم. هو فعلا لم يدخل المسجد من قبل سواء عرف الرجل أم لم يعرف. وهل لا ينصت الله لعباده إلا إذا كانوا يؤدون كل شعائر دينه. من ينصت للتعساء حقا غير الله؟

ابتسم وتمنى أن تبدأ الصلاة وتنتهي بسرعة ويخرج، لكنه انتهت بما أنساه ما قاله الشيخ.

نسي الألم الذي سببته خطبة الشيخ وركب سيارته يقول لنفسه ما أعجب أولاد البلد! وأخذ طريقه إلى الفيلّا لا يستطيع أن يصدق ما جرى، أو يمنع نفسه بين لحظة وأخرى عن الضحك.

ما إن وصل إلى الفيلّا حتى دخل في الصمت. أمضى بقية اليوم لا يتحدث مع غادة وهي بدورها لم تتحدث إليه. بالليل استمر ساهرا. كان يعرف أنها في حجرتها أو مع ريم وكانت تعرف أنه في حجرته. كانت شقوق جديدة قد ظهرت في الحوائط والماء ارتفع في الحفرة

خلف الفيلّا وبدأ يغطي أرض الحديقة وما عليها من بقايا النجيل. لماذا حقا لا يتحدث أحدهما إلى الآخر؟ سأل نفسه. لابد أنها تفكر أن شعوره بالذنب كبير. أجاب ثم تساءل. ولماذا لايكون شعورها بالذنب كبيرا أيضا ولذلك لا تكلمه؟

في منتصف الليل وجد نفسه يطرق باب غرفتها. وجدها قادمة خلفه من غرفة ريم. قال:

- آسف إذا كنت لم أتكلم معك حتى الآن.

- أعرف السبب. لا ترهق نفسك بالاعتذار. أنا أيضا لم أتكلم معك.

نظر إليها مندهشا ثم قال:

- لكن السبب هو ماحدث معي في المسجد اليوم.

نظرت إليه بدورها مندهشة ثم ابتسمت وتساءلت:

- مسجد؟

ابتسم وقال:

- سأحكي لك كل شيء. ندخل الغرفة أولا

- تفضل.

قالت بلا مبالاة.

جلسا على مقعدين متقابلين وراح يحكي لها مافعل اليوم. كانت تستمع مبتسمة حتى إذا جاء لحكاية الشيخ وما قاله ضحكت وإن اندهشت للحظة كيف حقا بدا الشيخ كأنه يعرف أن سامر لم يأت إلى المسجد إلا لحاجة. لكنه حكى لها ماحدث بعد ذلك.

بدأت الصلاة وكان يقف أمامه رجل في حوالي الخمسين من العمر. طويل بشكل واضح. يرتدي بنطلون جينز فوقه قميص وبلوفر قديم. وفي الركعة الأولى أحس أنها طالت بحق والشيخ لم يعد أحد يسمع صوته. لم يعرف ماذا يقول. لحظات وسمع الرجل الطويل أمامه يقول لمجاوره:

- هو بيعمل إيه ابن الكلب ده؟ ضهري حينكسر.

اندهش جدا لايصدق ما يسمع وكاد ينفجر ضاحكا، لكنه سمع الرجل الذي يتوجه إليه الطويل بالكلام يرد عليه:

- سيبك منه دا راجل ابن وسخة. ماتحملناش ذنوب

كاد ينفجر ضحكا بحق حتى أنه وضع يده على فمه.

أنهى الشيخ الركعة واستمرت الصلاة. في الركعة الثانية سمع من أمامه يتألم ويزوم بفمه والحقيقة أن الشيخ كان يطيل الركوع والسجود. انتهت الصلاة وإذا بالشخص الطويل يتقدم مسرعا إلى الشيخ صارخا:

- حرام عليك. كسرت ضهري وضهر المصلين. لازم تبطل العادة دي.

ولا يعرف ماذا حدث. تجمع المصلون حول الرجل الطويل يبعدونه عن الشيخ ويبعدون الشيخ عنه ويضحكون وخرج هو مسرعا يضحك ولايصدق أن هذا جرى في مسجد أو يمكن أن يجري.

ظلت تضحك ويعلو صوتها لا يقطعه صوت الرعد في الخارج ثم وقفت تضحك وهوبدوره وقف ناويا الخروج فتصادمت السحب بشكل جبار وصار صوت الرعد أعلى مما سمعاه من قبل فانتفضت خوفا وألقت بنفسها في صدره. همست:

- بدأت أخاف. لم أتعود على الشتاء هنا أبدا.

لكن الشهوة كانت قد استيقظت فيه ولم تمنعه بدورها. لقد خرجا عن السماع للرعد وعن الشعور بالخوف وعن الإحساس بالفراغ والعدم.

هو الآن جالس في الباحة امام الباب يفكر جديا أن يذهب لبائع السيراميك لعمل طبقة أخرى ويفكر جديا في نقل البيانو إلى أعلى. ينتظر أن تقدم له غادة الإفطار لكنه رآها تقف أمامه مرتدية ملابسها وفي يدها حقيبة سفر اشترتها يوم أن اشترت ملابس لها بعد وصولها. نظر إليها في ذهول فاقتربت وقالت:

- لابد أن أسافر الآن.

- لماذا. هل حدث مني شيء يغضبك؟

- بالعكس. لكن استمرار هذا الوضع يعني أني سافلة أكثر مما أتحمل.

ظل مندهشا بل مذهولا فمدت له يدها فمد يده وهو في ذهوله لا يفارقه. مشت خطوتين وتوقفت ثم هتفت في رعب بعد أن سقطت الحقيبة من يدها إلى الأرض:

- أين سيارتي؟

وقف وتقدم نحوها ثم توقف بدوره وعاد إليه الذهول. لا توجد غير سيارة واحدة أمام الفيلَّا. سيارته هو. هل يمكن؟ وكيف حقا لم ينتبه حين استيقظ وجلس هنا إلى ذلك؟ العادة في الصيف حين كانو يأتون من قبل أن يدخل بسيارته إلى الباحة ثم يدور بها يمينا ليركنها داخل سور الحديقة. لم يفعل ذلك منذ جاء لأنه لا أحد هنا وربما لأنه لم ينتبه إلى ما يفعل. هي أيضا تعرف المكان الداخلي لركن السيارات لكنها تركت سيارتها خلف سيارته في الشارع الصغير دون أن تفكر في شيء.

- لقد سُرِقَتْ سيارتي.

قالت ذلك في حسرة. لم يجد شيئا يقوله. كان يفكر إذن وصل اللصوص إلى هنا. ماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك؟ قال:

أعيدي كل شيء إلى مكانه وسأذهب معك إلى قسم البوليس.

ثم ابتسم وقال:

- دعينا نتناول إفطارنا أولا

قالت في ضيق:

- تضحك؟

- مـاذا أفعل. سأشـتري لك أفضل منهـا. دعينا كما قلت نتنـاول إفطارنا حتى نستطيع أن نتعامل بهدوء من الموقف.

قالت في حسم:

- سـأعيد حقيبتـي لكن لـن أتناول أي طعـام. يجب أن نذهب إلى قســم البوليس بسـرعة. ليـس مهمـا أن تعوضنـي عنهـا. المهــم أن يعــرف اللصوص أنهم لن يعودوا إلى هنا.

دخلت مسـرعة تعيد الحقيبة. وقف هو يفكر كم من الوقت سـيضيع اليوم في هذه السرقة والبحث عنها. وإذا بعثمان يظهر ويتوقف بالتاكسي ويتركه ثم يتقدم حاملا الجرائد في يده. قبل أن يلقي عثمان بتحية الصباح قال سامر مبتسما:

- جئت في وقتك يا عثمان.

- خير يا باشا.

- سـيارة الأسـتاذة غادة سـرقت من هنا. سـتصحبها إلى قسـم البوليس وتحرر محضرا بالواقعة ثم تعود.

بدا عثمان مذهولا بدوره ثم قال:

- لا يمكن؟ متى حدث هذا؟ وكيف لم تنتبها لصوت السيارة حين تحرك بها اللصوص؟

ارتبك سامر للحظة ثم قال:

- لابد أنه صوت الرعد طول الليل حجب عنا أي صوت في الخارج.

قال عثمان شاردا:

- حتى لو الرعد يا أستاذ. الواحد في الخلاء هذا يحس بدبة النملة.

- هذا ماحدث يا عثمان.

- طيب. ألن تأتي معنا؟

- لا يكفي أنت ولا معنى لوجودي معكم.

كانت غادة قد عادت فرأت عثمان. قال لها سامر على الفور إن عثمان سيذهب معها إلى قسم البوليس.

نظرت إليه في غيظ فقال:

- إنه إجراء عادي ودعي لي أنا بعد ذلك التصرف. معي تليفون مأمور القسم وسأحدثه وأنتم في الطريق ليهتم.

قالت بسرعة تشي أنها أيضا لا تحتاج إليه:

- هيا يا عثمان.

وركبت التاكسي. ما كاد التاكسي يختفي حتى انطلق سامر يضحك. للحظة فكر أن ما جرى أول العقاب الإلهي ثم نفض ذلك عن رأسه وفكر مبتسما أن هناك إمكانية للسرور في هذا العالم حتى لو كان الثمن سيارة فخمة.

كان اللاب توب على المنضدة. فتحه ودخل على صفحة ابنته نور. تذكر أن عليه أن يتصل بالمأمور فاتصل لكن لم يرد عليه أحد. نظر إلى

صفحــة ابنته نــور فوجد أنها لـم تدخــل عليها منذ ثلاثة أيــام. آخر ماكتبته وتاريخــه أمامه «كيف يعجز كل هذا التقدم البشــري عن علاج الســرطان اللعين».

لابــد أن نور في حزن شــديد حجبها عن الصفحــة. طلبها على الفور بالموبايل فردت عليه.

- لماذا تبكين يا حبيبتي؟

- لا أبكي يا بابا لكنك لم تعد تكلمني أو تدخل على صفحتي تطمئنني.

- لأن ماما بخير ولأني سعيد بذلك نسيت كل شيء.

- بابا أنا أعرف أنك لا تقول لي الحقيقة. لذلك حجزت تذكرة للسفر يوم الجمعة القادم. أي بعد ثلاثة أيام.

لماذا؟ كل شيء على مايرام يا حبيبتي.

- لا أستطيع أن أكون بعيدة عن ماما أكثر من ذلك. أرجوك يا بابا. أريد أن أراها.

- لا تبكي يا نور. أنا في انتظارك مادام هذا سيريحك يا حبيبتي.

كان بدوره يقاوم البكاء. انتهت المكالمة وقام على مهل ليدخل. رأى المــاء قــد علا أكثر من كل يــوم. هل ينتظر هنا حتى ينهــار البيت عليهما؟ يمكــن أن يمـوت حبا فــي ريم تحت الأنقــاض، لكن ما ذنــب ريم وماذا سيقول لها حين يلتقيان فوق السماء.

عاد إلى مكانه والسحب السود تزداد تحت السماء وتخفي كثيرا من الضوء. اتصل ببائع السيراميك. شرح للرجل مايحدث فقال له:

- أنا سأحضر إليك. سأرى كل شيء بنفسي. لابد أن نجد حلا نهائيا.

ترك مكانه وأخذ اللاب توب في يده لأن مطرا خفيفا بدأ يسقط وصعد إلى الدور الثاني ودخل غرفة ريم.

وقف أمامها لحظات ثم جلس على المقعد الذي وضعه قريبا منها ولم تحركه غادة من مكانه. أمسك بيدها وراح يقبلها. سامحيني حبيبتي. قال في نفسه ثم رفع صوته أكثر ورددها أكثر من مرة، وريم على حالتها لا تتحرك ولا تستجيب بأي نأمة أو حركة. ثم فجأة سمعها تقول بصوت خفيض:

- النهاردة كام؟

رأى شفتيها مفتوحتين قليلا والكلام يخرج كأنه نفس هادئ. وعادت شفتاها مزمومتين من جديد. لكن عينيها انفتحتا متجمدتين. قال في ذهول:

- النهاردة اتناشر في الشهر

كان تقريبا لا يرد عليها لكن يخاطب نفسه وذهوله لا يفارقه. لحظات من الصمت ثم سمعها:

- لسة بدري على يوم خمستاشر!

صرخ:

- ريم ريم. أنت تتحدثين يا ريم. ريم ريم. أنت تسمعينني يا ريم.

لكن عينيها أغلقتا وشفتيها صارتا مزمومتين أكثر ولم يستمر كثيرا في هزها مكانها لأن جسدها بدا في يديه لا يستجيب.

وضع رأسه بين يديه لايصدق ما سمع وما جرى، لكن رائحة البارفان التي تملأ الحجرة كانت مريحة ومدهشة. هي المظهر الوحيد للحياة هنا. لاشيء حيًّا هنا إلا ما تركته غادة. لكنه سمع ريم. أجل ريم.

وقف عاجزا. ليجلس معها النهار والليل ربما تتكلم مرة أخرى. لابد أن تفعلها مرة ثانية.

نظر إلى كيس البول فوجده فارغا. هل أفرغته غادة قبل أن تنزل إليه اليوم. هل تفعل ذلك في الصباح أم في المساء. أحس بقلق كبير. لابد أن يسألها. هل يمكن أن يسالها الآن وهي في قسم الشرطة. عليه أن ينتظر عودتها. لكن الموبايل دق فوجد غادة على الطرف الآخر:

- أنا مع مأمور قسم الشرطة. يريد أن يسمع منك. ها هو معك.

تكلم إليه المأمور وسأله عن صحة ما تقول السيدة غادة فأخبره من هي وعملها وأهميتها وكيف حقا سرقت السيارة اليوم وغالبا في منتصف الليل وسط البرق والرعد ثم طلب منه أن يتحدث إلى غادة وسألها:

- لا تؤاخذيني يا غادة مضطر أسالك هل غيرتِ كيس البول اليوم؟

- لا ولاحظت أنه فارغ وكنت سأحدثك بذلك قبل أن أنصرف لكن سرقة السيارة أنستني كل شيء. لابد أن تأتي بطبيب بسرعة.

أسقط في يده وجلس منهارا إلى المقعد. لقد توقفت الكليتان عن العمل. النهاية يا سامر ولا أمل. لم تكن ريم هي التي تتكلم. صوت آخر لا يعرف مصدره.

«فضلت أعيش في قلوب الناس

وكل عاشق قلبي معاه

شربوا الهوى وفاتوا لي الكاس

من غير نديم أشرب وياه»

من أين يأتي هذا الغناء؟ كم مضى من الوقت وهو جالس أمام ريم صامتا. ساعة أو أكثر. توقف وراح يستمع لأم كلثوم وهي تعيد المقطع. لم يتحمل. الصوت يأتي من الخارج. من ينتظر حقا؟ فلينزل بسرعة ليرى.

رأى صاحب محل السيراميك يقف جوار سيارة الجيب. صوت أم كلثوم يأتي منها. في هذا الوقت من النهار تغني أم كلثوم! لماذا تجعله ليلا أيها البائع. لكن البائع كان يبتسم ثم تقدم إليه يقول:

- ضربت كلاكس كتير ولم تسمعني فتجولت حول الفيلّا ورأيت الوضع.

لم يرد فقال:

- يا سامر بيه لن يفلح أي شيء تفعله. الناس كان عندها حق حين هجرت المكان. أنا لا أعرف لماذا تصر على البقاء هنا!

قال في يأس:

- إذن لن تجدي طبقة أخرى من السيراميك.

- سنجرب طريقة مختلفة لأننا لو ظللنا على هذا الحال سيختفي الدور الأرضي.

كانت أم كلثوم لاتزال تصدح:

«يا للي بكايا شجاك.

وسمعت لحن الغزل

من طول أنيني

ياما بكيت من جفاك»

قال:

- أرجوك أغلق راديو السيارة.

نظر إليه البائع مندهشا وكاد يتكلم، لكنه اتجه إلى السيارة وأغلق الراديو وعاد يقول:

- نتصل بشركة شفط المياه. تأتي سيارة تشفط المياه من الخلف.

- وهل هذا يفيدنا؟

- هـذا علـى الأقل يعطيك فرصة للبقاء شـهرا. ثم نكـرر ذلك. لكن هل حقا ستبقى شهرا وحدك في هذا الشتاء والخلاء؟

سكت قليلا وقال:

- أتمنى ألا أغادر هذا المكان.

بدا البائع لايفهم شيئا وراء ما يقول سامر فقال:

- إذن دعني أقوم لك بكل شيء. غدا ستكون سيارة شفط المياه هنا.

- طيب. هل أعطيك شيئا من التكلفة الآن؟

- لا بعد أن ينتهوا ستدفع لهم. تحت أمر حضرتك يا أستاذ.

صافحه وركب سيارته الجيب وتحرك مبتعدا وسامر يقف مكانه ينظر إليه يفكر في جدوي هذا كله حقا. لكنه عاد يكرر لنفسـه أنه لن يستسـلم كما أنها لن تفارقه أبدا ومن يدري ربما تستيقظ لترى ماذا يفعل وتفرح به.

قبل أن يلتفت ليدخل الفيلّا رأى سـيارة أخرى تقف أمامه وينزل منها الطبيب الشـاب عادل. كان قد اتصل به في المستشـفى بالبيطاش وأخبره بما جرى.

كما توقع سامر وقف الطبيب الشاب أمام ريم وقال:

- لافائدة في أي شيء نفعله هنا. لابد من نقلها إلى المستشفى. لكن..

وتوقف الطبيب الشاب عن الكلام فنظر إليه. تحرك الطبيب الشاب خارجا وخرج سامر خلفه.

التفت إليه الطبيب الشاب في الصالة في الدور العلوي فرأى سامر دمعة تترقرق في عينه، وقال الطبيب الشاب متأثرا:

- حضرتك تعذب نفسك وهي تتعذب معك يا سامر بيه.

- ماذا أفعل؟

- لا أستطيع أن أقول لك اتركها كما هي. ستصاب بالصفراء ويتعكر الدم.

- وأنا أوافق على المستشفى الآن. أريدها أن تموت جميلة.

قال سامر ذلك وانهار على أحد المقاعد ثم أردف في حسرة.

- أنا غير قادر ولا أحد قادر على السرطان لكنا نستطيع أن نقضي على كل شيء آخر. أجل. أريدها أن تقابل ربها كما خلقها. وردة. أجل خلقها الله وردة ويجب أن تعود إليه كذلك.

ثم وقف يدور حول نفسه ويتكلم.

- أجل. مكانها هناك بين الملائكة كما كانت ملاكا في حياتها. لن أرتكب خطيئة في حق الله وأتركها تعود بدم معكر وبشرة صفراء.

اقترب منه الطبيب الشاب وقال وهو يربت على كتفه:

- أنت عملت ماعليك وأكثر. لا أحد يفعل مافعلت. أرجوك هوِّن على نفسك.

- سأنقلها إلى المستشفى.

- وسيفعلون كل شيء لاستقبالها لكن ليس اليوم. غدا في الصباح الباكر سأرسل لك سيارة الإسعاف في العاشرة صباحا وستذهب بها تجدهم في انتظارك.

- لماذا ليس اليوم؟

- الأفضل غدا حتى يستقبلوك في المستشفى مستعدين للعلاج كله. السرطان والبولينا. هل يمكن أن تعطيني روشتة الدواء الذي نضعه لها في المحلول والذي تحقنها به؟

أعطاه أكثر من روشتة. اختار الطبيب منها واحدة هي الأحدث، وهي التي يتم إعطاء الدواء على أساسها، ثم نزل وسامر خلفه. بينما يمشي الطبيب الشاب فوق الأحجار الموضوعة على أرض الصالة السفلي بين المياه قال:

- كل شيء هنا يؤدي إلى الانهيار. ليتك بعد أن تعود الكليتان إلى العمل تنتقل بها إلى مكان آخر، أوتتركها في المستشفى حتى يأتي أمر الله.

وتوقف الطبيب الشاب في الباحة يقول:

- أرجو أن تكون أيامها الأخيرة بالمستشفى. لا ترهق نفسك كل هذا الإرهاق.

لم يرد سامر. من سيقدر ويفهم ما يفعل؟ من سيفهم هذا إلا أنه جنون لا معنى له؟ ولكن هل كان معها كل لحظاتها الأخيرة حقا؟

استيقظ في روحه مافعله مع غادة وظهر الألم على وجهه، لكن الطبيب مد إليه يده يصافحه وانطلق بسيارته على مهل مبتعدا.

قبل أن يلتفت دخل هدهد جميل راح يتنقل على الأرض يبحث فيها عن طعام يلتقطه بمنقاره الرشيق. قال في نفسه أنتم أسعد المخلوقات لا تعرفون أن الموت ينتظركم.

تقدم ليدخل الفيلّا فسمع كلاكس سيارة من جديد. التفت. رأى عثمان قادما ومعه غادة. وقف ينتظر نزولهما. من أين جاءا الآن؟ لم يعد يعرف. حين اقتربا تذكر أنهما ذهبا إلى قسم الشرطة لتحرير محضر بالسيارة المسروقة. بدا له الأمر قديما جدا!

وقف عثمان أمامه صامتا مندهشا ينظر إليه. كذلك فعلت غادة ثم ابتسمت وقالت:

- ماذا جرى. لقد تركناك وذقنك محلوقة. من أين جاء كل هذا الشعر؟

وضع يده على خده فأحس بالشعر الكثيف. مشى بها على ذقنه فأحس به قد طال عند الذقن. ارتبك للحظة فكر فيها هل حلق ذقنه اليوم حقا أم هما اللذان لم ينتبها إليها؟ ثم كيف تبتسم بعد سرقة السيارة؟ سألهما:

- ماذا فعلتما في قسم الشرطة؟

قال عثمان:

- حررنا المحضر لكن أثناء خروجي همس لي أمين شرطة قائلا لو عايزين العربية اتصلوا بالرقم ده، ووضع ورقة صغيرة في يدي.

جلس سامر إلى المنضدة الصغيرة غير مصدق وجلست غادة وعثمان الذي قال:

- حدثني في السر أن بعض اللصوص يسرقون السيارات لأنهم مدمنون. وهؤلاء هم الأهون لأنهم يبيعون السيارات لبعض البدو قرب منطقة العلمين. يبيعونها نظير جرعات من البودرة. الهيروين يعني.

ظل سامر ينظر إليه مندهشا فقالت غادة:

- اتصلت بالرقم وظهر أن كلام أمين الشرطة صحيح. السيارة الآن عند أحد البدو. قال إنه دفع فيها ثلاثين ألف جنيه.

ظل سامر صامتا لحظات ثم قال:

- هذا جنون.

قال عثمان:

- الحمد لله يا أستاذ أن الحرامي طلع مدمن. غير كده والله لم نكن سنجدها أبدا.

تنهد سامر تنهيدة طويلة وقال:

- لن أستطيع أن أذهب معكما. السيارة لابد أن تأتي بها الشرطة.

قال عثمان على الفور:

- على هذا النحو لن تفعل الشرطة لنا شيئا. وأنا لم أكن سأوافق أن تأتي معنا. المكان خطر.

- كيف إذن ستأخذ مدام غادة معك؟

- لأنها صاحبة السيارة والرخصة معها. إنهم لن يسلموها لأي شخص غير صاحبها. لكن لا تقلق. هم بدو أصحاب نخوة لا يعتدون على النساء.

أحس سامر بالحيرة الشديدة فقالت غادة:

- لا تقلق. المهم أنك عرفت أين سنكون وسأترك معك رقم تليفون البدو. قد يقع علينا أي ضرر. أنا عدت لآخذ من حقيبتي دفتر الشيكات. سأحرر شيكا بالمبلغ لهم.

ضحك عثمان وقال:

- لا طبعا. لن يقبلوا الشيك. الشيك دليل على ارتكابهم الجريمة. لابد من نقود.

نظر إليه سامر في سخرية. بدا للحظة قد فكر أن عثمان هو الذي وراء ماحدث لكنه سرعان ما استبعد ذلك. عثمان يعرف أنه لو طلب منه هذا المبلغ سيعطيه له. قال:

- إذن اذهبا وكونا على اتصال بي طول الوقت.

انصرفا في سيارة عثمان. ظل هو جالسا بعض الوقت في الخارج، ثم نهض وراح يدور حول الفيلا. الأرض طينها يزداد والشقوق في الجدران من الخلف تزداد أكثر وفي سور الفيلّا تتسع للغاية. كل شيء

يتساقط حولك وأنت تنتظر عربة سحب المياه غدا والإسعاف لنقل ريم والسحب السوداء منذرة بالمطر فلا جلوس في الباحة الآن. ما الذي تفعله يا سامر؟ لن توقف القدر الذي يحاصرك بالذهاب في كل وقت ومكان. الأفضل أن تطل على ريم الطلة الأخيرة!

17

- قلت لك إنها ستعيش. ريم لن تموت. ريم لن تموت.

كان يهتف وهو يحتضن غادة في الصباح أمام ريم المسجاة مكانها. لقد أصبحا فوجدا كيس تجميع البول قد ظهر فيه البول من جديد. لقد عادت الكليتان إلى العمل وحدهما.

كانت غادة مندهشة جدا لكنها شعرت بحق بشيء من السعادة يسري في روحها فبدا على وجهها. من أجل ريم أم من أجله فلا يهم. إنها تبدو أمامه فرحة مثلما هو فرحان وإن كانت فرحته تقترب من الجنون. لكن في نظرتها أيضا شيء من الدهشة تشي بالرثاء لحاله.

- إذن لن أنقلها إلى المستشفى. سأطلب من الدكتور عادل ألا يرسل سيارة الإسعاف. يأتي فقط لتغيير الكانيولا من ذراعها. كما أننا سنغير هذا الكيس للبول كالعادة ويغير هو القسطرة من جديد.

قال ذلك وخرج مسرعا إلى الصالة ثم نزل إلى الباحة أمام الباب. لم يمشي فوق الحجارة التي تتوسط الماء في الصالة بالدور الأرضي، بل مشى بينها ولم يهتم. وقف في الباحة يطلب الدكتور عادل بالموبايل.

رأى أمامه عربة شفط المياه تقف في الشارع أمام الفيلا. أمامها موتوسيكل يركبه أحد العاملين في محل السيراميك. لابد أنه جاء أمامهم يرشدهم إلى المكان. نزل من سيارة الشفط ثلاثة عمال. سيقومون هم بالعمل الذي اتفق مع صاحب محل السيراميك عليه.

لم يطل الوقت في الحديث بينهم. قرروا أن يلتفوا حول الفيلا سيعملون من داخل الحديقة. باب المدخل لا يصلح لدخول العربة الكبيرة ذات الصهريج الضخم الذي سيمتلئ بالمياه. لابد من فتحة كبيرة في سور الحديقة. قال سامر مستسلما:

- اختاروا أي ناحية واصنعوا الفتحة التي تناسب العربة.

نظر العمال والسائق إلى بعضهم في دهشة ثم ابتعدوا عن الباب الخارجي وتوسطوا السور وتقدم السائق بالعربة ثم استدار بعيدا بحيث يكون ظهرها ناحية السور. تراجع على مهل وسامر يتابع ذلك غير مصدق. هل سيصطدمون بالعربة في السور. هل يمكن؟ تقدم منهم فنظر إليه السائق ضاحكا وقال:

- يا سعادة البيه السور آيل للسقوط. المياه الجوفية فعلت فعلها. ربنا يستر ولايقع السور كله.

اقتربت مؤخرة العربة من السور ثم بهدوء تراجع السائق أكثر وبهدوء ضغط على السور فوقع جزء كبير من الجانب. مسافة لاتقل عن عشرة أمتار في سور يمتد ضلعه إلى خمسين مترا.

ظل سامر في مكانه مذهولا. لقد وقعت هذه المساحة من السور شبه متماسكة. ما إن وصلت إلى الأرض حتى تهشمت إلى ثلاث قطع كبيرة. بسرعة تقدم العمال الثلاثة وراحوا ينقلون الأحجار الكبيرة التي تفككت بسهولة بين أيديهم ويضعونها في ناحية واحدة، حتى أفسحوا ثلاثة أمتار بلا أحجار على الأرض فصار من السهل على العربة أن تدخل إلى الحديقة.

- سترون كل شيء وتعرفون من أين تبدأون شفط المياه. سأجلس أنا في الداخل قليلا.

كان يريد أن يصعد بسرعة ليرى ريم من جديد. الماء سيشفطونه من تحت الأرض وحتى يتكون مرة أخرى ستكون ريم قد وقفت على قدميها، وقد تطلب منه أن يعودا إلى القاهرة!

صعد السلم بسرعة فوجد غادة تقف حائرة في الصالة العلوية وتقول:

- سمعت صوت شيء يصطدم بالأرض. ماذا حدث؟

- لا تقلقي. هدموا السور لتدخل السيارة تشفط المياه.

وقفت حائرة فتركها ودخل غرفة ريم. كل شيء صار كما كان. عطرت غادة جسد ريم وملابسها وعطرت الغرفة. جلس أمام ريم وأمسك بيدها فوجدها باردة لكنه يرى صدرها يرتفع وينخفض. ستعيشين يا حبيبتي وستحدث المعجزة.

أحس بيد غادة على كتفه تربت عليها. لقد دخلت من جديد إذن.

- هيا نتناول إفطارنا قبل أن أتركك.

قام ونزل معها إلى الباحة. عند الخروج من الباب أمسكت بذراعه تقوده إلى المنضدة الخارجية، وأجلسته على المقعد وتركته لتدخل تعد الإفطار الأخير. قالت في نفسها «مسكين يا سامر. لكني لن أغضب منك. لن تعرف الحقيقة حتى تراها».

أعدت بسرعة إفطارا من الجبن والبيض. خرجت حاملة إياه إليه وجلست معه تأكل. قالت:

- كانت تجربة عجيبة حقا.

لم يعرف هل تقصد تجربتها معه أم ذهابها إلى البدو مع عثمان؟ لقد حكى له عثمان كل شيء أمس وهو يضحك. كيف استقبلهم البدو استقبالا جميلا. وكيف كادوا يعزمونهما على العشاء لولا أن غادة رفضت بشدة. كانت غادة متعبة إذ اضطرت للذهاب إلى ميدان المنشية أولا مع عثمان لأن البنك الذي فيه نقودها لا فرع له في العجمي كله، ولا طبعا في الساحل الشمالي الذي يكون خرابا في الشتاء. ورغم أن عثمان هو الذي يقود التاكسي إلا أنها كانت متوترة تريد أن ينتهي اليوم على أي نحو، ومن ثم ظهر ذلك على وجهها تعبا بعد العودة فطلبت من سامر أن تنام مبكرا.

كان بوده أن يطلب منها اليوم أن تبقى لكنه حين رأى الكليتين تعملان أدرك أن الأمل باق وهو يريد أن يكون وحده حتى يتحقق الأمل!

- أنا آسف يا غادة.

قالت متأثرة:

- لا تتأسف. أنا أدرك ما تفكر فيه حتى لو لم تقله لي وأقدره. كل شيء يحاصرنا ولا أمل لنا. سأتركك الآن لكن أرجوك لا تحرمني من طلبك لي في أي وقت تحتاجني.

بعد دقائق كانت تقف أمام سيارتها بعد أن وضعت بها حقيبة ملابسها. قبلته بسرعة وقادت السيارة وابتعدت في الطريق إلى الهانوفيل الذي منه ستخرج إلى الكيلو 21 ثم إلى الطريق الصحراوي إلى القاهرة.

ما إن انطلقت بالسيارة وابتعدت قليلا حتى هتفت «غبي. مجنون» وما أن ابتعدت أكثر وقبل أن تدخل في الشارع الرئسي للهانوفيل وزحامه حتى توقفت واندفعت في البكاء واضعة رأسها على مقود السيارة. لقد ارتفع صوتها تبكي بحرقة ويأس عظيمين وسط الخلاء حولها والصمت. لم تكن تدري أن جوارها سيارة تاكسي توقفت وبها عثمان.

ما إن رفعت رأسها حتى انطلق عثمان مبتعدا في الاتجاه الآخر. لايريدها أن تراه. مشى إلى فيلا سامر مذهولا مما رأى.

علـى بـاب الفيلَّا الخارجي توقـف عثمان. لـم يجد أحـدا. في الباحة أمامـه المنضـدة وفوقهـا اللاب توب مغلـق. كيف يتركه سـامر بيه هكذا والناس يسرقون السيارات هنا الآن؟

سـمع صوت هدير ماكينة شفط المياه من خلف الفيلَّا، ورأى السور المهدم. ما الذي يحدث هنا اليوم؟

مشى على مهل فرأى فجأة مجموعة كبيرة من العصافير تطير من فوق الأرض محلقة في الفضاء. ابتسـم. كيف لـم ير هذه العصافير أمامه حقا؟ أشياء غريبة تحدث اليوم.

مشى بحذر أكثر يدور حول الفيلَّا وصوت هدير ماكينة الشفط يزداد. أدرك أن أرض الحديقـة صارت موحلة بشـكل ملفت. يا إلهي. كل هذه المياه ترتفع عن الأرض الآن.

رأى عربـة الشـفط الكبيرة بصهريجها الضخم، وخرطوم الشـفط في الحفـرة المتصلـة بالقناة التي صنعها هو من قبل تخـرج بالمياه من تحت الفيـلا. والعمال يقفون حول الخرطوم والسـائق يجلس بعيدا على قطعة من الحجر.

- ماذا تفعلون؟

سأل فابتسموا وقال أحدهم:

- كما ترى نشفط المياه الجوفية.

- هكذا يمكن أن تتصدع الفيلَّا وتسقط.

استمروا يبتسمون وقال آخر:

- إنها متصدعة أصلا. إنها تقف ببركة ربنا.

همس «ربنا يستر» وسأله أحدهم:

- لكن من أنت؟

- أنا عثمان. سائق البيه.

- طيب يا عثمان شوف شغلك واعمل لنا شاي في هذا البرد. أم تريدنا أن ندخل الفيلّا بملابسنا القذرة هذه؟

نظر إليهم وتراجع يدور حول الفيلّا ليصل إلى الباحة أمامها فلم يجد سامر. جلس مكانه صامتا ينظر إلى الأرض يفكر كيف حتى الآن لم يَرَ زوجة سامر المريضة التي يفعل سامر هذا كله من أجلها. وأين ذهبت الأستاذة غادة. إلى أين كانت ذاهبة ولماذا كانت تبكي؟ لابد أنها غادرت. لماذا جاءت حقا؟ لم يقل له سامر شيئا غير أنها أخت زوجته. لا يصدقه الآن لكن لا يجب أن يعرف شيئا. ثم ما هذه العربة الملاكي الأخرى الواقفة خلف عربة سامر بيك؟ لابد أن شخصا مع سامر بالداخل. هل يسأله عنه إذا رآه؟ لا فليظل كما هو تأتي المعلومات إليه. ما فائدة أن يعرف أي شيء. هو يعرف النهاية التي لا يبدو أن سامر يعرفها أو يعرفها ولا يريد أن يعترف بها. ليدخل يصنع شايا للعمال. لن يدخل قبل أن يظهر سامر الذي لابد في الدور العلوي. لكن ماذا يحدث له بعد أن يرحل سامر وتنتهي القصة. هذا الرجل الغني الذي على غير كل من قابلهم

من الأغنياء سخي جدا وكريم جدا وشديد الاحترام. اتسع الرزق معه في العمل منذ عرفه واتسع الرزق بما يعطيه له. يا رب حقق له ما يريد واشفِ هذه السيدة التي يفعل سامر بيه هذا كله من أجلها. اشفها حتى أراها وأخبرها بما فعل زوجها.

ووضع رأسه بين كفيه وهو يشعر أن وجهه يشتعل بالحزن. لقد تذكر زوجته فقام يمشي أمام الفيلّا ذهابا وجيئة.

كان سامر بأعلى مع الطبيب الشاب عادل الذي بعد أن غير الكانيولا في ذراع ريم والقسطرة. بدا مندهشا أن الكليتين عادتا إلى العمل ووقف يقول له:

- ماحدث معجزة أراد الله بها ألا تتعرض زوجتك لبهدلة أكثر.

- الحمد لله.

- سأنصرف لآتي بعد أسبوع. إذا حدث أي تغير سلبي اتصل بي كالعادة.

- شكرا يا دكتور عادل.

ونزلا معا. سأله الدكتور:

ما هذا الهدير الذي لا ينقطع خلف الفيلّا.

- عربة شفط المياه تشفط الماء الجوفي الذي علا في الدور الأول.

زادت الحيرة على وجه الطبيب واستمر نازلا السلم. لاحظ سامر وهو ينظر إلى الأرض أن الماء فوق السيراميك يكاد يختفي. تنجح المهمة إذن. ابتسم. هذا فأل طيب. ورأى عثمان في الباحة فهتف:

- هل أحضرت الصحف يا عثمان؟

- أجل.

قال عثمان ذلك والتفت ينظر إلى المنضدة مرتبكا ويقول لنفسه أين هي ثم قال:

- بالتاكسي.

وأسرع إلى التاكسي وسامر يبتسم بينما الطبيب الشاب قد توجه إلى سيارته وركبها ومضى. عاد عثمان بالصحف ووضعها على المنضدة وقال:

- العمال يريدون شايا. هل أجهزه لهم؟

- الآن يمكن أن تدخل إلى مطبخ الدور الأول. لابد أن الماء هبط عنه. اصنع لهما شايا ولي قهوة.

جلس سامر إلى المنضدة ثم فتح إحدى الصحف. أخذ يقرأ عناوينها وبعض موضوعاتها. لكنه شرد عما يقرأه. اليوم هو الثالث عشر. لا يريد أن يقف عند ذلك، لكنه يسمع صوت ريم خافتا مثل تنهيدة بعيدة «لسة بدري على يوم خمستاشر».

شـخصت عيناه إلى الفضاء العالي يفكر لماذا يعود إليه ماسـمعه من ريم؟ بعد غد سـيعرف. ستنتهي القصة أو سيأخذها مع نور ويرحلون من هنا إلى العين السخنة. كل من عرفهم هنا لن يعرفوه هناك.

كان عثمان قد عاد حاملا القهوة ويقف أمامه:

- مالك يا أستاذ. هل هناك جديد؟

- لا شيء يا عثمان.

- إنك تبكي يا أستاذ!

ابتسم سامر ومسح دمعة تترقرق في عينه وقال:

- كيف حدث هذا؟ كل شيء على مايرام والحمد لله.

لكن عثمان نظر إليه متأثرا وقال وهو يجلس:

- دعني أحكِ لك حكاية غريبة يا أستاذ.

ابتسم سامر وقال:

- أي حكاية يا عثمان؟ لا تحدثني عن العصابات.

- لا يا أستاذ. حكاية من السعودية.

قال عثمان ذلك وابتسم ثم استمر في الحديث دون انتظار.

- أخي الذي حدثتك عنه والذي انهارت الفيلَّا الخاصة به وطلق زوجته كان قد جمع نقوده من العمل في السعودية.

- تقصد أن نقوده ضاعت.

- لا يا أستاذ. أنا لا أفكر في أي شيء من ذلك. أنا لايمكن أن أفكر في ذلك. اسمع يا أستاذ.

وابتسم عثمان فابتسم سامر وقال:

- أنت تستحق كل الخير يا عثمان

- يعلم الله يا أستاذ كيف أحب حضرتك.

- إذن قل الحكاية.

- أخي كان يعمل في مدرسة بالطائف بالسعودية. هناك منطقة جبلية يقول عنها إنها جميلة جدا اسمها «الشفا».

- الطائف في الجنوب وأسمع عنها وعن جمالها.

- لكن بين الجبال تعيش قرود كثيرة جدا.

- قرود؟

تساءل سامر ضاحكا:

- بالضبط. قرود لا عدد لها أحيانا تنزل تمشي في الطرقات. الناس هناك يغلقون بيوتهم في المساء خوفا من دخول القرود.

نظر إليه سامر صامتا مندهشا واستمر عثمان:

- أخي كان معه زوجته وابنه الأول. كانوا يسكنون بيتا عربيا. البيوت العربية غرفتان أو ثلاثة حول حوش كبير بلا سقف.

- أعرف.

- في ليلة كان أخي قد اشترى جوال دقيق وتركه في الحوش.

- ولماذا يشتري الدقيق؟

- مجنون. أقام فرنا صغيرا مثل الأفران التي نقيمها في الريف وقال لزوجته أن تخبز فيه. خبز طازة.

ابتسم سامر ونظر إليه فقال عثمان:

- لا تعرف ماذا حدث. في إحدى الليالي نسي هو وزوجته إغلاق الباب الخارجي. في منتصف الليلة استيقظ على أصوات غريبة. تسلل من جوار زوجته في السرير وفتح الغرفة ليرى عددا من القرود تقفز بعد أن فتحت جوال الدقيق وراحت ترش بعضها بالدقيق الأبيض وتضحك.

ضحك سامر بقوة فقال عثمان وهو يكتم ضحكاته:

- آه والله يا أستاذ. أخي حكى لي كيف توقف ذاهلا ثم تقدم وأسرع إلى عصا كبيرة يركنها دائما قريبة من الباب توقعا لأي شر، ثم هجم على القرود مهوشا لها بالعصا فهربت تصرخ وتضحك لكن كان الدقيق كله قد تناثر على الأرض. وقف أخي يضحك في النهاية من مشهد القرود السوداء وقد صارت بيضاء.

ضحك سامر ولم يتوقف فقال عثمان:

- الحمد لله. لقد ضحكت.

سأله سامر:

- لو كنت ألفت هذه الحكاية لتضحكني أشكرك جدا.

- لا والله يا أستاذ هذه هي الحقيقة. اسمع بقية القصة.

- قل يا عثمان.

- أخي كان صديقا لتاجر وصاحب مطعم أيضا تعوّد كل أسبوع أن يأخذ ما بقي لديه من خضر وفاكهة وطعام في سيارة نصف نقل، «وانيت» كما يسمونها هناك، ويذهب إلى الجبل يلقي بما معه للقرود. كانت القرود قد عرفته وتعودت عليه. كان أخي يذهب معه ليشاهد المنظر.

- غريب!

- طبعا. قال لي أخي إن التاجر كان يقف أسفل الجبل يصفر من فمه صفارة يعرفها القرود، فتظهر على الجبل من أعلى وتقف تقريبا صفا واحدا تنظر إلى التاجر، الذي ما إن تظهرالقرود حتى يبدأ هو وأخي في إنزال ماحملته العربة. تبدأ القرود في النزول بسرعة ماعدا قردًا واحدًا ضخمًا كان يظل واقفا في مكانه ينظر إلى الجميع من أعلى الجبل.

ضحك سامر وقال

- طبعا هذا الزعيم.

- بالضبط. حضرتك تعرف حياة القرود إذن!

ضحك سامر فاستمر عثمان في الحديث:

- لا ينزل هذا القرد أبدا ولا يتعب نفسه. تبدأ القرود تجري ناحيته تقدم الطعام إليه.

ثم سكت عثمان يضحك وقال مندهشا:

- القرود التي تحمل الطعام إليه هي إناث القرود كما قال أخي. النسوان يعني.

تأمله سامر مبتسما ومندهشا أكثر فاستطرد عثمان:

- الظاهر هي طبيعة في الحيوانات. النسوان تخدم الرجال في كل نوع

وسكت عثمان. بدا كمن يتحسر على شيء يفكر فيه أدرك سامر أنها زوجته فقال:

- ارجع للحكاية. لا تقلّب على نفسك المواجع.

- على نفسي فقط يا أستاذ؟ والله لو أعرف ان الحكاية ستنتهي بهذا ماكنت بدأت.

- قل لي لماذا عاد أخوك من هناك. إلى هنا والأمور بخير.

قال عثمان بلامبالاة:

- اشترى أخي سيارة قديمة من «الحراج». سوق الأشياء القديمة يعني. أول يوم ركبها راح عند الجبل. كان هناك قرود كثيرة تحت الجبل وفوقه. لسوء حظه داس على قرد صغير.

- معقول؟ لن يتركوه. غضبة القرود جبارة.

- هذا ماحدث يا أستاذ. هاجمت القرود السيارة لكنه هرب منهم. تعرف ماذا جرى؟

- ذهبوا إلى بيته ماداموا قد ذهبوا من قبل.

- ياليت. راحوا وسط الليل المدرسة التي يعمل بها خربوا المعمل ومزقوا كل ما وجدوه من أوراق في الغرف وكسروا كل شيء يمكن تكسيره.

هنا ضحك سامر بقوة فقال عثمان:

- آه والله. عرفوا المدرسة يا أستاذ.

- معقول؟

- مدير المدرسة قال له لا نريدك هنا. القرود لن تتوقف عن الهجوم. ابحث لك عن مدرسة أخرى. لا مدرسة هناك وافقت أن ينتقل إليها. رجع مصر.

عاد سامر يضحك من جديد ووقف عثمان يقول:

- الحمد لله أن حضرتك ضحكت مرة ثانية. أتركك الآن أم تحب أظل مع العمال؟

- لا سوف ينتهون ويغادرون. أشكرك يا عثمان جدا.

وقف عثمان وصافحه. كاد في لحظة يخبره كيف شاهد غادة تبكي في السيارة، لكنه لم يجد معني لذلك بعد أن أضحكه. ومضى إلى التاكسي واختفى به.

قام سامر على مهل ينظر إلى الغيوم التي زادت في السماء. نذير مطر جديد شديد. رأى تاريخ اليوم من جديد في الصحف. أغمض عينيه يفكر هل يمكن؟ هل تعرف حقا تاريخ رحيلها؟ فكر أن نور ستأتي في اليوم الخامس عشر. هل سمعتها ريم وهي تكلمه؟ هل الطرق مفتوحة هكذا بين الأرواح؟ أغلب الظن أن الطرق مفتوحة وتريد ريم أن ترى نور عينها وقلبها. ابنتنا نور. لكن هل هي أصلا التي كانت تتكلم؟ أم كل ذلك تخيله وأسمعته له رغبته أن تتكلم مرة؟

جمع الصحف ودخل إلى الصالة. تركها على منضدة السفرة. لاحظ أن المياه اختفت تماما من فوق السيراميك. لقد نجحوا تماما إذن.

صعد السلم إلى الدور العلوي ودخل الحجرة. رأى ريم على حالها. وقف ينظر إليها ويسأل نفسه. كيف لم يعد يعرف عدد الأيام التي مرت هنا. كم مضى عليه من السنين والأعوام وهو معها وحدهما هنا؟ لكنه فكر بعمق. كانت هنا امرأة أخرى يخايله اسمها. هل كانت هنا حقا امرأة أخرى؟ وبدأت الغرفة تغيم من حوله. إنه يراها معه ومع ريم في فرانكفورت في ألمانيا. في أكثر من مدينة أوربية. لا يراها معهما في مصر. من إذن كانت معه هنا؟ تلفت حوله غير مصدق. بدا له المكان غريبا يراه لأول مرة. هل هذه ريم حقا المسجاة فوق السرير؟ ومشت أصابعه على خده إذ يشعر بشيء كالنمل يسري في وجهه. لقد طالت ذقنه جدا كما قالت غادة من قبل. غادة؟ إذن كانت هنا!

التفـت ينظـر إلى المرآة المثبتة في الحائط. لا شـعر فـي وجهه وذقنه ناعمـة إذ حلقها في الصباح كما يفعل كل يوم. لكن صوتا أتاه من أسـفل ينـادي. هو هنا وهذه ريم وهؤلاء هم العمال جاءوا يشـفطون الماء. كل شـيء فـي مكانه والزمـن لا يتحـرك. لكنه رأى فراشـة تحـوم فوق وجه ريم. فراشـة؟ سـأل نفسـه مذهولا لكنه سمع الصوت من أسـفل يناديه من جديد.

نـزل على مهل. خرج إلى العمال فـي الباحة. دفع لهم ما طلبوا. قال لـه أحدهم إنـه يمكن أن يدور معهم حول الفيلّا ليرى مافعلوا. هز رأسـه وسكت فقال العامل:

- لابد أن نأتي مرة كل شهر على الأكثر وإلا ستتعرض الفيلّا للانهيار.

هـز رأسـه موافقـا. في الحقيقـة غير مكتـرث. كان يفكر في الفراشـة واليـوم الخامـس عشـر. هـل عرفـت ريـم وأخبـرت الفراشـات أم هي الفراشات أخبرت ريم؟

يـا الله. يا إله الكون. يا صاحب الملكوت. لماذا ترسـل لي كل هذه النذر؟

18

صمت وليس إلا الصمت. ها هو الليل ينتصف وهو لا يستطيع النوم. يجلس أمام سرير ريم كأنه لا يريد لأحد أن يأخذها منه. أن يأخذها في غيابه. سيحرسها حتى تأتي نور. سيحرسها إلى الأبد. دار يشعل كل أضواء الغرف. الموت يأتي غالبا في الظلام. هكذا عرف من الحياة حوله. أكثر من عرف بموتهم ماتوا بالليل! لو يستطيع يضيء الشارع أمام الفيلا. كيف حقا نسي نور الحديقة. سقط جزء كبير من سورها ولابد أن الدائرة الكهربية انقطعت. لكن لنور المصابيح أعلى السور أكثر من مفتاح ومن ثم يمكن أن يضيء مابقي منه. لقد وضع الجنايني من قبل المصابيح الجديدة لكنه،سامر، نسي أن يضيئها فليجرب.

ينزل إلى الدور الأول على مهل. يدور على كل الغرف يضيؤها. يعود إلى الصالة يضيء مصابيح الحديقة فتضيء. لم تتأثر الدائرة الكهربية بالجزء الذي أسقطه عمال الشفط من السور. فأل حسن.

يفتح الباب ليرى الضوء حول الفيلا. يراه و يرى خيوطا من المطر رفيعة تنزل من السماء. لاصوت للمطر. ستمر الليلة بلا برق أو رعد؟ لو يستطيع يشعل هو البرق معلنا استمرار الحياة. لم يحدث أن فعل أحد ذلك

من قبل. يغلق باب الفيلا. ينظر إلى البيانو. سيعود إليه يمضي بقية الليل معه. لكنه يصعد إلى ريم مرة أخرى. لم يتناول عشاءه ولايريد. لو تنهض ريم تعد له العشاء. حتى لو العشاء الأخير. المهم أن يراها أمامه تقدم له الطعام. لو تفعل ذلك مرة واحدة ستظل معه إلى الأبد. لكنه لايسمع أنفاسها. يرى صدرها لايزال يرتفع وينخفض. صار أقل حركة. هي الرقة نفسها إلى النهاية حتى وأنتِ لا تصدرين الأنفاس يا ريم! ينتبه إلى أنه لاصوت موسيقى من الراديو الذي يتركه دائما مفتوحا بالليل والنهار. إنه يجعل الصوت خافتا لأنه يعرف أن الرقة هي التي تجد طريقها إلى ريم. لا يرفعه إلا حين يخرج ويتركها لبعض الوقت. الراديو على منضدة صغيرة في الركن. ينهض ويرفع الصوت ولا صوت. لا موسيقى ولا نشاز. يغير المحطة ولاصوت. لا موسيقى ولا نشاز. لابرق في الخارج يمكن أن يعطل الموجات عبر الأثير. يشم رائحة شياط خفيفة. هل احترق الراديو وهو لايدري؟ يرفعه يقربه من أنفه. تزداد رائحة الشياط. لقد احترق فيه شيء حقا. يضعه مكانه. كان عليه أن يدرك أن الراديو لن يتحمل العمل كل هذا الوقت. منذ جاء إلى هنا لم يغلقه يوما. ساعة. دقيقة. هل حقا كان يسمع صوته من قبل؟ أم أنه احترق منذ وقت طويل وهو لايدري؟ ليس مهما. سينزل بعد قليل يعزف على البيانو كما قرر من قبل. سيملأ البيت المضيء بنور إلهي. نور الموسيقى الذي أبهرت ريم به الدنيا. من موسكو إلى شيكاجو. من استكهولم إلى صقلية. من طوكيو إلى لندن. إنه يسمع الموسيقى تناديه. صوت فيروز:

«يا أنا يا أنا أنا وياك

صرنا القصص الغريبة

يا أنا يا أنا أنا وياك

وانسرقت مكاتيبي

وعرفوا إنك حبيبي»

الحركة الأولى من السيمفونية الأربعين من مقام صول صغير لموزار. لقد كان موزار حزينا ضائعا وهو يكتب هذه السيمفونية يستعرض فيها جراحه. سينزل إلى البيانو الآن يعزفها مادامت قفزت إليه. نزل على مهل وهويسمع مقطوعات لفرانز شوبرت. خماسيات يشترك فيها البيانو. الثلاثية رقم 2 من مقام ري بي مول كبير حيث البيانو والتشيلو والكمان يسبحان به إلى شجن صعب، إلى وداع لا يريده الآن. لقد جعلتِني عابدا للموسيقى يا ريم! كنت أنسى كل آلامها لأني في النهاية معك.

وتداهمه مقطوعات موسيقية كثيرة. يصل إلى البيانو في وقت طويل. هل كان وقتا طويلا حقا أم هو الذي يسلم نفسه لأصوات الموسيقى. لقد وصل إلى البيانو ويجلس أمامه الآن لكنه لايفعل شيئا. يسمع الرابسودية المجرية رقم 2 لفرانز ليست تتهادي حوله والبيانو يتحرك بين فيولينات لايراها. الرابسودية مثل البحر الحزين وهو دون أن يدري صار يحرك ذراعه كقائد للأوركسترا. على مهل حينا وبسرعة حينا. قريبا أو بعيدا ورأسه تهتز في استغراق عميق. لقد نزل من أجل موزار فأخذه

غيره لكنه يسمع الآن كونشيرتو البيانو رقم 21 لموزار. عاد موزار. عاد أماديوس موزار. عاد «حبيب الله» موزار. وكادت دمعة تقفز من عينه. إذن أخذته إيقاعات بيانو فرانز ليست السريعة إلى موزار. لا يدري من يفعل به ذلك لكن ما أجمله إذا كان بشرا خفيا، وما أعظمه إذا كان الله. من ينقله الآن إلى مندلسون وكونشيرتو البيانو رقم«1». لمسات سريعة لا يعرف أين، تنقل له اللحن طائرا يسبح. ثم لمسات هادئة وتهتز رأسه على مهل مغمضا عينيه حتى يتسارع الإيقاع من جديد ثم يعود للهدوء وهو في الحقيقة يفعل ذلك وهو جالس وسط جمهور الأوبرا في مصر وفي غيرها من مدن العالم، فريم هي التي تعزف أمامه ومعها بقية الفرقة بالآلات الوترية وهو أعظم المتبتلين فيما تعزف.

ينتقل إلى بروكوفييف وللكونشيرتو رقم «3» ولرقصة الليل. الكونشيرتو رقم «1» للبيانو أيضا لكن لتشايكوفسكي. وتتسارع المشاهد الأسبانية الرومانتيكية على البيانو لإنريك جرانادوس. تكاثرت حوله السيمفونيات والمقطوعات التي سمعها مع ريم في كل الدنيا وأحس بالتعب. تراجع بظهره وأغمض عينيه.

كثيرة هي الحفلات التي أحيتها ريم. كثيرة هي البلدان التي زارتها وحدها وزارها معها. العالم يتسع به الآن ويكتشف أنه يمشي معها وسط الليل الواسع بالصمت في بلاد تداخلت أسماؤها. هواؤها واحد لأن الليل كان بعد الموسيقى والنهار انتظار لها!

إنـه لم يعزف شـيئا ولا يعزف شـيئا الآن. هـي التي كانـت معلقة في مكان في فضاء البيت تعزف. الألحان تأتي إليه من أعلى. هل نقل البيانو هناك وهو يراه أمامه؟

نهـض علـى مهل من أمـام البيانو وفتح بـاب الفيلّا ليـرى الليل. كان على يقين أنه سـيراه مشـتعلا بالضوء. رأى المصابيح فوق سور الحديقة مضاءة حقا لكن نورها ضعيف وسط كل هذا الظلام الذي تزيده السحب الثقيلة التي حجبت كل النجوم. لا أثر لشيء يتحرك الآن. عاد على مهل ودخـل مـن جديد. جلس أمـام البيانو في عزم وتصميـم ليعزف. لابد أن يعـزف ويكون مصدر الألحان. لن يترك نفسـه للذكريـات تتداعى عليه. لكن هذه الموسـيقى البطيئة من أين تأتي. من زمان لـم يسـمعها. لايمكن أن تعزفها ريم الآن رغم أنها تحبها. لماذا يا ربي لا ترسل لي الآن مارش الـزواج لمندلسـون تعيـد إلـى سـعادتي؟ إنه يسـمع «أداجيـو» البينوني. تعشـقه ريـم. عـرف ذلك وهـو يحضر معها إحـدى حفـلات الأوبرا في نابولـي ورآها وهي جواره تغيب عنه. تكاد دمعـة تنفجر من عينها. قالت له بعد الحفل لم يشتهر تومازو البينوني إلا متأخرا رغم أن باخ تأثر ببعض أعماله. مضت عشـر سـنوات على تلك الليلة ولا ينسى. آلات الفيولين تعـزف مرثية الوداع. لمـاذا لايبتعد عنه هـذا «الأداجيـو» الجميل القاتل الآن؟ بحـار تجف فيها المياه. أسـماك تظهر فوق الرمـال بلاحركة. قمر تغطيه السـحب. طيور تقع من السـماء. صحراء ولا أفق. جسر يمتد فوق بحـر ولا أحد. أفق يقترب هابطا إلى البحر بغيوم تتمدد. صخور سـوداء

كبيرة تملأ الشاطئ. فليعزف هو ولايترك نفسه لما يحمله إليه فضاء البيت الصغير. ما أكثر الموسيقى المبهجة في هذا العالم فلماذا يتداعى إليه الحزن؟

فكر فجأة أنه منذ ظهر المرض اللعين يعيش هذا الأداجيو. حتى هنا. وما أثاره السائق عثمان من بهجة لم يوقف اللحن الحزين. حتى غادة التي حملته إلى لذة كونية افتقدها أعادت إليه كل همومه.

أغمض عينيه ووضع يديه على مفاتيح البيانو وأخذ نفسا عميقا. سيترك نفسه يعزف ما تأتي به لمساته. لن تأتي إلا بالبهجة التي هو في حاجة إليها الآن.

مع أول لمسة لأحد المفاتيح صدر نشاز سريع كأنه صرخة طائر صغير حتى أنه توقف في ذهول ينظر إلى المفتاح لايصدق. لمس مفتاحا آخر فأصدر صوتا كأنما يطرق على حديد بمطرقة. ثالث فحدث الأمر نفسه وازداد. رابع وخامس وسادس. ما الذي يحدث. نهض مفزوعا لا يصدق ما سمع. ابتعد خطوة ونظر إلى المفاتيح يفكر هل صارت الأوتار تحتها وتحت الجواكيش حديدا. عاد من جديد. لاشيء إلا أصوات صاخبة متداخلة لا يستقيم فيها لحن. البيانو فقد اتصاله الإنساني معه. البيانو الذي كان يفرح وتكاد تتحرك مفاتيحه عازفة وحدها حين تجلس عليه ريم وقبل أن تشرع في العزف.

وقف وتراجع ينظر إلى البيانو في حسرة. لقد احترق الراديو ليس لأنه تركه دائما مشتعلا، وأتت الفراشة الآن رغم أن الشجر حول الفيلّا طول

الوقت، واهتاج البيانو صارخا من لمساته التي أراد بها البهجة، وسألت ريم عن اليوم الخامس عشر، هي ولا أحد غيرها.

تتمزق الآن أوتار قلبه. لقد أزفت الآزفة يا سامر. ليس أمامك إلا الرضا بما أراده الله. الرضا من أجل نور. الرضا لتضيء عالم ابنتك الوحيدة. وكل ما يحدث الآن يعني فتح الطريق إلى الجنة.

لم يشأ أن يصعد إليها حزينا. جلس متراجعا بظهره مغمضا عينيه منتظرا صباحا سوف ينتهي فيه كل شيء.

19

وقف في الصباح أمام ريم. هل سيمر الوقت سريعا اليوم أم سيكون على عادته يمشي على مهل وسط هذا الفراغ؟

غيّر لها كيس تجميع البول ووضع الدواء في المحلول بعد أن غير ملابسها. ليس هناك شعر في العانة الآن رغم أنه كان قليلا، ولا تحت إبطيها. كانت هنا غادة بحق وهي التي اعتنت بها هذه العناية الفائقة التي لم ينته أثرها بعد. تركت خلفها زجاجة عطرها. يراها على الكوميدينو جوار السرير. عطّر بها ريم! إذا قابلتك يا غادة سأقول لك أني فعلت ذلك وأن عطرك لم يغادر الغرفة وأنني فقط لم أكن ميسرا لامرأة أخرى ولن أكون ميسرا لغير ريم. سأعتذر عن أمر ليس من صنعي ولابد أنك انصرفت لإدراكك هذا.

نظر في ساعته فوجدها تدخل في الحادية عشرة. ساعة وتصل نور إلى القاهرة.

أخذ كل ما سيلقيه في سلة المهملات، وأخذ السلة ومشى إلى كوم الزبالة البعيد. كان كلبان كبيران يدوران حول كوم الزبالة. ترك ما معه بهدوء وعاد على مهل. يعرف أن الكلاب تتبع من يجري منها. وحين

اقترب من الفيلّا توقف إذ شعر بالكون يتسع إلى ما لا نهاية خاليا من الفلل والبيوت. اتسعت به الوحدة. تماسك ونظر حوله فرأى كل شيء أبيض. لا سحب سوداء اليوم. الكون يشتعل نورا رغم أي شيء. ابنته «نور» القادمة تملأه بالضوء الشفيف. لكن هل سيظل هكذا حتى تصل نور؟ ستصل نور هنا مع أول المساء إذا وصلت الطائرة في موعدها.

أعد لنفسه إفطارا مثل كل يوم. جلس يأكل ويتصفح جرائد الأمس. لقد تأخر عثمان، لكنه لابد سيأتي. سيحفظ كل حكاياته يحكيها يوما لريم! اتسعت عيناه بالحسرة وهو يقول ذلك. طلب رقم نور في الموبايل. لا يزال مغلقا. باقي نصف ساعة على الثانية عشرة. ظل يتصفح الجرائد.

دق جرس الموبايل فنظر فيه ليرى رقم واسم نور. التقطه بسرعة:

- حمدا لله على السلامة يا حبيبتي.

- ربنا يخليك يا بابا. الطيارة وصلت في ميعادها. الساعة 12 بالضبط.

ارتبك للحظة وسمعها تقول:

- لم يفتح لنا باب الطائرة بعد. دقائق ويفتحونه. نصف ساعة إن شاء الله أكون خارج المطار. أين أنت الآن يا بابا؟

تردد قليلا وقال:

- في الإسكندرية. في فيلا العجمي. سامحيني لم أرسل إليك أحد لاستقبالك ولم أستطع الحضور. سأحدثك حين أراكِ لماذا فعلت ذلك. ماما في انتظارك يا حبيبتي.

لماذا حقا فعل ذلك؟ لماذا لم يخبر مدير أعماله أن يرسل إليها سائقا يأتـي بها من القاهرة. لا يريد لأحد غير مدير أعماله أن يعرف مكانه. هل لايزال يصدق أنه يخفي ما يفعل عن الناس جميعا بعد أن ظهرت صورته فـي الصحف، وبعـد أن جاءت غادة وغادرت، وبعد أن تعوَّد عثمان على الحضور كل يوم، ولابد أنه يحكي لكل من يعرفهم ما يدور هنا، وبعد أن تعرف عليه تاجر السـمك في المكس وسأله عن ريم وغادة، وبعد أن زار علياء فوجدها تعرف، وبعد أن كشـف شـيخ الجامع سـر حضوره، وبعد وبعد وبعد!. هذا ماحدث. لايريد أن يلوم نفسه أكثر. لقد توقف عن نقطة من الزمن ولـم يعد يتحرك. هو يعرف لكن هكذا ارتاحت نفسه ولـم يضر أحدا. لكنه ابتسم. هكذا المجانين يا سامر يندهشون جدا إذا سألهم أحد عما يفعلون وسعداء جدا بما يفعلون.

ظهر عثمان يتوقف بالتاكسي فوقف سامر يستقبله مما أدهش عثمان.

- آسـف يا أستاذ جلست بالمقهى وقرأت الصحف. بصراحة قلّبت فيها كلها أسـأل نفسـي لماذا حقا تواظب على قراءتها كل يوم. لا فرق بينها وكلها يقول الكلام نفسه.

ابتسـم وتناولهـا منه. وضعها علـى المنضدة وجلـس يتصفحها فقال عثمان:

- صور مدام غادة في جريدة الأهرام.

نظر إليه مندهشا ثم بدا غير مهتم، لكنه فتح الجريدة بهدوء فقال عثمان:

- في الصفحة الأخيرة.

قال:

- ليتك تعد لي فنجان القهوة.

- حاضر.

أجاب عثمان واتجه إلى الداخل. فتح سامر الصفحة الأخيرة فرأى وجه غادة الجميل وتحته قرأ:

«الفنانة الموسيقية الكبيرة غادة صالح تسافر إلى أوربا بعد أسبوع لتشارك في حفلات موسيقية مختلفة في أكثر من دولة».

راح يتطلع إلى وجهها الذي راعه جماله عن كل وقت، لكنه سرعان ما أغلق الجريدة وتناول أخرى يقرأ ويتنقل بين الأخبار. وقعت عيناه على تاريخ اليوم. الخامس عشر. الخامس عشر. ترك الصحيفة من يده. لم تقل ريم شيئا. أجل. ولم يسمع منها شيء. لكن عثمان عاد من الفيلَّا يحمل فنجان القهوة ووضعه أمامه وقال:

- كنت أتمنى أن نصطاد اليوم لكن لا أظن أنك ستقدر.

لم يرد سامر فقال عثمان:

- تبدو لي مشغولا اليوم جدا. هل تنتظر أحدا.

- أجل ابنتي قادمة اليوم من ألمانيا. اجلس يا عثمان.

جلس عثمان. طال الصمت وعثمان ينظر إليه في حيرة ثم قال سامر:

- آن الأوان أن أحدثك فيما سأفعل لك.

- لي أنا يا أستاذ؟

- أجل.

وسكت سامر لحظات ثم ابتسم وقال:

- غدا سيكون آخر يوم لي هنا.

- ستغادرون الإسكندرية؟

- أجل.

- لكن!

تساءل عثمان متحيرا. سكت سامر من جديد وأحس بالدمع يكاد يتفجر منه فتماسك وقال:

- لقد ظهرت الفراشة يا عثمان.

شخص عثمان إليه غير مصدق. قال سامر:

- اليوم أو غدا ستغادرنا ريم. وإن أطال الله في عمرها سأنتقل بها وبابنتي نور إلى مكان آخر. من الصعب أن تبقى نور معنا هنا في هذا الخلاء في الشتاء.

سكت عثمان مرتبكا. تذكر غادة يوم صيد السمك حين ذكرت ريم ثم قال:

- المدام اسمها ريم؟

- أجل.

- اسم جميل. لكن لماذا تقول ذلك يا أستاذ؟ خلي ثقتك في الله كبيرة. حضرتك صدقتني. أنا كان يهيأ لي. من أين تأتي الفراشة في حي مثل الورديان ليس فيه شجرة واحدة. ثم إن الفراشات تظهر هنا كثيرا. الفيلّا محاطة بالشجر. لابد أنها تظهر كل يوم ولاتراها حضرتك لانشغالك. أي والله.

سكت سامر قليلا. كاد يحكي له ماجرى للراديو والبيانو وسؤال ريم عن اليوم الخامس عشر لكن عثمان قال:

- يا أستاذ لا يعرف المواعيد إلا الله. ثم إن الله قادر أن يبدل كل شيء.

- أعرف. وهكذا سيفعل. سيبدل كل شيء. لن يخذل ريم. هي تعرف موعدها معه.

تأمله عثمان متأثرا وقال:

- أستاذ سامر. مالك اليوم؟

- المهم يا عثمان لقد فعلت شيئا أرجو أن تتذكرني به.

- خيرا يا أستاذ.

- كتبت لك عقد تنازل عن هذه الفيلَّا.

- لي أنا يا أستاذ؟

- أجـل. إذا هدمت الفيلَّا وبنيتها من جديد تذكرني. إذا بنيتها عمارة كما سـيحدث مع معظـم الفلل التي هجرها أصحابها وسـيبيعونها تذكرني أيضا. تسـتطيع أن تبيع جزءا مـن أرض الحديقة وتفعل ذلك. وفي كل الأحوال أطلق عليها اسم ريم.

سكت عثمان حائرا وأحس بالحب الشديد نحو سامر فقال:

- سـيظل كل شـيء في مكانه يا أسـتاذ وستعيش الأسـتاذة ريم وستعود أيامكما في الفيلَّا وستتذكرني أنت.

قال ذلك ووقف متأثرا وقال:

- سأنصرف الآن.

ولم ينتظر فمشي مسرعا، قابله هدهد طائر بسرعة كاد يصطدم بوجهه لكنـه انحـرف عنه وارتفع ليقف فوق شـجرة. رأى سـامر ذلك فابتسـم. كيـف حقا لن يـرى عثمان الطيب مـرة أخرى؟ قـرر أن ينهض يطل على ريم. سيجلس جوارها كثيرا اليوم.

دخـل غرفتها ووقف مذهولا. هذه هي الفراشـات تطير فوق وجهها. ليست فراشة واحدة كما رأى أمس. فراشات بيضاء تدور ولا تتوقف. لم تـأت اليوم مع المسـاء كما كانت تأتي الفراشـة لزوجـة عثمان. لقد أزف الموعد يا ريم فلا تتركيني.

كاد ينهار لكنه فكر فجأة كيف دخلت هذه الفراشات إلى هنا حقا والنافذة مغلقة. الشيش والزجاج. هل دخلت من أسفل وصعدت إلى أعلى أم من إحدى الغرف. ترك الغرفة ودخل الغرفتين الأخريين. كل النوافذ مغلقة. يكاد يصرخ يا إلهي لا تتركني وحدي. يا إلهي أعطني وقتا.

عاد إلى غرفة ريم. فتح النافذة بسرعة فخرجت الفراشات مسرعة منها. إذن هناك وقت لنا معا يا ريم.

أغلق النافذة من جديد وجلس منهارا أمامها، لكن فراشة كانت قد وقفت على الحائط لم تخرج عادت تدور فوق وجه ريم. أغمض عينيه في أسى وقال لها سأشرد عنك الآن لأتذكر ما لم أتذكره مما مضى من العمر. الماضي إذا وقف أمامي سيزود عنه كل خطر يا ريم. لايمكن لكل هذا الجمال أن يقدر عليه أحد.

لكنه عجز عن أن يتذكر أي شيء. فقط يأتيه صوت موسيقى شجية من البيانو في الصالة السفلى. من يكون هنا الآن غيره؟

وقف وتقدم خارجا ثم نزل في حذر. لم يجد أحدا. نظر إلى مفاتيح البيانو فرآها تتحرك وحدها هابطة صاعدة. هل عادت إلى وضعها الطبيعي. كيف؟ لايد ولا أصابع فوقها ولا أحد أمامها لكنها تتحرك. كيف عادت الآن تعزف بهذا الشجن؟

اقترب في حذر ثم وضع أصابعه على البيانو وضغط بها فصدر صوت نشاز، وفعل ذلك مرة أخرى فصدر الصوت الصاخب صارخا بالرفض والضيق. لم يكن شيء يتحرك يا سامر، وكل مفتاح ينتظر لمسة ليصرخ ولن يعود إلى إنسانيته إلا إذا مسته ريم. روح ريم في أناملها.

لكنه دقق النظر في البيانو يقول لنفسه لم يكن هناك أصلا مفاتيح تتحرك ولا كانت هناك موسيقى ولم يعد لديك من العقل شيء يا سامر فلتتماسك.

دار حول نفسه يفكر أنه لن يستطيع البقاء هنا اليوم. وقت طويل جدا حتى تصل نور. لكن صوت نور يأتي من الخارج. «بابا أنا هنا. أين حضرتك».

كم الساعة الآن وهل هذه نور حقا؟ يسمع صوت أقدامها تصعد السلم. إنه لم ينزل أصلا إلى أسفل ولم ير البيانو ولا يذكر أنه ترك باب الفيلّا مفتوحا. يرى نور أمامه. لقد مرت خمس ساعات إذن وهو في الغرفة مع ريم ولايدري.

ما إن رأت نور أمها مسجاة على السرير حتى انفجرت صارخة «ماما» وألقت بنفسها عليها وراحت تقبلها في وجهها وصدرها ويرتفع صوت بكائها ويرى دموعها على صدر أمها ووجهها. لقد وصلت نور بحق وها هي أمامه وليس خيالا مايراه. وها هو يرى ريم تبتسم.

20

كان متعبا حزينا يفكر هل كانت ريم تنتظرها لتمضي.

لقد ضاعت ابتسامتها التي لم تطل لنور عند وصولها، وإذا بالنصف الأعلى لريم ينتفض كأنها تريد القيام.

- ساعديني يا نور. لنسندها إلى ظهر السرير. ماما تريد الجلوس.

دارت نور إلى الناحية الأخرى ورفعت أمها من عند الكتف كما يفعل هو. أرجعاها لتستند بظهرها إلى السرير. لكن امتد فمها إلى الأمام مع عنقها وراح مافي بطنها يخرج منه وصوتها لايكاد يبين. صرخ:

- اخرجي يا نور. اخرجي. لاتري ما يحدث.

خرجت نور جارية تصرخ «ماما» وهو تماسك وأبعد رأسها عن ظهر السرير وأماله إلى الأمام، وراحت معدتها تطرد كل شيء سائلا أبيض وأخضر وأحمر وكله ينزل على صدرها ويمشي فوق الجلباب إلى بطنها وهويسندها من الخلف غير مصدق أنه كان في معدتها كل هذا الماء المتخثر. كفت ريم فمد يده إلى كيس الورق الكلينيكس على الكوميدينو

المجاور للسرير وراح يمسح شفتيها قبل أن يمددها من جديد ليبدأ في خلع جلبابها. ارتعشت واهتزت ومالت رأسها إلى الجانب وحط صمت لم يعرفه من قبل:

- ريم.

قال بصوت خفيض. كرر القول.

- ريم.

ثم خرجت منه الآهة التي لم يكن ينتظرها.

آه.

انهار جالسا وأمسك بمعصمها. لا نبض في عروقها. وضع رأسه على صدرها. لا خفقان في قلبها.

ظهرت نور واقفة تكاد تقع عند الباب ودموعها تسقط من عينيها فأشار إليها أن تبتعد. لم يسمح لها بالدخول. ولأنها ستدخل ولن تنتظر كثيرا تمالك قوته وخلع عن ريم جلبابها وفصل عنها كيس المحلول. وفصل كذلك كيس البول وألبسها جلبابا منزليا جديدا. اختاره من أبهى جلابيبها رغم أنه لن يبقى عليها إلا ساعات. ترك كالعادة فصل الكانيولا عن معصمها والأسطرة عن مثانتها للطبيب الشاب عادل الذي سيتصل به بعد أن تنام نور.

لكن نور لم تنم. دخلت الغرفة حين سمح لها ورأت وجه أمها أبيض مضيئا وعينيها مغلقتين وفمها مذمومًا مغلقًا فألقت بنفسها عليها مرة أخرى. راحت تبكي. أبعدها. حاول إقناعها أنها كانت تنتظرها. رأتها فاطمأنت وذهبت إلى أجمل مكان. الجنة. كان يبكي ونور تبكي ثم انفردت في حجرتها تبكي وهو جالس في مكانه ينظر إلى ريم.

عند الفجر دخلت نور من جديد و جلست أمامه وجوار السرير المسجاة عليه ريم. قالت له معاتبة في ألم:

- لماذا فعلت ذلك يا أبي؟

قال:

- وجودك لم يكن سيمنع شيئا يا نور. أردت أن أكون معها وحدنا.

- لكن لابد أن ننقل ماما إلى أكبر مستشفي فى الدنيا. لقد ابتسمت لي يا أبي حين رأتني. هي ترانا وتسمعنا.

وقف وأمسك بيدها وقال متوسلا:

- آن الأوان أن ترتاحي يا نور. لن أتحمل ألما أكثر مما أنا فيه. لا اعتراض على قضاء الله يا ابنتي. ماما أمامك لكن روحها في السماء الآن. قبلي ماما القبلة الأخيرة واتركيني. صغيرة أنت على الجلوس مع الموتى يا حبيبتي.

انحنت نور لتقبل ريم لكنها ألقت بوجهها على صدرها تبكي من جديد. رفعها عنها بهدوء وقال:

- تعالي يا حبيبتي إلى غرفتك. أمامنا عمل صعب مع الصباح.

قامت نور باكية فأسندها إلى صدره وأخذها إلى حجرتها وقال لها:

- نامي بعض الوقت.

- لن أستطيع.

- إذن فلتكوني بعيدة عنها.

انهارت على مقعد تبكي وخرج هو عائدا إلى ريم.

أخبر الطبيب عادل بما جرى وطلب منه أن يأتي معه بطبيب الصحة ليسمح لهم بدفنها. اتصل بمدير أعماله. سيصل أيضا مع الصباح ومعه سيارة نقل الموتى. اتصل بعثمان وطلب منه الحضور ومعه امرأة تقوم بالغسل لريم. الطبيب عادل بدا مرتبكا لحظة في الرد ثم قال له الدوام لله. مدير الأعمال قال له «الدوام لله يا سامر بيه» أما عثمان فقد انفجر باكيا على الناحية الأخرى.

نام في مكانه على المقعد واستيقظ على صوت العصافير. انتبه إلى أنه أكثر من مرة ارتعشت يد ريم في يده. ربما كان يحلم. لابد كان يحلم. يدها باردة كالثلج. لقد كانت يده في يدها حقا لم يتركها. ورأى الفراشات

تزداد فوق وجهها تحوم طائرة من جديد. جاءت مرة أخرى لا يعرف من أين. كل النوافذ مغلقة. ترك ريم والفراشات فوق وجهها ونزل أمام الفيلا ثم فكر فجأة هل سيترك الفيلّا التي لن يعود إليها وبها ملابس ريم. وهل سيكون قادرا أن يجمعها الآن؟ نور ستعرف ماذا يفعل وستبكي أكثر. لكن لابد أن يفعل ذلك.

لم يطل به الوقت. بسرعة راح يفرغ الدولاب من الملابس ويضعها في حقائب كانت في غرفة أخرى وأحضرها. لم تكن في غرفة نور. يبدو أن نور استسلمت للنوم من تعب السفر. من ألم الفراق.

اكتشف أنه يفعل ذلك بسرعة حتى لا يستجيب للبكاء وهو يمسك بكل قطعة ثياب ويعرف من أين اشترتها ريم أو اشتراها هو. داخل مصر وخارجها. ملأ خمس حقائب كبيرة. لم ينسَ الأحذية. واللانجيري الذي كان يحتفظ بعطره أكثر مما احتفظت الملابس رغم أنهما لم يأتيا هنا منذ ثلاث سنوات. انتبه إلى أنه لم يتوقف عن شم كل قطعة ثياب قبل أن يضعها في الحقيبة. أن دموعه تمتزج بها وتسقط في الخطوتين إلى الدولاب ليخرج مافيه وفي عودته إلى الحقائب. ترك ملابسه هو. لم يأخذ منها إلا ماكانت تحبه ريم أو اشترته هي.

وقف ينظر في حسرة إلى الصور المتناثرة حول جسد ريم فوق السرير والتي لم يجمعها أبدا من قبل حتى بعد أن جاءت غادة التي بدورها تركتها مكانها.

راح يجمع الصور فاكتشف أن في بعضها يظهر أعضاء من الفرقة الموسيقية للأوبرا وتظهر غادة أيضا.

كان النهار قد استيقظ أكثر وسمع أصوات العصافير تزداد في الخارج. ترك مكانه ونزل يفتح باب الفيلا.

رأى النهار يوسع في الكون وليس إلا سحب رمادية بعيدة. رأى عصافير كثيرة تتنقل بين الأشجار. النهار إذن يشتد. الساعة صارت الثامنة ولم تستيقظ نور. لن يوقظها. جلس إلى المنضدة في الباحة ينظر إلى الفراغ من حوله. بشعر بالهواء البارد. لا يبدو أن مطرا في الطريق فالسحب بعيدة اليوم، لكن هل كان هنا حقا من قبل؟

في التاسعة توقفت سيارة «أوبل» أمام الفيلا. رآها فعرف بوصول مدير أعماله الذي نزل منها متجها إليه. صافحه قائلا في تأثر:

- البقية في حياتك يا سامر بيه.

أحس بعدم قدرته على الوقوف فظل جالسا على المقعد قائلا:

- انتهت القصة يا محمد.

- قدر الله وما شاء فعل يا أستاذ. لقد بذلت أقصى ما عندك.

وسكتا فقال مدير أعماله:

- لقد فعلت كل ما أمرتني به. بعت المصنع والمحلات ووضعت ثمنها في حساب حضرتك.

هز رأسه فقال مدير الأعمال:

- هل حقا ستترك مصر؟

- لم يعد لي مكان هنا. مصر تعني ريم. لا شيء آخر.

تردد مدير الأعمال لحظات ثم قال:

- لكن ما ذنب نور؟ لابد أنها تحب الحياة هنا.

- كل أموالي هي لنور في النهاية وهي تقرر ماذا تفعل. لا أظن أنها ستتركني وتعود.

خيم عليهما الصمت لحظات طويلة. قال سامر:

- لكنك أتيت بسرعة يا محمد

- تحركت فور أن حدثتني ولولا الشابورة في الطريق لحضرت في السابعة.

لم يمر وقت طويل حتى جاء الطبيب الشاب عادل. كانت الساعة تقترب من العاشرة. وجاء معه طبيب الصحة.

حين صعد سامر مع الطبيبين وجد نور جالسة أمام أمها تبكي في صمت. كيف حقا تصور أنها نائمة حتى الآن. أخذها من ذراعها في هدوء ونزل بها إلى أسفل ثم صعد من جديد.

انتهى كل شيء ونور جالسة في الخارج تبكي وجوارها مدير الأعمال يحاول أن يخفف عنها بالحديث. لم يفحص طبيب الصحة جثة ريم.

طلب الاطلاع على روشتات الأدوية فقط. عرف أن الموت كان نهاية مرتقبة. نزل مع سامر ونزل بعدهما الطبيب الشاب عادل بعد أن فصل الكانيولا عن ذراع ريم والقسطرة عن مثانتها. وظهر عثمان لايحمل صحفا اليوم. لقد نزل من التاكسي ونزلت خلفه المرأة التي ستقوم بالغسل ومعها امرأة أخرى أصغر فيما يبدو ستساعدها. كان يحمل في يده حقيبة بلاستيك كبيرة. رأى نور فخمن أنها لابد ابنة سامر. تقدم ناحية سامر وبدا متألما بحق. مد يده يصافحه وقال:

- البقية في حياة حضرتك وحياة المدموازيل يا أستاذ.

كان الجميع واقفين إلا نور التي تجلس إلى المنضدة وتضع رأسها بين يديها لا تكف عن البكاء. قال عثمان:

- هذه هي السيدة التي ستقوم بالغسل ومعها المساعدة لها. هل تصعد الآن؟

- أجل.

أشار عثمان لهما بالصعود وأعطى السيدة الأكبر الحقيبة البلاستيك وقال لسامر:

- اشتريت كفنا أيضا. حضرتك نسيت تقول لي لكن أنا لم أنسَ.

نظر إليه سامر بامتنان ثم قال لطبيب الصحة:

- سيحضر إليك من القاهرة الأستاذ محمد مدير أعمالي يتسلم شهادة الوفاة.

أعطى طبيب الصحة كارتًا لمدير الأعمال به اسمه وعنوان مكتب الصحة وقال له:

- في انتظارك في أي وقت.

شكره مدير الأعمال وهو يتناول الكارت. صافحهما سامر وشد كثيرا على يد الطبيب الشاب عادل يشكره. عادل بدوره تمنى له الصبر والسلوان وبدا متأثرا بحق وقال:

- لن أنسى إخلاصك للمرحومة يا سامر بيه. هذا شيء نادر في هذا الزمان.

وانصرف مع طبيب الصحة في سيارته. ظهرت في الوقت نفسه سيارة ميكروباص بها بعض الأفراد. عرفهم سامر. إنهم من أعضاء الفرقة الموسيقية للأوبرا. زملاء ريم. نظر إلى مدير أعماله فقال:

- لم أنسَ أنك قلت لي يوما لو رحلت ريم عنا سأودعها بالموسيقى.

نزل أعضاء الفرقة الموسيقية يرتدون بدلا كاملة سوداء وكرافتات سوداء تحتها قمصان بيضاء يصافحون سامر يعزونه في وفاة زميلتهم. حبيبتهم كما قالوا. يعزون أنفسهم كما قالو أيضا ويبدو عليهم الألم وفي يد كل منهم كمنجة وعثمان مندهش مما يرى. لكنه بسرعة أحضر من داخل الفيلَّا مقاعد تكفيهم. كانو ستة أفراد. أكثر من واحد منهم ابتعد بمقعده في الباحة وجلس حزينا. نزل سائق الميكروباص أيضا مندهشا وقام بتعزية سامر ووقف بعيدا.

عادت المرأة المغسلة ومساعدتها. أعطاها مدير الأعمال ما طلبته من نقود وأكثر. قالت في تأثر:

- أستغفر الله العظيم. يا رب خسارة الجمال دا يروح من الدنيا بسرعة كده.

هنا انفجرت نور في البكاء من جديد بصوت عال فجلس سامر جوارها وأخذها في حضنه، وعثمان الذي تأثر ببكاء نور ابتعد قليلا ووقف حزينا. كان مدير الأعمال يقف بعيدا يتحدث في الموبايل يصف الطريق لسائق سيارة نقل الموتى الذي جاء خلفه من القاهرة. ظل يتحدث حتى ظهرت سيارة نقل الموتى أمامهم. ما إن رأتها نور حتى صرخت «ماما. خلاص حتمشي» ضمها سامر إلى صدره أكثر وقال:

- الصبر يا نور. لافائدة مما تفعلينه يا حبيبتي. أرجوكِ. كوني قوية حتى نصل بها إلى مثواها في القاهرة.

نزل من سيارة نقل الموتى السائق وعامل معه. قال لهما مدير الأعمال:

- أرجو أن تساعدانا في إنزال الحقائب أولا من أعلى وتضعوها في ميكروباص الفرقة الموسيقية. سيعودون معنا إلى القاهرة.

وتقدم من سائق ميكروباص الفرقة الموسيقية وأعطاه ورقة بها عنوان سامر قائلا:

- ستعود طبعا معنا بالفرقة الموسيقية إلى المقابر في القاهرة ثم تتجه بالحقائب إلى هذا العنوان بعد الدفن.

صعد سائق عربة نقل الموتى والعامل معه. عادا بالحقائب وتسلمها سائق الميكروباص يرصها بنظام أعلى شبكة الميكروباص ويربطها بحبل. انتهوا فتوزع أعضاء الفرقة الموسيقية على الناحيتين. وبدءا العزف في دهشة من عثمان وسائق الميكروباص وسائق عربة نقل الموتى والعامل الذي معه.

أشار مدير الأعمال لسائق عربة نقل الموتى ففهم إشارته. أخرج هو والعامل معه النعش الخشبي من السيارة من الخلف ونظرا إلى عثمان وسائق الميكروباص فانضما إليهما وحمل الأربعة النعش الفارغ على أكتافهم داخلين به إلى الفيلَّا والموسيقي تعزف ونور في صدر أبيها تنتحب.

تنهد سامر وهو يشعر بروحه ترتفع عنه إلى الفضاء. بشيء يرفعه إلى أعلى.

«أداجيو» البينوني. اختاروه وحدهم كأنهم يعرفون ما يريده. كأنهم يعرفون كيف استمع إليه من قبل في فضاء الفيلا. الموسيقى تتقدم في بطء في انتظار النعش القادم ممتلئا من الداخل ونور تقف ثم لا تستطيع الاستمرار. تكاد تتهاوى فيتحرك إليها سامر ويأخذها في حضنه من جديد. تعرف هي أيضا الألم الذي تبثه المقطوعة الموسيقية في الفضاء. حتى إذا

ظهر النعش على أكتاف السائق ومساعده وسائق الميكروباص وعثمان وجدوا أنفسهم يتوقفون. ينظرون إلى الفرقة الموسيقية مندهشين أكثر وعلى غير العادة لم يتقدموا بالنعش بسرعة. وجدوا أنفسهم يتحركون ببطء وحولهم الموسيقى تتألم وتشيّع كل الآمال ووجوه العازفين تتألم وبعضهم قفزت من عينيه الدموع وابتعد مدير أعماله يمسح دموعه وتتقدم الجثة على الأعناق بهدوء في نعشها. حتى إذا أدخلوا النعش إلى سيارة نقل الموتى وأغلقوا الباب تفرّق الموسيقيون متجهين إلى الميكروباص الذي جاءوا به دموعهم في عيونهم، بينما كانت عينا سامر قد جذبتها الفراشات التي كانت تطير خلف النعش وهي تقف تحوم طائرة خلف باب عربة نقل الموتي المغلق الآن كأنما تريد الدخول.

هتف مدير الأعمال للجميع:

- سنلتقي في مقابر البساتين بالقاهرة بعد أربع ساعات.

كانت سيارة سامر التي قرر أن يقودها به عثمان ومعه نور آخر ما تحرك. لقد ترك عثمان سيارته اللادا أمام الفيلّا في الشارع كما هي غير خائف أن تسرق. رأى عثمان الفراشات تطير قليلا خلف العربة حتى ابتعدت العربة فتفرقت في الفضاء. مسح عثمان دمعة تنزل على مهل من عينه. سمعوا صوت انفجار بسيط ثم صوتا آخر. نظر عثمان إلى الفيلا وصرخ:

- ما الذي يحدث للفيلا يا أستاذ؟

هز سامر رأسه وقال:

- انطلق يا عثمان. لا تنتظر.

اندفعت نور باكية وصوت الانفجار يتكرر هادئا، وما أن ابتعدت السيارة أكثر حتى سمعوا صوت انفجار كبير.

قال عثمان باكيا وهو يقود السيارة:

- حتى الجماد يا ربي لم تعد به رغبة في البقاء بعد أن فارقته صاحبته.

انتهت 2014

للمؤلف

أولًا: الروايات

1 - في الصيف السابع والستين - الطبعة الأولى عام 1979 -الطبعة الثالثة - 2008.

2 - ليلة العشق والدم - الطبعة الأولى عام 1982-الطبعة الخامسة - 2005.

3 - المسافات- الطبعة الأولى عام 1982 -الطبعة السادسة - عام 2005 - ترجمت إلى الإنجليزية -جامعة سيراكيوز بالولايات المتحدة وقسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عام 2008.

4 - الصياد واليمام - الطبعة الأولى عام 1984 -الطبعة السابعة عام 2005.

5 - بيت الياسمين - الطبعة الأولى عام 1986-الطبعة الخامسة عام 2005 - ترجمت إلى الفرنسية عام 2000 وإلى الإيطالية عام 2008.

6 - البلدة الأخرى - الطبعة الأولى عام 1991- الطبعة الخامسة - عام 2006.

ترجمت إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية.

7 -قناديـل البحـر - الطبعـة الأولـى عـام 1992-الطبعـة الرابعـة عـام 2006.

حولت إلى مسلسل تليفزيوني بطولة آثار الحكيم ومحمود قابيل.

8 - لا أحـد ينـام في الإسـكندرية- الطبعـة الأولى عـام 1996 - الطبعة العاشـرة - عام 2011 - حولت إلى مسلسـل تليفزيوني بطولة ماجد المصري ومادلين طبر وسهير المرشدي

ترجمت إلى الفرنسية والإنجليزية.

9 - طيور العنبر - الطبعة الثالثة.

ترجمت إلى الإنجليزية

10 - برج العذراء - الطبعة الأولى - نفدت.

11-عتبات البهجة - الطبعة الثانية - عام 2007.

ترجمت إلى الفرنسية واليونانية

12- شهد القلعة - الطبعة الأولى عام 2007.

13- في كل أسبوع يوم جمعة - الطبعة الرابعة عام 2012.

14- الإسكندرية في غيمة- عام 2013.

15- هنا القاهرة - عام 2014.

ثانيا :المجموعات القصصية:

1 - مشاهد صغيرة حول سور كبير 1982.

2 - الشجرة والعصافير 1985.

3 - إغلاق النوافذ 1992.

4 - فضاءات 1992.

5 - سفن قديمة 2001.

6 - ليلة أنجيلا 2003.

كلها نفدت وطبعت أخيرا في مجلد واحد بعنوان «أشجار السراب».

7- حكايات ساعة الإفطار - عام 2013.

ثالثاً:كتب متنوعة:

1 - مذكرات عبد أميركي -ترجمة عن الإنجليزية - تأليف فريدريك دوجلاس 1988.

2 - 24 ساعة قبل الحرب مسرحية 2001.

3 - أين تذهب طيور المحيط أدب رحلات 2003.

4 - ما وراء الخراب - مقالات في الدين والآخر والهوية والنهضة والتراث 2008.

5 - السبت فات والحد فات. مقالات عام 2010.

6 - أيام التحرير - عام 2011.

7 - من الذي يصنع الأزمات في مصر عام 2013.

8 - ماوراء الكتابة - تجربتي في الإبداع - عام 2014.

رابعًا: الجوائز:

1 - الجائزة الأولى في القصة القصيرة - نادي القصة بالإسكندرية 1969.

2 - جائزة نجيب محفوظ في الرواية عن البلدة الأخرى - الجامعة الأمريكية - 1996.

3 - جائزة الدولة للتفوق في الآداب عام 2004.

4 - جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 2008.

5 - جائزة ساويرس في الرواية لكبار الكتاب عام 2011.

Face book: ibrahimabdelmeguid

Twitter:@ibmeguid

E.mail: ibrahimabdelmeguid@hotmail.com

«وتداهمه مقطوعات موسيقية كثيرة. يصل إلى البيانو في وقت طويل. هل كان وقتًا طويلًا حقًّا أم هو الذي يسلم نفسه لأصوات الموسيقى. لقد وصل إلى البيانو ويجلس أمامه الآن لكنه لايفعل شيئًا. يسمع الرابسودية المجرية رقم 2 لفرانز ليست تتهادى حوله والبيانو يتحرك بين فيولينات لايراها. الرابسودية مثل البحر الحزين وهو دون أن يدري صار يحرك ذراعه كقائد للأوركسترا. على مهل حينًا وبسرعة حينًا. ورأسه تهتز في استغراق عميق. لقد نزل من أجل موزار فأخذه غيره لكنه يسمع الآن كونشيرتو البيانو رقم 21 لموزار. عاد موزار. عاد أماديوس موزار. عاد «حبيب الله» موزار.

وكادت دمعة تقفز من عينه. إذن أخذته إيقاعات بيانو فرانز ليست السريعة إلى موزار. لايدري مَن يفعل به ذلك لكن ما أجمله إذا كان بشرًا خفيًّا، وما أعظمه إذا كان الله».

قصة حب كبيرة استثنائية في الفراق. فيها من البهجة الكثير، لكنها مثل «الأداجيو» الحزين، لحن الوداع.. الأداجيو وهي المقطوعة الموسيقية، ينتقل بها الكاتب الكبير من عوالمه الأثيرة، المدن، والصحراء.. إلى الروح الإنساني في لحظات لا تتكرر!

الكاتب الكبير إبراهيم عبد المجيد صاحب ثلاثية الإسكندرية و«هنا القاهرة» و«البلدة الأخرى» و«عتبات البهجة» وغيرها من الروايات، ترجمت كثير من أعماله وحصل على جوائز عديدة.





الدار المصرية اللبنانية